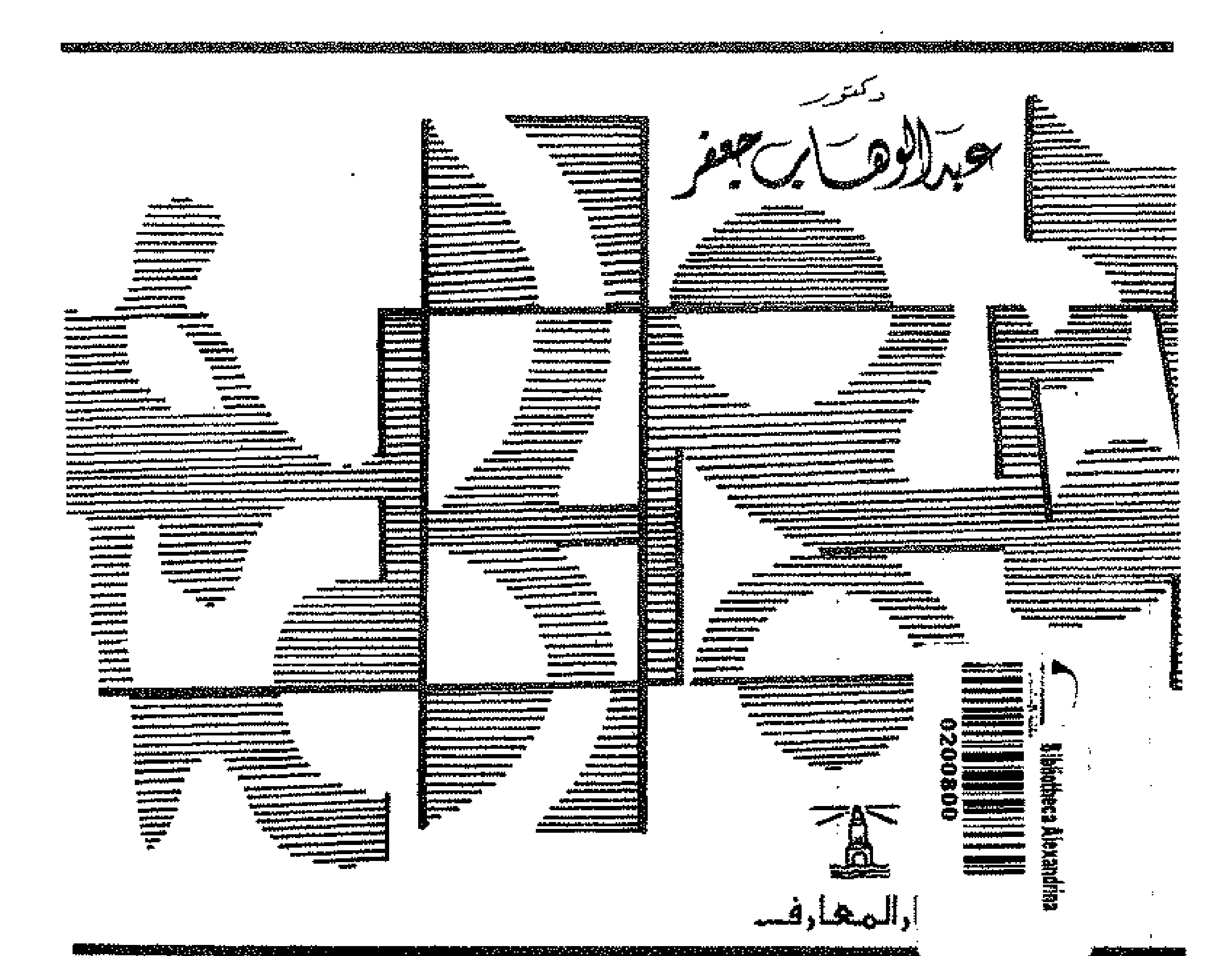
البنيوية بين العلم والفلسفة

عند ميشيل فوكوه



البنيوية بين العلم والفلسفة

البنيوية بين العلم والفلسفة
عند
ميشيل فوكوه

تأليف

دكتور عبد الوهاب جعفر

أستاذ الفلسفة المساعد بكلية الآداب
جامعة الإسكندرية

١٩٨٩



دار المعارف

«تصدير»

يعالج هذا الكتاب موضوعا من أحدث موضوعات الفلسفة . إذ أن البنيويه وهي عنوان هذا البحث هي آخر الإتجاهات الفلسفية التي إنتهى إليها الفكر الإنساني بعد أن تعلق طويلا بإتجاهين : إتجاه إلى الذات المشخصة وإعتبارها محور التأمل الفلسفي، وإتجاه آخر مضاد لا يعنى بغير الظواهر المحسوسة ويؤدي إلى ظهور الفلسفة الوضعية ثم الوضعية المنطقية بصورها العديدة . والأمر الذي يجب أن نشير إليه هو أن البنيويه تعد ثورة على كلا الإتجاهين. فهي لا تعنى بالفرد المشخص أو «بالأنا» التي يتغنى بها الوجوديون، كما لا تعنى ، «بنحن» التي ينشغل بها الإجتاعيون ، ولا تنصب دراستها على العلاقات المحسوسة في المجتمعات أو بين الأفراد ، بل هي تذهب إلى ما هو أبعد من ذلك ، لأنها تريد الكشف عن باطن الظواهر أو البنية التي تؤسسها .

وتنصب الدراسة في هذا الكتاب على تطبيق المنهج البنيوي في مجال البحث الإبستمولوجي (أي المعرفي) . ولما كان التحليل البنيوي بوجه عام ينصب على الدراسة الحالة للموضوع ، وهي الدراسة التي تستبعد أي تدخل للذات أو الشعور ، لذا فقد إستحدث ميشيل فوكوه تساؤلا فلسفياً جديداً عن البنية المعرفية السائدة في حقبه معينة والتي تبرر ظهور العلم والتفلسف معاً في تلك الحقبة . وقد بين المؤلف أن منهج فوكوه هو وصف أحداث المقال باعتبارها مجالا للبحث عن وحدات.وهو وصف يتميز عن التحليلات اللغوية والمنطقية. ويستخدم فوكوه كلمة «منطوق» للاشارة إلى «حدث مفرد» في مقابل مجموعات المنطوقات التي تسمى «مقالا» كمايستخدم كلمة «أركيولوجيا»

للدلالة على منهجه فى البحث ، وهو المنهج الذى يتلخص فى وصف صور تبعثر المنطوقات . وقد عرض الباحث كيف حاول فوكوه أن يفرق بين منهجه وبين علم تاريخ الأفكار . فهذا الأخير يستند إلى «الذات» لما لها من دور مؤسس فى مجال المعرفة بينما كان الفكر عند فوكوه يتعرى تماماً من أى كوجيتو . ويرى القارئ فى هذا الكتاب أن فوكوه يحدثنا عما يسميه حقبا منطوقيه أى مجموع العلاقات التى تربط بين الممارسات المقالية فى عصر معين ، وهى الممارسات التى تؤدى إلى أشكال معرفية وعلوم وأنساق صورية. وللتدليل على صحة المنهج الأركيولوجى وما توصل إليه من عدم الإعتراف بالإستمرارية فى المقال أو فى الوحدات المعرفيه يبين فوكوه أن المنطوقات التى تنتسب إلى علوم الطب العقلى قد جمعت منذ القرن السادس عشر فى وحدة زائفة ، وكان يضمها موضوع وحيد أطلق عليه إسم «الجنون» ، فى حين أن الجنون ظاهرة ثقافية تتغير حسب متغيرات العصر ، كما أن الكلمة لم تحتفظ بمفهوم أوحد على مر العصور . وأخيرا فقد بين فوكوه أن أركيولوجيا المعرفة فى طريقها إلى العلم إنما تبدأ بالممارسة المقالية وتمر بالمعرفة وذلك بدلا من الطريق التقليدى الذى يبدأ بالشعور ويمر «بالمعلومات» ، ثم يصل إلى العلم .

والأمر الذى لا شك فيه أن معالجة الموضوع بهذا الأسلوب وعلى هذه الصورة التى ساقها المؤلف إنما يعد إسهاماً جذيراً بالتنوية ومعالجة جادة لموضوع جديد فى الفكر العالمى المعاصر ومحاولة متعمقة لربط مفاهيمنا العربية فى الثقافة وفى العلم بتلك المفاهيم العالمية .

ولا شك أن المؤلف يستحق كل الثناء على ما بذله من جهد فى معاناة

هذا الموضوع وفى سبر أعماقه بأسلوب علمى رصين حظى منه بتقدير المختصين.
والله نسأل أن يوفقه إلى مزيد من الإنتاج العلمى فى هذه الميادين التى تعتبر من الدعائم الرئيسية للثقافة الغربية المعاصرة والتى علينا أن ننهل منها بالقدر اللازم لإثراء ثقافتنا وحضارتنا المعاصرة فى الوطن العربى الكبير .

دكتور محمد على أبو ريان
أستاذ ورئيس قسم الفلسفة
بكلية الآداب ـ جامعة الأسكندرية

مقدمة

يقول أحد الكتاب المعاصرين : «إن البنيويه هي سيدة العلم والفلسفة رقم واحد ، بلا منازع ، ابتداء من سنة ١٩٦٦ حتى اليوم »(١). ولعله كان يضع في اعتباره عند تحديد هذا التاريخ ، تاريخ ظهور كتاب «الكلمات والأشياء» للفيلسوف ميشيل فوكوه . فقد كان هذا الكتاب بحق أول تطبيق للاتجاه البنيوى في مجال البحث الابستمولوجي ، وبه أصبحت البنيويه سيدة البحث الفلسفي .

غير أن البنيويه قد سادت العلم قبل ذلك بكثير . ففى سنة ١٩٥٥ ظهر كتاب «الآفاق الحزينة» للعالم الأنثروبولوجي ليفى ستروس (٢) ، واعتبره الباحثون بداية لظهور البنيويه على مسرح الفكر (٣) ، رغم أن المعالم الأولى لهذا الاتجاه قد رسمتها الأبحاث اللغوية في بداية هذا القرن ابتداء من ظهور محاضرات فرديناند دى سوسير (٤) فى علم اللغة سنة ١٩١٦ .

البنائية والبناء : (أو معنى البنيويه)

و السؤال الذى يتبادر إلى الذهن الآن هو «ما البنائية ؟ » . «البنائية» هي

---

(١) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، (مكتبة مصر — ديسمبر ١٩٧٦) ، ص ٠٧

(٢) Lévi-Strauss : .."Tristes Tropiques,, , Plon, 1955) (2)

(٣) راجع : «المدخل الفلسفى للأنثروبولوجيا البنائية» ، (رسالة ماجستير الباحث سنة ١٩٧٥ مكتبة كلية الآداب جامعة الاسكندرية) ، ص ٢٨ .

(٤) عالم لغة سويسرى ، ولد فى جنيف (١٨٥٧ — ١٩١٣) . وقد قام أحد تلامذته بنشر محاضراته بعد موته سنة ١٩١٦ . ونلاحظ أن سوسير كان يستخدم كلمة «نسق» 'système' أما كلمة «بناء» فلم تظهر بعد ذلك إلا فى مؤتمر «براج» لعلماء اللغة سنة ١٩٢٩ .

من «البناء» أو «البنية» . و«بنية» الشيء في اللغة العربية هي «تكوينه» ، وهي تعني أيضاً «الكيفية» التي شيد على نحوها هذا البناء أو ذاك . وحين نتحدث عن البناء الاجتماعي أو بناء الشخصية أو البناء اللغوي ، فإننا نشير بذلك إلى وجود نسق عام ، أهم ما يتصف به هو عنصر النظام . فالبناء هو صورة منظمة لمجموع من العناصر المتماسكة . ومن هنا فإن التعريف المبدئي للبناء أو البنية Structure يقوم على اعتباره مجموعة من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة يمكن أن ينشأ على منوالها عدد لا حصر له من النماذج

ولتبسيط معنى البناء، أورد كليرامبار André CLERAMBARD مثالا محسوساً هو مثال السيارة . فتحليل بناء السيارة لا يعني تفتيتها إلى قطع صغيرة بل يعني تمييز عناصر المحرك بعضها عن بعض ، وكذلك تمييز بقية العناصر في جسم السيارة حتى يتسنى لنا معرفة استخدام كل عنصر أو على الأصح ما يساهم به كل عنصر في تحقيق الهدف الذي صممت السيارة من أجله. وهذا الهدف هو الذي يضمن ترابط جميع العناصر المكونه الكل أي البناء (٥). ويلاحظ أن «البناء» ، في هذا المثال ، يتوفر على عنصر النظام وتماسك الأجزاء كما يتوفر على «القانون» الذي يفسر تكوينه ، وهو الهدف أو الوظيفة ، كما أنه يسمح بأن ينشأ على منواله عدد لا حصر له من النماذج .

غير أن البنائيين في دراستهم للظواهر البشرية وغير البشرية لا يتوقفون عند المعنى التجريبي الذي يضعه الواقع بين أيديهم — على نحو مباشر — بل إلى الكشف عن «النسق العقلي» أو «القانون» الذي يختبيء خلف الظواهر المحسوسة . وهم في هذا يخالفون ما درج عليه الاجتماعيون قبلهم من النظر إلى

---

(5) André CLERAMBARD :"Structuralisme" in (Dictionnaire (•) des Grandes Philosphies, Privat, Toulouse, 1973).

نسق العلاقات والتفاعلات الاجتماعية الظاهرة باعتبارها كافية بذاتها . فالأنثروبولوجيا البنائية مثلا عند ليڤى ستروس تبحث عن تفسير هذا النسق فى « بناء » مستتر Une Structure sous - jacente ، ولا شعورى ، ويتصف بالثبات ، وهو بالتالى لايدخل فى نطاق الظواهر الملاحظة . ولتوضيح ذلك نقول أنه إذا كان «التبادل» échange هو القاسم المشترك فى عدد كبير من النشاطات الاجتماعية التى تبدو غير متجانسة فيما بينها ، فاننا — مع ذلك — لا نرى «التبادل» ضمن الظواهر فى الواقع : لأن الملاحظة الأمبيريقية لا تسجل إلا حالة طرف أول يقدم عطاء ، وطرف آخر يقبل العطاء ثم يحاول أن يرد بعطاء مماثل (donner, recevoir, rendre) . وواضح أننا لا يمكن أن نفترض وجود قوة فيزيقية فى الأشياء تجعلها متبادلة خصوصاً وأن الأشياء المتبادلة ليست كلها مادية ، إذ هناك اشارات ومجالات لفظية هى الأخرى قابلة للتبادل . ولا مفر إذن من النظر إلى التبادل على أنه «بناء» يصدر مباشرة عن «الوظيفة الرمزية» (٦) . وهذا لا يستتبع بالضرورة أن يكون للأفراد فى المجتمع أى معرفة مسبقة بمبدأ « المبادلة » réciprocité الذى يحكم تصرفاتهم تماماً كالشخص الذى يتكلم لغة معينة ولا يتحتم عليه أولا أن يقوم بتحليل لغوى للغته .

وهكذا يكتشف ليڤى ستروس بناءاته بطريقة استنباطية ويتصورها فى شكل هرمى يعلوه بناء البناءات أو مايسميه هو «ترتيب الترتيب» Ordre des ordres :

ويتضح مما تقدم أن «البناء» هو مبدأ الظاهرة الاجتماعية وهو المبدأ المفسر لها فى نفس الوقت . كما يتضح أن البناءات لا تحتم فقط ما يقوم به الأفراد

---

(٦) المقصود بالوظيفة الرمزية عند ليڤى ستروس ، هو اللاشعور ، وهو عنده ذو طبيعة منطقية

من نشاط ، بل أنها تعمل فى غياب الأفراد . ذلك أن الأفراد فى المجتمع هم «ملك للبناء أكثر من كونهم يمتلكون له Elle les a plutôt qu'ils ne l'ont وهذه هي بادرة موت الإنسان فى المفهوم البنائى ، أو « أفول البشر » la crépuscule des hommes على حد تعبير ليڤى ستروس (٧).

وإذا انتقلنا إلى علم اللغة البنائى la linguistique structurale فاننا نلاحظ أنه يحتل مكان الصدارة بالنسبة لجميع الأبحاث البنائية . ذلك أنه إذا صح أن الأفراد فى جميع المجتمعات يمارسون علاقات تبادل échange ، فإن تبادل الاشارات اللغوية هو أكثر هذه العلاقات عمومية حتى أن ما عداها من علاقات التبادل مثل تبادل المتاع والتبادل الاقتصادى وتبادل النساء لابد وأن تترجم مباشرة أو بطريق غير مباشر إلى تبادل لغوى . ولذا كان هذا الأخير بمثابة المدخل المفضل لكل دراسة اجتماعية .

إن موضوع علم اللغة هو الانتقال من دراسة الظواهر اللغوية الشعورية إلى (بنائها التحتى) اللاشعورى . وينص منهج علم اللغة على أن الإشارة اللغوية ليست وسيطاً محايداً بين الشيء والتعبير عنه ، بل إنها تنشيء علاقة بين مدلول signifié (هو ما يريده المتحدث أو الرسالة المراد تبليغها) وبين رمز دال signifiant (هو الوسيلة الصوتية الشفهية أو المحررة كتابة والتى يجب أن يمتلكها نفس هذا المتحدث لكي يكون مفهوماً لمستمعيه). وبعبارة أخرى فان موضوع علم اللغة هو نسق الرموز système de signes الذى ينشأ عن حتمية الاتصال بين فئتى الدال والمدلول على اعتبار أن الأولى صوتية sonore أما الثانية فهى تصورية conceptuel (٨) ويرفض منهج علم اللغة

---

(٧) راجع : «المدخل الفلسفى للأنثروبولوجيا البنائية» ، (سبق ذكره) ، ص ١٠٤ .
(٨) نفس المرجع ، ص ٢٥ .

اعتبار الألفاظ termes كوحدات مستقلة ، ويجعل التحليل قاصراً على العلاقات بين هذه الألفاظ . فتعريف اللفظ فى علم اللغة لا يكون بنسبته إلى مدلول ، وإنما يكون بعلاقته بألفاظ أخرى من نفس اللغة ، وذلك ما يسمى فى المنطق «التعريف الاسمى» . ولما كانت اللغة هى نسق تمر من خلاله جميع الرسائل التى يريد المتحدث أن يوصلها إلى الآخرين ، لذا فإن كل الرسائل ينبغى أن تتبع قوانين هذا النسق . وقد كان هدف علم اللغة هو البحث عن هذه القوانين العامة وتعريفها حتى يصل إلى الخصائص العامة للغة بطريقة استنباطية (٩).

وقد توصل علم اللغة إلى نتائج هامة بعد ظهور الفونولوجيا (علم الأصوات) على يد العالم الروسى نيقولا تروبتسكوى Nicolas TROUBETSKOY (١٨٩٠ — ١٩٣٨) . وكان المبدأ الأساسى فى النظرية الفونولوجية هو إضفاء مضمون ملموس على الفكرة القائلة بأن اللغة «نسق» تسوده العلاقات القائمة بين الوحدات الصوتية هى «الفونيمات» phonèmes وهى ذات عدد ثابت ومحدد فى كل لغة من اللغات (مابين عشرين وأربعين). ومثالها فى اللغة العربية «ت» و«ط» و الـ «د» و الـ «ض» ، الـ «س» و الـ «ع» . وتقوم الفونولوجيا على وصف هذه الوحدات الصوتية التى تؤلف المستوى «الدال» للغة . وهى تبين أن أى صوتين من أصوات اللغة يصبحان «فونيمين» (مثنى «فونيم» phonème)إذا كان من شأن إحلال الواحد منها محل الآخر فى أى سياق لغوى واحد بعينه أن يحدث تغييراً فى المعنى (١٠) . وقد استطاع جاكوبسون (١١) — فى تحليله

---

(٩) نفس المرجع ، ص ٢٦ .
(١٠) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٦٥ .
(١١) جاكوبسون Roman JAKOBSON هو من مؤسسى الفونولوجيا ، ولد فى موسكو سنة ١٨٩٦ .

الفونولوجي – أن يكشف عن وجود نسق أو «نظام» من المتقابلات الصوتية الأساسية opposés (التي يبلغ عددها اثنى عشر تقابلا مزدوجاً) ، قال عنها أنها تمثل النظام الفونولوجي الأصلي الذي تستمد منه كل لغة نسقها الفونولوجي الخاص . وربما يعني هذا أن هناك كليات universaux على مستوى التنظيم الصوتي للغات (١٢).

وإذا أردنا أن نلخص أهم النتائج التي توصل اليها علم اللغة في ضوء ما أسفرت عنه الأبحاث الفونولوجية ، فاننا نستعين بالدراسة الرائدة التي قدمها العالم الهولندي بوس H.J.Pos في حلقة اللسانيات التي عقدت في مدينة براج عام ١٩٣٩ ، وفيها يقرر : (١٣).

أولا : أن الأبحاث الفونولوجية قد أفسحت الطريق أمام البحث عن فكر لاشعوري وراء الأنساق الصوتية . فالنسق الصوتي système phonique لا يرد إلى مجموع العناصر المترابطة فيما بينها بعلاقات تقابل opposition ، بل إن هذه التقابلات ذاتها هي المكونة لواقع النسق . وذلك لأن الفرد الذي يسمع اللغة لا يمكنه أن يتعرف على «الفونيات» إلا بفضل ما يوجد بينها من تمايز أو تقابل ، بل إنه قد يتعذر عليه تماماً أن يتعرف على الفونيات ذاتها منفصلة عن هذا التقابل . غير أن هذا لا يعني أن وجود علاقات التقابل يلغي وجود المضمون المادي للعناصر المتقابلة . فالتقابل هو الصورة forme التي تستند إلى مضمون contenu .

---

(١٢) نفس المرجع السابق ، ص ٦٦ .

(13) H.J. Pos : "Perspectives du structuralisme", dans : (Travaux du Cercle linguistique de Prague 8.), Prague, 1939, PP. 71—78.

ويرى الأستاذ بورس أن هذه العناصر المترابطة بعلاقات تقابل ، انما تكشف عن تناسق تام يجعلنا نبحث عن فكر لا شعورى وراء هذه الانساق الصوتية .

ثانياً : إذا كان كل فرد ينتمى إلى وحدة لسانية معينة : يستخدم عدداً من الأنماط الصوتية de sons-types هى التى تكون اللغة ، وإذا كانت هذه الأنماط متماثلة بالنسبة لجميع الذوات . فإن هذه الظاهرة انما تؤكد فكرة الغائية اللاشعورية التى لا تتوقف عند حدود الفرد بل تتعداه ، وذلك لأنها تمده بوسيلة للتفاهم لا يضارعها أى مشروع مصطنع أقامة البشر . هذا بالاضافة إلى ما نلاحظه من وجود نظام داخلى يجعل من فونيات اللغة شيئاً آخر أكثر من مجرد تجمع عشوائى . وكل ذلك يجعلنا نقتنع بأن نفس الغائية اللا شعورية التى تتحكم فى الجسم الانسانى تقوم بعملها فى اللغة ، وأنه ليس نتصور من المستبعد أن نتصور اللغة كعضو فى جسم المجتمع البشرى .

ثالثاً : ان التحليل العميق للتواصل عن طريق اللغة ، إنما يبين كيف أن اللغة إلى جانب القيم الاجتماعية والأخلاقية والثقافية ، تكون تعبيراً عن واقع روحى Réalité spirituelle يشمل جميع الأفراد ويعنى بالنسبة لهم مصدراً (وسبباً) لوحدتهم . وهنا يتضح أن الفونولوجيا تكشف عن ميتافيزيقيا للتفاهم البشرى هى سند لعلوم الأخلاق .

رابعاً : إن هذه الأبحاث إنما تجذب الأنظار نحو بنية معقولة structure intelligible لنسق فونولوجى قد يظن أنه نتاج فكرى ، رغم أنه ليس ثمرة لتفكير أى فرد .

ويتبين من هذه النتائج أن التحليل الفونولوجى كان رائداً بمعنى الكلمة فى مضمار الدراسات البنائية المنهجية .

ومن هذا العرض الموجز للبنائيات الانثروبولوجية واللسانية يمكننا أن نستخلص أهم أساسيات المنهج وهي :

١ — إن تفسير الظواهر يبدأ فقط عندما نتوصل إلى تركيب الموضوع constituer l'objet . فالعلوم اللسانية باستخلاصها اللغة من الكلام استطاعت أن تعطي لنفسها موضوعاً للدراسة الداخلية étude interne ، وهي دراسة لا تهتم إلا بعلاقات الاشارات اللغوية داخل نسق لا يهتم إلا بتنظيمه الخاص به . وفي هذا يقول فرانسوا فال F. WAHL وهو الذي أشرف على مجموعة دراسات بعنوان : «ماهي البنائية ؟ » «إننا لا نطلق لفظ «بنائية» على أي مسعى يتعامل مباشرة مع الموضوع . فالتعامل يكون دائماً مع بديل للموضوع ومع كل ما يترتب على وجود هذا البديل » (١٤). وفي هذا المعنى يقول ميشيل سيرس SERRES : «لقد كانت البنائية منذ عشرين عاماً بمثابة فن تأليفي art combinatoire يقوم على فصل العناصر المكونة للقطاعات المدروسة ، وذلك لكي يعيد تأليفها من جديد »(١٥) وسنرى أن أن ميشيل فوكوه في دراسته الابستمولوچية ، يطالب — هو الآخر— باعادة النظر في القطاعات المعرفية المعروفة ، والوحدات المسماه علوماً، وذلك بهدف البحث عن وحدات أخرى أكثر واقعية .

٢ — إن موضوع الدراسة البنائية لا يمكن أن يتطابق مع الواقع الحسي . وقد رأينا أن النسق الفونولوجي ليس مجموع العناصر الصوتية ، بل مايوجد

---

(14) WAHL François : " Le Structuralisme en philosphie" in " Qu'est-ce que le structuralisme" Travail collectif, (Seuil, 1964), P. 11.

(15) Jean LACOSTE : Entretien avec Michel SERRES " : dans (La Quinzaine Littéraire, No. 252 du 16 Mars 1977).

بين هذه العناصر من علاقات تقابل . كما رأينا أن ليڤي ستروس لا يوحد بين البناء structure وبين العلاقات الاجتماعية ، فهذه الأخيرة كانت فى نظرة بمثابة المادة الأولية التى يركب الموضوع ابتداء منها ، وهى فى ذلك تماثل الألفاظ والجمل والقضايا التى يبدأ منها التحليل «الاركيولوجى» . البناء إذن ليس واقعاً حسياً ، إنه ذكاء صورى intelligence formelle يعمل على تصفية الواقع qui épuise le réel (١٦). يقول ليڤي ستروس: «إما أن ينجح التحليل البنائى فى تصفية كل السمات الملموسة للموضوع ، وإما أن نفقد الحق فى تطبيقه على أى من هذه السمات »(١٧).ومع ذلك ، فإن البناءات ليس لها وجود صورى ، كما أنها ليست ماهيات متسامية ، بل إن لها وجوداً خارجياً يجعلها مصدر العلاقات المرئية (١٨) .

٣ — إن التحليل البنائى يجب أن ينصب أساساً على الدراسة الحالة للموضوع étude immanente de l'objet . و هذه الدراسة الحالة (أو المحايثة) تفترض استقلال الموضوع بالنسبة للابساته التاريخية والجغرافية أو الوجودية لأنه نسق ديناميكى يخضع لسلسلة من التغيرات الباطنة دون تدخل أية عوامل خارجية . وقد كان الحلم الأكبر للكثير من «البنائيين» هو تثبيت البناءات فوق دعائم لازمانية شبيهة بدعائم الأنظمة المنطقية الرياضية.

٤ — أن الدراسة الحالة تفترض احتواء الموضوع على معقولية ذاتية

---

(16) Louis MILLET : "Le Structuralisme" ,(Psychothèque, (١٦) Editions Universitaires, 1970), P. 56.

(17) LEVI-STRAUSS : "Le Cru et le Cuit" (Plon, Paris, 1964), (١٧) P. 155.

(18) Jean PIAGET : "Le Structuralisme", (que sais-je, P.U.F.,) (١٨) P. 94.

ومستقلة une intelligibilité intrinsèque et autonome فهو يتضمن فى ذاته تفسير طبيعته ووظيفته لأنه بناء structure ، ومزود بقوانين تنظيم داخلية autoréglage ، ننفذ اليها عن طريق التحليل .

٥ — هذه الدراسة الحالة تستبعد أى تدخل للشعور conscience لأن الشعور ربما يدخل فى التفسير مبدأ متساميا un principe transcendant يهدم النظام الباطنى الصارم لترتيب الظواهر .

وقد كان لابد لهذه الدراسات البنائية من أن تدخل فى صراع مع اتجاهات الفكر الجدلى ومع المتمسكين بالنزعة الإنسانية . كما كان لابد لها من أن تصطدم بالآراء القائلة بالاتصال التاريخى خصوصاً وأن البناءات تتصف بالثبات أو بعلاقات ثابتة وراء المتغيرات. غير أننا لا نود أن نتعرض لتفاصيل هذا الخلاف ضمن هذه العجالة السريعة ، وربما اضطررنا للتعرض له فى مواضع أخرى فيما بعد .

البنائية بين العلم والفلسفة :

أما التساؤل الذى يفرض نفسه الآن ، فهو على وجه التحديد ما يلى :

إذا ظهرت البنائية كاتجاه للبحث فى العلوم ، بدأ بعلم اللغة ، واشتهر فى فى الأنثروبولوجيا وعلم النفس ، وحقق إنجازات لا يستهان بها فى علوم أخرى (١٩) ، فما علاقة ذلك كله بالفلسفة . ؟

وللرد على هذا التساؤل نقول أن الانجازات البنائية فى العلم قلما خلت

---

(١٩) لمن أراد الاطلاع على هذه الانجازات يمكنه الرجوع الى مؤلفين من أمثال :
Parian - Vial, Piaget , Boudon .
(أنظر قائمة المراجع) .

من أبعاد فلسفية . وربما اتضح ذلك ـــ فيما ذكرناه آنفاً ـــ من سرد النتائج التي توصلت اليها أبحاث الأنثروبولوجيا البنائية وعلم اللغة البنائي . صحيح أن البنائية قد ظهرت في الأصل كتعبير عن حاجة الإنسان المعاصر إلى «نظرية في العلم» . ولكن من المؤكد أن إعطاء الصدارة أو الأولوية للـــ «نظر» ، والبحث عن «لغة علمية» قصوى لم يحولا دون ظهور «البنيوية» (أو البنائية) بمظهر «الموقف الفلسفي» ، وبالتالي فانهما قد خلقا من معارضة البنيوية للفلسفة ، صورة جديدة من صور «التفلسف» ! (٢٠).

ويتضح هذا «الموقف الفلسفي» من الحوار المكثف بين أقطاب البنائين وبين الفلاسفة و على رأسهم الفيلسوف الوجودي جان بول سارتر . وقد بينا ذلك في بحث سابق حصلنا به على درجة الماجستير في الآداب بعنوان «المدخل الفلسفي للانثروبولوجيا البنائية بين ليفي ستروس وسارتر» ، ونقتصر هنا على القول بأن هذا الحوار قد أسفر عن تطرق البنائيين لموضوعات فلسفية من الدرجة الأولى . وربما قادهم إلى «دوجماتيقية» من نوع جديد. «فالتقدم» في نظرهم أصبح «خداعاً بصرياً» ، و «المبادرة التاريخية» هي محض «سراب» . و«الفكر» ليس سوى سهم خاطف يخترق الإنسان كومضة البرق دون أن يعرف له بداية (أصلا) أو نهاية . وباختصار أصبح الإنسان مفعولا به لا فاعلا(٢١).

ولم يكن هذا غريباً على تجاه مولع بالنسق système . فالبنائيون على الرغم مما يتصفون به من صرامة في التفكير إلا أنهم يميلون إلى تفضيل النظام

---

(٢٠) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٢٧ .
(٢١) راجع أيضا :
زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، نفس الموضع . ونلاحظ أن جميع هذه النقاط ستتضح من عرضنا للدراسات الأركيولوجية عند ميشيل فوكوه .

على التغير .ولهذا فهم ضد التاريخ ، لأن التاريخ يهدم ، أما النسق فيتصف بالثبات . والنسق الغفل هو سيد الانسان العاشش ، وهو لهذا يقترن بصفة الاجبار .

يقول ليفي ستروس : «ولكي نتوصــــل إلى الواقــع ينبغي أن نستبعد المعاش» (٢٢) Pour atteindre le reel, il faut ecarter le vecu.

وإذا استبعدنا المعاش ، فاننا نستبعد تعبيرات مألوفة عاشت عليها الفلسفة حتى الآن مثل «أنا أفكر» ، «أنا أتحدث» ، «أنا أعمل» ،ويتبع ذلك أيضاً رفض أى نشاط تلقائي للشعور.

ونلاحظ أن البداية الابستمولوجية التي كانت تستهدف الحذر والحرص على الموضوعية تصبح المبدأ الميتافيزيقي للنسق : فهو (أى النسق) «تفكير بارد يفتقر إلى الحماس ، لا علاقة له بأشخاص impersonnel ، شيد بعيداً عن الذات الفردية أو الجمعية ، ولا يعترف بوجود ذات قادرة على التعبير وعلى العمل المستقل »(٢٣).

هذا هو الموقف البنائي الفلسفي الذى انبثق عن تمسك البنائيين بإنجازات العلم وعن رفضهم لفلسفات الذات ، والذى أصبح منظوراً فكرياً يحمل بين طياته انقلاباً فلسفياً حقيقياً ، ويمثل ثورة كوبرنيقية من نوع جديد . .

والسؤال الآن هو : هل أصبحت البنائية مذهباً فى الفلسفة أم ظلت منهجاً فى العلم ؟ .

---

(٢٢) (22) Claude LEVI-STRAUSS : "Tristes Toopiques", (Plon, 1955), P. 63.

(٢٣) (23) J.M. DOMENACH : „Le système et la personne" in (Esprit, Mai 1967), PP. 772—773.

لقد أجمع الباحثون على أن البنائية ليست مذهباً فلسفياً ينبثق عن مدرسة فكرية واحدة ويمكن أن يقارن بالمذاهب «الوجودية» أو «الماركسية». وفى هذا يقول جان لاكروا :

«ليس ثمة مذهب (بنائى) ... ، بل إن هنالك — وهذا أمر له مغزى أعمق ودلالة أكبر — لقاءاً ذهنياً بصفة عامة ، ومنهجياً بصفة خاصة ، بين مفكرين متباينين يعيشون معاً عصراً واحداً بعينه ، ألا وهو عصر انتهاء الأيديولوجيات ، وربما أيضاً عصر انتهاء «النزعة الإنسانية» — من حيث هى صورة من صور الإيديولوجيا — . والحق أن كل ما يجمع بين ليفى ستروس ، وفوكو ، ولاكان ، وألتوسير (وهم فرسان البنائية الأربعة) ، إنما هو ذلك المشروع العلمى الذى أرادوا تطبيقه على معرفتنا بالانسان ...» (٢٤).

أما أن البنائية قد ظلت منهجاً فى العلم ، فهذا ما يردده جميع البنائيين على الرغم من اجماع الباحثين على عدم وجود منهج بنائى موحد يمكن أن يطبق على جميع مجالات البحث (٢٥) ، وعلى الرغم من أن البعض منهم قد شك فى امكانية قيام أى منهج بنائى ! (٢٦).

ويتضح مما تقدم أن البنائيين يستنكرون التفلسف رغم أنهم يتفلسفون ، كما أنهم يصرون على اتباعهم للمناهج العلمية رغم تعذر اخضاع مناهجهم لأى تحديد.

---

(٢٤) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٢٤ .

(٢٥) Prierre CRESSANT, "Lévi-Strauss", (Psychothèque, Ed. Universitaires, 1970), P. 9.

(٢٦) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ٢٤ .

ومهما يكن من شيء ، فقد تبين الآن صعوبة الحسم فيا يختص بالوضع الحالى للاتجاهات البنائية وهل هى علم أم فلسفة ؟ وربما جاءت صعوبة الحسم هنا من أن التساؤل ينطلق من منظور تقليدى أراد أن يضع حداً فاصلا بين العلوم والفلسفة فى حين أن اتجاهات الفكر المعاصر إنما ترنو إلى انهاء القطيعة بين الأم وبنيها وإلى جمع الشمل مرة أخرى بعد أن تجرع الأبناء من كأس جحودهم وبعد أن قادتهم الفرقة إلى رماد (٢٧).

إن أصدق ما يقال عن الدراسات البنائية المعاصرة هو أنها اتجاه فى البحث بين العلم والفلسفة .

ظهور البنائيـــة :

من الممكن للباحث أن يقوم باستقراء عوامل كثيرة وعناصر ثقافية متباينة ، إذا كان بصدد البحث عن قيام هذه الحركة الفكرية الكبرى التى «ملأ أنصارها وخصومها الملايين من الصفحات ، إن فى مدحها والاشادة بها ، أو فى ذمها والانتقاص من قدرها » (٢٨) .

غير أن الباحث المدقق لابد وأن يشير إلى هذه العوامل أو تلك العناصر ، لاعلى أنها أسباب متفرقة متناثرة بل باعتبارها مجموعاً متكاملا أو «بناء» متناسقاً استلزم هذا الانبثاق الفكرى .

---

(٢٧) وفى هذا المعنى يقول المفكر المعاصر ادجار مورين Morin :

«ان التخصصات العلمية الدقيقة جعلت الطلاب يفقدون القدرة على تعقل ما يدرسونه ، وأصبح من الصعب على الطالب أن يجيب عن التساؤل : من أنا ومن نحن فى هذا العالم ؟ ؟ » .

Voir :
Jean-Paul ENTHOVEN : "Les Trois visages d'Edgar Morin" (Entretien dans Le Nouvel Observateur du 16 Mai 1977.)

(٢٨) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢ .

وابتداء من هذا المنطلق يصرح فوكوه بأن البنائية «هى الضمير المتيقظ والقلق للمعرفة الحديثة» (٢٩).

Le structuralisme c'est la conscience éveillée et inquiète du savoir moderne.

وإذا صح أن «الفيلسوف يستحدث لغة عصره»، أو أن «الفلسفة ترد إلى المجتمع الذى نعيش فى كنفه صورته الخاصة، على نحو ما تتصورها»، أو أنها «تعبير نظرى عما يحدث فى بيئة الفيلسوف»، فقد كانت البنائية، بحق، أصدق تعبير عن كل هذه الأقوال. ذلك لأن المجتمع الأوربى المعاصر هو مجتمع قسر وجبر واغتراب!.

يقول محرر مجلة الروح Esprit (عدد يوليو / أغسطس سنة ١٩٧٧):

«إن أبشع استغلال هو الذى يدمر أعماق الحياة التلقائية ... فمؤسسات المجتمع المعاصر ونظمه قد حولت المواطنين إلى مستهلكين وحولت العامل إلى أداة. هذا بالإضافة إلى أن المؤسسات الرأسمالية أصبحت تتحكم فى ألوان الثقافة وفى الإعلام. بل وأصبحت تحتكر الرأى العام وتعبئة لنصرة قضاياها».

ويقول المفكر المعاصر إدجار مورين Edgar MORIN :

«إن السلطة القائمة على القهر قد استفادت من انجازات العلم، فأصبح العلم هو العامل المساعد للبربرية والقهر. إن بربرية العلم إنما تتحالف الآن مع كل الصور التقليدية أو الجديدة للبربرية. وإذا

---

(٢٩) Michel FOUCAULT : "Les Mots et les Choses", (GALLIMARD, 1966), P. 221.

كان ديكارت قد كتب «المقال عن المنهج» لكى
يكون الإنسان «سيداً للطبيعة وممتلكاً لها» ، فها نحن
قد شهدنا العلم وهو يحاول الإمساك بناصية الأشياء
الفيزيقية ثم البيولوجية ، وقد يمسك غداً بناصية
التوجيه السيكولوجى . ولعلنا ندرك اليوم أننا بحاجة
إلى أن نهدم علاقة السيد بالعبد التى ماأن قامت بين
الإنسان والأشياء ، أو بين الإنسان وبين كائنات
الطبيعة إلا وقدمت الوسائل الفعالة لاستغلال واستعباد
البشر» (٣٠) .

وانطلاقاً من هذه الصورة المتشائمة للانسان فى المجتمع المعاصر ، هل يمكننا النظر إلى البنائيـــة على أنها إيديولوجيا سياسية تعبر عن مصالح البورجوازية الجديدة وذلك بتصريحاتها عن تآزر عناصر النسق (٣١) Consolidation du système . وبعبارة أخرى ، هل يمكننا القول بأن هناك التقاء مباشراً بين مصالح اليمين السياسى وبين الأفكار البنائية ؟.

يقرر جان بول سارتر بأن هذا الالتقاء حقيقة واقعة ويقول : أن هدف البنائية هو إقامة إيديولوجيا جديدة كانت بمثابة السد الأخير le dernier barrage الذى أقامته البورجوازية أمام التيار الماركسى »(٣٢) .وهذا يعنى أن تكون

(٣٠) Jean-Paul ENTHOVEN : "Les Trois visages d'Edgar MORIN " op. cit.

(٣١) نلاحظ أن أهم ما يتصف به النسق هو تماسك العلاقات دون أن ينظر باهتمام كبير الى الاشياء التى يتكون منها هذا النسق .

(٣٢) ذكره :

Jean-Marie DOMENACH : Le système et la personne", op. cit., cit, P. 774

«البنائية» مجرد أداة ذهنية شاء المجتمع القمعي اللجوء اليها لمواجهة دعاة الحرية ولتأخير الزحف الثورى !.

ونحن لا نتعجب كثيراً من هذا الرأى لسارتر ، وهو الذى أصبح يرى فى الوجودية ذاتها «نسقاً طفيلياً يعيش على هامش الماركسية» (٣٣) ، كما يرى فى هذه الأخيرة «فلسفة العصر التى لا يمكن تجاوزها» (٣٤).

أما ما يثير الدهشة حقاً ، فهو أن معظم البنائيين فى فرنسا ينتمون فعلا إلى اليسار الفرنسى (السياسى) (٣٥) ، مما يدفع عنهم تهمة سارتر السالفة الذكر

والحقيقة أن هذا الحكم الجائر ربما كان مرده إلى عدم التعاطف بين تيارين فكريين ظهر أحدهما على أنقاض الآخر . ذلك أن مفاهيم «البناء» و«النسق» و«الدال» و «المدلول» قد اكتسحت المفاهيم الوجودية عن الحرية و«الذات» و «الموجود لذاته le pour-soi و«الشعور» conscience .. الخ . وحولتها إلى صور هزلية (٣٦) .

من المستبعد إذن أن تكون البنائية معبرة عن مصالح البورجوازية الجديدة ، وربما كانت على الأحرى معبرة عن حالة «الضمير القلق» التى أشرنا اليها آنفاً. وفى هذا يرى المفكر جولدمان Lucien GOLDMANN «أن البنائية هى فلسفة مجتمع ييسر لأفراده أحسن الظروف المعيشية ، غير أنه يتدرج فى اعفائهم من جميع المسئوليات ». (٣٧) وسنرى فى سياق هذه الرسالة أن تصدى

(33) J. P. SARTRE "Critique de la raison dialectique,,' (GALLIMARD, 1960), P. 18. (٣٣)

(34) Ibid., P. 17. (٣٤)

(35) J.-M. DOMENACH : Op. Cit., P. 775. (٣٥)

(36) Roger-Pol DROIT : "Le père et sa divine absence", in (Le Monde Hebdo. No. 1468 du 1468 du 16 Décembre 1976) (٣٦)

(37) Voir : (٣٧)
J. — M. DOMENACH : Op. Cit., P. 774.

ميشيل فوكوه للنظم وكشفه عن علاقات السلطة التى يتضمنها المقال محاولة حقيقية منه لتحرير الإنسان يتضاءل إلى جانبها أى مسمى تقوم به النزعات الإنسانية .

وإذا كان الوضع الراهن للمجتمع ومؤسساته وثقافته هو القاعدة الأساسية التى انبثق عليها الفكر البنائى ، فإن هذه القاعدة الاجتماعية لم تزل تتوفر على تيارات فكرية أخرى يجدر بنا أن نشير اليها لما فى ذلك من فائدة فى القاء الضوء على ظهور البنائية . وتبدأ بالفلسفة الوضعية ثم فلسفات الوجود والحياة .

الفلسفة الوضعية :

الفلسفة الوضعية — بوجه عام — ليست مذهباً محدداً بل هى اتجاه أو موقف يصعب تحديده . وهذا الموقف يتصف بالحذر حيال أى تقرير لايقره العلم . كما يحجم عن تحديد أى قيم أو غايات . وعلى هذا ، فإن الوضعية تظل صامتة حيال المسائل المتعلقة بالانسان خصوصاً ما لايقع منها تحت طائلة العلم .

والوضعية الحدثة هى الوضعية المنطقية ، ظهرت على يد الفيلسوف النمساوى شليك Schlick (١٨٨٢—١٩٣٦) ، وهو الذى تزعم « حلقة فيينا» عام ١٩٢٩ ، داعياً إلى «فلسفة علمية» مهمتها تخليص الفلسفة نهائياً من كل أسباب اللبس والغموض عن طريق اصطناع منهج «التحليل المنطقى» .

و «الوضعيه المنطقية» هى توأم «البنائية» . فى نفس السنة التى عقدت فيها «حلقة فيينا» ، عقدت فى مدينة «براج» حلقة أخرى (سنة ١٩٢٩) عرفت «بحلقة براج لعلماء اللغة السلافيين» Congrès des philologues slaves ، تزعمها جاكوبسون وتروبتسكوى اللذان سبقت الاشارة اليها . ولأول مرة فى

علم اللغة تحدث المؤثرون عن «بناء» و «بناءات» لغوية (٣٨) .

ولا يخفى على أحد أن كلتا الحركتين قد استهدفتا مسايرة مناخ العصر ، فظهرتا كصدى للاهتمام بالمنهج العلمي على نحو ما عبر عنه كل من بوانكاريه ودوهم Duhem ، وأينشتين بل نتيجة لازدهار المنطق الرمزى على يد كل من بيانو وفريجه وراسل ووايتهيد الخ ..

ولكن ، فى حين أن البنائية لم تترعرع كحركة فكرية الا بظهور كتاب «الافاق الحزينة» عام ١٩٥٥ كما سبق أن قدمنا ، فإن الانجيل الحقيقى للوضعية المنطقية ، وهو كتاب «التركيب المنطقى للعالم» ، قد ظهر قبل ذلك بكثير عام ١٩٢٨ لأحد تلامذة «شليك» هو الالمانى رودلف كارناب (١٨٩١ —)

وقد كانت مهمة الفلسفة — فى رأى كارناب — هى التحليل المنطقى للغة ذات المعنى أو الدلالة : أى للقضايا التحليلية (قضايا المنطق والرياضة) ، والقضايا التأليفية القابلة للتحقق تجريبيا (قضايا العلم الطبيعى) . ولهذا كله ينبغى استبعاد الميتافيزيقا والأخلاق وعلم الجمال وجميع «العلوم المعيارية»(٣٩)

وقد استهدف كارناب بالدرجة الأولى أن يجنب الفكر الفلسفى أسباب الغموض ، وأن يدعو الفلاسفة الى تحديد ألفاظهم وتحليل عباراتهم . ولكنه لم يلبث أن حصر الفلسفة بأسرها فى نطاق ضيق لا يكاد يعدو «التحليل اللفظى» و «الأشكال اللغوية» . واذا فهمت الفلسفة على هذا النحو ، فقد يتسبب ذلك فى القضاء على خصوبة الفكر البشرى وربما تسبب فى القضاء على

---

(٣٨) (38) J.-B. FAGES : "Comprendre le Structuralisme" , (Privat, Toulouuse 1968). ,P. 16.

(٣٩) الدكتور زكريا ابراهيم : «دراسات فى الفلسفة المعاصرة» ، (مكتبة مصر سنة ١٩٦٨) ص ٢٨٩ .

الفلسفة ذاتها . ومهما اعترفنا بقيمة «التحليل اللغوى» ، فان الفكر البشرى فى حاجة الى فهم العلاقة القائمة بين نظام الأفكار وترابطها من جهة ؛ ونظام الأشياء وترابطها من جهة أخرى (٤٠) . وهذه هى نقطة الضعف الأساسية والخطيرة والتى تمثل فراغا جعل الفلسفة الوضعية غير كافية بذاتها ، وجعلها تمهد — من حيث لا تدرى — لازدهار الفكر البنائى .

فالنسق البنائى بوجه عام يربط بين الأفكار والأشياء ، كما أن هناك التقاء coincidence بين بناءات الفكر وبناءات الواقع عند معظم البنائيين . وقد أخذ هؤلاء على عاتقهم أن يفضوا شفرات الطبيعة اللاشعورية للظواهر الاجتماعية ، وأن يكشفوا عن الطابع الرمزى للثقافة البشرية فى شتى صورها وأشكالها .

أما النسق «السيانطيقى» عند كارناب ، فهو لا يسمح لنا بالبحث فى خارجه عن شروط صدق الجمل والقضايا لأن هذه الشروط ينبغى أن تكون متوافرة داخل النسق ذاته (٤١) . ومهما يكن من شئ ، فقد أجمع الباحثون على أن تيار الوضعية المنطقية الذى ظهر فى انجلترا ثم فى الولايات المتحدة الأمريكية قد بدأ الآن فى الانحسار (٤٢) .

فلسفات الوجود :

ربما كان من الممكن للبنائية أن تحقق ازدهارا مبكرا ومعاصرا لازدهار الوضعية المنطقية — وهما توأمتان كما سبق أن قدمنا — لولا هذه الطنطنة

---

(٤٠) نفس المرجع ، ص ٣٠٥ .

(٤١) نفس المرجع ، ص ٣٠٤ .

(٤٢) (42) J.-M. DOMINACH : OP cit., P. 775.

الكاذبة التي خلقتها فلسفات الوجود أو ايديولوجيا الوجود كما يحلو لمثلها في فرنسا أن يسميها الآن (٤٣) . نقول «طنطنة كاذبة» لأنها حققت عقب الحرب العالمية نجاحا مؤقتا بسبب ترنيمها لأناشيد الشعوب المحتلة وبسبب ما أحدثته من نشوة لدى الراغبين في التمتع بـ (سراب) الحرية : فالوجود يسبق الماهية ، ولا تحديد لـ«طبيعة إنسانية» مخافة أن تتعثر أمامها حرية الفرد .

وكان مسرح الفكر في فرنسا قد شهد ظهوراً خاطفا لفيلسوف شارك في «حلقة فيينا» هو كافاييس Jules Cavaillès (١٩٠١—) ، وهو الذي ألف كتابا بعنوان «المنطق ونظرية العلم» Sur la logique et la théorie de la science ، ظهر قبل كتاب «الوجود والعدم» لسارتر ، وتحدث فيه عن نسق منطقي لا زماني أي لا يرتبط بالذات الشاعرة . وكان هدف كافاييس أن يبحث عن المنطق الذي يبرر التقدم المستمر للفكر أو ذلك التسلسل الرياضي المتماسك الذي يخضع له النشاط الذاتي كما يخضع له العلم . ويقول عنه أنه «أصيل في ماهيته ومستقل في حركته» (٤٤)

Original dans son essence, autonome dans son mouvement.

أي مستقل عن الذات وتتوافر فيه خصائص النسق البنائي لأنه يرتبط بالواقع التجريبي للعلم .

وهكذا كانت بادرة ظهور الفكر البنائي سابقة على هذه الأيديولوجية

---

(43) J.-P. SARTRE : "Critique de la raison dialectique". op. cit., (٤٣) P. 18.

(44) Jules CAVAILLES : "Sur la logique et la théorie de la (٤٤) science" , P. 70.

ذكره :

Mikel DUFRENNE : La philosophie du néopositivisme" in (Esprit, Mai 1967), P. 796.

الوجودية ؛ وكان من الممكن للبنائية أن تحقق نجاحا مبكرا لولا أن النسق الثقافى الذى يبرر وجودها لم يكن قد اكتمل بعد ، وكان لابد من اكتماله حتى تظهر البنائية كتعبير عن «الضمير القلق للمعرفة المعاصرة» ، أو حرص الانسان المعاصر على الامساك بوحدة الواقع .

وكان فلاسفة الوجود يجمعون على معارضة التجريد . فى عبارة مشهورة لكير كجارد Kierkegaard يقول : «ان اخضاع الوجود للتفكير المجرد يعنى حذفه أساسا» ، اذ «لا وجود بلا انفعال» (٤٥) .
Existence ne se peut faire sans passion.

وهذا يعنى أن الوجود مرتبط بالذات المشخصة ، وأن الوجود كواقع معاش هو نقطة البدء فى التفكير وليس نقطة وصول ؛ وذلك على الرغم من أن ظروف العصر ليست فى صالح الابقاء على الذات — حتى بالنسبة لغير الفيلسوف — لأن هذه الظروف مسببة للاغتراب .

فلسفات الحياة : Vitalisme

تتفق فلسفات الحياة على تجنب التعقل المجرد لأن هدفها هو التوصل الى التنظيم الداخلى للكائنات الحية أو ما يسمى بالحياة . وقد بينت الأبحاث العلمية الحديثة أن الحياة هى مبدأ تفسير الظواهر الفسيولوجية والباثولوجية على السواء . وبذلك فان المذهب الحيوى يتقوض من أساسه .

وقد اهتمت «أركيولوجيا المعرفة» عند فوكوه بالتصدى لمزاعم المذاهب الحيوية . ولهذا سنعود اليها بالتفصيل فى الفصل الخامس .

---

(45) S. KIERKEGAARD, Post Scriptum aux miettes philoso- (٤٥) phiques trad. par P. Petit, Gallimard, 1949, PP. 205, 209.
ذكره :
Angèle KREMER-MARIETTI : „Michel FOUCAUT", (Seghers, 1974), p. 106.

ميشيل فوكوه وأركيولوجيا المعرفة:

ان فرسان «البنائية» الأربعة هم ليفي ستروس، وميشيل فوكوه ، وجاك لاكان ، ولويس ألتوسير.

وقد قمنا بدراسة عن ليفي ستروس حصلنا بها على درجة الماجستير كما سبق أن قدمنا . ونحاول الآن في هذا البحث أن نكشف عن الجديد الذي أضافه فوكوه الى الفكر البنائي بوجه خاص، والفكر الفلسفي بوجه عام . وربما أتيحت لنا الفرصة مستقبلا لعمل دراسات مستفيضة عن «لاكان» و«ألتوسير» .

وفي هذا البحث الذي يكشف عن مجالات الصراع بين العلم والفلسفة وعن محاولة كل منها أن يستقطب الآخر ، نلاحظ أن البنائية ، وقد ظهرت أولا كمنهج للبحث في العلوم ، ربما أستهدفت ضمنا اقصاء التفلسف ، لأنها تتحدث عن نسق لازماني وتستبعد تدخل الذات (٤٦) . فعالم النفس البنائي جاك لاكان يقرر صراحة بأن أبحاثه تستبعد أي فلسفة. أما صاحب ..... الأنثروبولوجيا البنائية ليفي ستروس، فانه يقرر بأن الفلسفة لا تنبت في أرض حرثها البنائية (٤٧) . وربما قصد كلاهما أنه من الممكن غزو المجال الذي

(٤٦) سبق أن بينا في الصفحات الأولى من هذه المقدمة كيف أدى ذلك الى نتائج عكسية . بمعنى أن البنائية في استبعادها الفلسفة قد اتخذت موقفا فلسفيا أبعدها هي تماما عن روح العلم .

(٤٧) (47) Fraçois WAHL : Op. cit., P. 302.

ونلاحظ أن كلا من «لاكان» و «ليفي ستروس» قد قام بدراسات جامعية . فالأول تخرج من كليات الطب ثم حصل على درجة الدكتوراه في التحليل النفسي عن علاقة ذهان العظمة بأنماط الشخصية سنة ١٩٣٢ Psychose paranoiaque ، ثم أنشأ مدرسة التحليل النفسي بباريس سنة ١٩٥٣ . وكانت كتاباته يغلب عليها الطابع الفلسفي وتبتعد قليلا عن العلم بمعناه التقليدي المعروف . أما ليفي ستروس فقد تخرج من قسم الفلسفة ثم قام بأبحاث أنثروبولوجية ميدانية استهدفت الكشف عن الطبيعة الانسانية ، وهو الآن أستاذ بالكوليج دي فرانس .

سيطر عليه التفلسف مدة طويلة بواسطة العلم .غير أنه قد غاب حتما عن ذهن كل منهما أن أعماله يمكن أن تكون موضوعا لتساؤل فلسفي من نوع جديد . وهو التساؤل عن البناء المعرفي السائد épistémé ، والذى يستند اليه العلم والتفلسف معا خلال حقبة معرفية معينة .

ولقد اضطلع ميشيل فوكوه بمهمة الاجابة عن هذا التساؤل : فهو يسأل كيف بدأت النظريات والمعارف ؟ وما هي الشروط التى حتمت ظهورها ؟ كما يسأل عن مجال ظهور المعرفة بوجه عام والمعرفة العلمية بوجه خاص . وهو يكشف بذلك عن مجال جديد للبحث الابستمولوجى تلتقى فيه الصيغ الأدبية والقضايا العلمية والفلسفية بل والعبارات اليومية وحتى الهذيان الفصامي ، واستحق ما قالته أستاذة الفلسفة بجامعة أميان آنجيل كريمر ماريتى Angèle KREMER-MARIETTI : «إن ميشيل فوكوه قد جدد الفلسفة المعاصرة» .

ولد ميشيل فوكوه بمدينة بواتييه Poitiers سنة ١٩٢٦ . وهو فيلسوف وجامعى فرنسى الجنسية . حصل على شهادة الأجريجاسيون فى الفلسفة ، ثم عمل بالتدريس فى كلية الآداب والعلوم الاجتماعية بمدينة «كليرمون — فيران» Clermont-Ferrand ، وانتدب للعمل بجامعة تونس ابتداء من سنة ١٩٦٦ ، وكان حصوله على كرسى الأستاذية بالكوليج دى فرانس فى ديسمبر سنة ١٩٧٠ وذلك فى تخصص «تاريخ أنساق الفكر» Histoire des systèmes de pensée (٤٨)

وقد أسس فوكوه تخصصا جديدا أسماه «أركيولوجيا المعرفة» . وكلمة «أركيولوجيا» هنا ، وهى تعنى «علم الآثار» . لا تشير عند فوكوه الى علم

---

(48) Grand Larousse Encyclopédique, "Supplément". (٤٨)

جديد يبحث عن «الأصول الأولى» ؛ بل هي تشير فقط الى «خطة ابستمولوجية لتحليل الأداء اللفظي» . وهي تستهدف اعادة النظر في وضع المعرفة ، وتكشف عن صور للتعقل تبرر استخدام مفاهيم العلم ، كما تبحث عن نسق مستتر وراء المفاهيم والتصورات في العديد من التخصصات المعرفية .

أهمية الموضوع :

إن ما يجذب الانتباه نحو «أركيولوجيا المعرفة» هو أنها نمط في البحث ينفتح على الأشكال المختلفة للمقال ، ثم يتجاوزها الى ما يمكن أن يسمى بفلسفة علمية أو ابستمولوجيا علمية . وهذا البحث يمكن أن يندرج تحت أحد العناوين العامة في الفلسفة المعاصرة ، وهو الخاص «بمكانة وحدود المعرفة العلمية» .

ونحن لا نود أن نقرر سلفا مع الباحثة جان باران فيال Jeanne PARAIN-VIAL « بأن الأبحاث التي تدور حول مفاهيم العلم وتاريخها وتطور العلوم انما تتضاءل الى جانب ما قام به فوكوه في هذا المجال» (٤٩) ، لأن مثل هذا الحكم سنتركه للقارئ يحدده وفق ما يخرج به من انطباع . وحسبنا أن نشير فقط الى وجود أبحاث سابقة مماثلة لما قام به فوكوه عند ايرنست كاسيرر CASSIRER (١٨٧٤ — ١٩٤٥) أول من ألّام «فلسفة للصور الرمزية» . Philosophie des formes symboliques (وفيها يبين دور اللغة في تكوين معرفتنا عن العالم وباعتبارها شرطا ضروريا لكل معرفة) ، وجاك روجيه Jacques ROGER الذى كتب عن علوم الحياة في القرن الثامن عشر ، وليون برنشفيج BRUNSCHVICG (١٨٦٩ — ١٩٤٤) الذى

---

(49) PARAIN-VIAL : "Analyses structurales et idéologie structuralistes ", (Privat, Toulouse, 1969), P. 176. (٤٩)

كتب فى فلسفة العلوم الطبيعية والرياضيات . كما لاحظ جان بياجيه تقاربا كبيرا بين ما كتبه فوكوه عن «البناءات الابستمولوجية » les épistémé وبين « النماذج المعرفية» Paradigmes التى وضعها «كون» th. S. Kuhn فى كتابه المشهور عن الثورات العلمية . (٥٠) غير أن بياجيه يعترف بأن ما كتبه فوكوه كان أكثر عمقا لأنه اكتشف بناءات ابستمولوجية تنضوى تحتها المبادئ الأساسية للعلم فى حقبة معينة ، فى حين أن «كون» اقتصر على وصف وتحليل الأزمات التى أدت الى التغير .

وهذه الاعتبارات المتقدمة كان اختيارنا لموضوع «البنيويه بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه» ، لاعطاء المكتبة العربية صورة جديدة من صور الفكر البنائى ، ولتكملة الدراسة التى أتممناها عن الاتجاه البنائى عند كلود ليفى ستروس والتى ظهرت فى كتاب بعنوان «البنيويه فى الأنثروبولوجيا وموقف جان بول سارتر منها» .

أعمال فوكوه :

إن الأعمال الفلسفية لفوكوه إنما تستهل بمجموعة ثلاثية من المؤلفات Trilogie كانت بمثابة تطبيق لمنهج جديد فى دراسة الظواهر البشرية . وهذه المؤلفات الثلاثة هى :

١ — «تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى» ، صدر سنة ١٩٦١ .

1) Histoire de la folie à l'âge classique.

٢ — «مولد العيادة» ، صدر سنة ١٩٦٣ .

2) Naissance de la clinique.

---

(٥٠) (50) Th. S. KUHN : "The structure of scientificrevolutions", The University of Chicago Press, 1962 (éd. Phoenik Book, 1964).

ذكره :

Jean PIAGET, Op. cit., P.112.

٣ — «الكلمات والأشياء» ، صدر سنة ١٩٦٦ .

3) Les mots et les choses.

وهى مجموعة متكاملة يقول عنها فوكوه :

« ان أيا من هذه الكتب الثلاثة ليس كافيا أو مستقلا بذاته .
فكل واحد منها يعتمد على الاثنين الآخرين ولا يفهم بدونهما ،
خصوصا وأن الدراسة فى كل منها تختص بكشف جزئى
لمنطقة محددة» (٥١) .

وفى سنة ١٩٦٩ ظهر لفوكوه كتاب « أركيولوجيا المعرفة » Archéologie du Savoir ، وكان هذا الكتاب بمثابة تحديد دقيق للمنهج الأركيولوجى الذى طبق فى المجموعة الثلاثية سابقة الذكر . وأراده فوكوه على شاكلة «المقال عن المنهج» الديكارتى من حيث أنه يشير الى حدث متميز بالنسبة لما يألفه المسار الرتيب للفكر . وفيه يسهب فى شرح مفهوم المنطوق؛ ويرد على أصحاب المنهج التاريخى أو علم تاريخ الأفكار ، ثم يعرض موقفه من نسق العلوم .

وفى سنة ١٩٧١ ظهر لفوكوه كتيب بعنوان « نظام المقال » l'Ordre du discours ، اشتمل على عرض مفصل للأفكار الأساسيه التى تضمنتها كتبه السابقة . وهذا الكتيب هو نص الخطاب الافتتاحى الذى ألقاه فوكوه «بالكوليج دى فرانس» عشية حصوله على كرسى الأستاذية ، وذلك فى ٢ ديسمبر سنة ١٩٧٠ .

---

(51) M. FOUCAULT, "Réponse au Cercle épiatémologique", (٥١)
(Cahiers pour l'analyse, No. 9, 1968).

ذكرته الباحثة :

Annie GUEDEZ : "FOUCAULT", (Editions Universitaires, 1972), PP. 35—36.

هذه هي الأعمال الفلسفية لفوكوه ، خمس مؤلفات ، سنلتزم بالتعرض لها في متن هذه الرسالة (٥٢) ، كما سنلتزم بفحص وعرض ومناقشةأهم ما احتوته من أفكار أساسية . وسنلتزم كذلك بالرد على ما وجه الى«المذهب» من اعتراضات ، مستندين في كل هذا الى كتابات فوكوه وأحاديثهالصحفية والاذاعية ولقاءاته ودروسه .

وقد ظهر لفوكوه مؤلفات أخرى في علم النفس والأدب ، أشهرها كتاب : «الأمراض العقلية وعلم النفس» ، ظهرسنة ١٩٥٤ . ثم كتاب عن الأديب الفرنسي ريمون روسل Raymond Roussel (١٨٧٧ — ١٩٣٣) ظهر سنة ١٩٦٣ .

وفي أواخر عام ١٩٧٦ ظهر لفوكوه كتيب بعنوان « تاريخ الجنس» Histoire de la sexualité ،اعتبره مدخلا لمؤلفات خمسة قادمة تتخصص في دراسة العلاقة بين الجنس والسلطة والمقال. غير أن النقاد يجمعون سلفا على صعوبة التوصل الى نتائج إيجابية في هذا المجال . وسنعود إلى تفصيل ذلك في الجزء المخصص لتقيم أعمال فوكوه .

هذا ، ولا أود أن أتوقف في هذه المقدمة عند تفصيل خطة البحث أو المراجع ، لأننا نرى في هذا تكرارا يمكن الاستغناء عنه ، خصوصا وأن خطوات البحث الرئيسية قد فصلت في «صفحة المحتويات»، كما اشتملت الصفحة الأولى من كل فصل على ثبت بأهم الموضوعات . أما الصفحات الأخيرة فقد اشتملت على قائمة بمراجع البحث وقائمة بأهم المصطلحات التي استحدثتها البنائية وما يرادف هذه المصطلحات في اللغة العربية .

---

(٥٢) فضلنا استخدام الترجمة العربية في الاشارة الى عناوين هذه الكتب الرئيسية كلما تكرر ذكرها في الحاشية حتى تسهل المتابعة بالنسبة للقارئ العربي .

وقبل أن أصل الى ختام هذه المقدمة ، أجد لزاما على أن أتوجه بالشكر الى كل من امتدت يده إلى بالمساعدة للخروج بهذا البحث الى حيز الوجود.

أشكر أولا الاستاذ الدكتور محمد على أبو ريان عميد كلية الآداب بجامعة بيروت العربية فقد كان لإشرافه وتشجيعه المتواصل أكبر الأثر فى الوصول بهذا البحث إلى حالته الراهنه .

وأقدم خالص شكرى أيضا لجميع أساتذتى وزملائى بقسم الفلسفة ، وأخص بالذكر منهم الأستاذ الدكتور محمود فهمى زيدان ، أستاذ الفلسفة الحديثة والمعاصرة .

ولا يفوتنى أن أعترف بفضل أولئك الذين قدموا عونهم لى من خارج القسم ، وكان لهم دور أساسى فى انجاز هذا العمل بأن يسروا حصولى على المصادر المختلفة للبحث . أعنى كلا من الأستاذين الفاضلين الأستاذ الدكتور محمد الكردى بقسم اللغة الفرنسية بالكلية والأخ الصديق الدكتور محمد أبو النجا مدرس الأدب الفرنسى بجامعة عين شمس .

وأخيرا ، أقدم شكرى للقائمين على شئون المركز الثقافى الفرنسى بالاسكندرية . فقد كانت مكتبتهم الزاخرة بأحدث الكتب والمجلات المتخصصة هى خير معين لى ولكل باحث فى العلوم الانسانية .

الاسكندرية ، أول أكتوبر ١٩٧٨

الباب الأول

«أركيولوجيا» المعرفة

«ان المنهج الأركيولوجي هو منهج تعليمي بسيط ..... يعلم الطالب بأنه لا وجود لشيء وراء النص .غير أن النص يحتوى بين ثنياته على معان صامتة تمتلىء بنبع لا ينضب عن الأصل الذى يتعذر البحث عنه فى أى مصدر آخر . فى النص يكمن معنى الوجود ، لا فى الكلمات بكل تأكيد ، بل من خلالها كشبكة ينظر الى ما وراءها» .

«تاريخ ايلجنون» ، ص ٢٠٦

الفصل الأول

المنطوق ذرة المقال

١ — مقال عن المنهج .

٢ — المنطوق ذرة المقال .

٣ — مكانة المنطوق بالنسبة للقضية والجملة .

٤ — وظيفة المنطوق :

كيف يتكون المنطوق ؟

فاعل المنطوق ومؤلف الصيغة .

مجال المنطوق .

الوجود المادى للمنطوق .

٥ — معنى وصف المنطوق .

٦ — ندرة المنطوقات .

٧ — دراسة المنطوقات من الخارج .

٨ — تحليل التراكم .

٩ — معنى «الأرشيف»

١٠ — معنى القبلى التاريخى .

المنطوق ذروة المقـــال :

مقال عن المنهج :

لقد أرسى ميشيل فوكوه دعائم منهج صارم ، يتعرض لمعايير المقال فى عصور زمنية متباينة ، كما يتعرض لقواعد تكوين المعرفة ، ويمتد تأثيره إلى مناهج علوم معروفة مثل «الابستمولوجيا» وعلم الاجتماع والتاريخ وعلم النفس التاريخى . غير أن منهج فوكوه يتميز تماماً عن هذه العلوم، وذلك لأنه يتجاوزها جميعاً رغم أن موضوعه مأخوذ من نفس المجال ، ورغم أنه يستخدم منهجاً تاريخياً وضعياً .

وقد كان هدف فوكوه تحليل دور المعرفة فى علاقاتها بالنظم والمؤسسات ، وذلك لكى يكشف عن علاقات السلطة Pouvoir الموجودة داخل المقال والتى ينشط المقال ابتداء منها فينعكس ذلك مرة أخرى على هذه النظم وتلك المؤسسات .

ولقد كانت المسلمة الأساسية فى المنهج عند فوكوه هى :

«دع المقال وحده يتحدث» .

«Laisser parler le discours seul»

وقد ترتب على هذه المسلمة أن التزم فوكوه بعدد من القواعد السلبية تذكرنا بالتأمل الديكارتى الأول «فى الأشياء التى يمكن أن توضع موضع الشك» ، من حيث أن مؤلفه كان قد بدأ هو الآخر بعمل سلبى .

ففى الصفحات الأولى من كتاب «أركيولوجيا المعرفة» ، نجد فوكوه يطالب بما يلى :

أولا : عدم الالتزام بالقطاعات المعرفية المعترف بها les découpages reconnus . (ونلاحظ أن التحلل من الالتزام هنا ليس نهائياً ، وأن هدفه منهجي بحت) .

والقطاع المعرفي وهو ما يسمى «علماء» ليس في الحقيقة سوى مجموع من القضايا تطبق على العديد من الوقائع المتفرقة faits disparates . إذ كيف يمكن أن نبرر قطاعاً معرفياً مثل علم النفس المرضي le découpage «Psychopathologie» خصوصاً إذا علمنا أن كلمة جنون Folie لا تعني نفس الشيء عند Bleuler, pinel رغم أنهما ينتسبان إلى نفس هذا العلم(١).

ينبغي إذن ألا نرى في هذه القطاعات المعرفية سوى وقائع مقالية .

ثانياً : لكي لا نبتعد عن مستوى المقال le niveau des choses dites ولكي يظهر تفرد هذه الوقائع المقالية ces faits discursifs ينصح فوكوه بوقف جميع الوحدات unités التي تكونت بفعل عمليات مفسرة opérations «interprétatives» (أي تسلل اليها العنصر الذاتي) . وأول هذه الوحدات هو «الكتاب» . ولا يغيب عنا بهذا الصدد أن هدم الكتاب انما يعني عدم الاعتراف بأي مؤلف .

ثالثاً : التخلص من الأفكار العامة thèmes التي تضمن استمراراً لا متناهياً للمقال . والتخلص من أي عنصر يدعي اقامة استمرار con tinuité

---

(١) Pinel هو طبيب فرنسي ولد في مقاطعة Tarn (١٧٤٥ – ١٨٢٦) وسيرد الحديث عنه بالتفصيل في الفصل الرابع من الرسالة . أما Bleuler فهو عالم طب نفسي ، سويسري الجنسية (١٨٥٧ – ١٩٣٩) .

ليس له ما يبرره بين عدد من الشواهد المقالية ، ويتبع ذلك الابتعاد عن التفسيرات التي تعتبر المسار التاريخي متصلا .

رابعاً : التخلص من مفاهيم مثل التقليد tradition ،والتأثير influence ، والنمو développement ، والتطور évolution ، والعقلية mentalité والنفس esprit (٢) . ويترتب على ذلك كله أن تتجنب التأليف السيكلوجي «synthèse psychologique» أي ما تقدمه الذات من تأليفات سيكولوجية .

ويظهر من هذه القواعد أن فوكوه إنما يمهد لخطة ابستمولوجية جديدة ، تستهدف الغوص في أعماق الثقافات الماضية ، وتقدم وصفاً جديداً للمقال يختلف تماماً عما يقوم به أي علم لتاريخ الأفكار . كما يظهر أيضاً من هذه القواعد ، أن فوكوه إنما يريد التأكد من نقاء الأرضية التي تنتشر عليها أحداث المقال »(٣).

أن الابستمولولوجيا الجديدة إنما تواجه عدداً من المسائل المنهجية وهي(٤) :

١ ــ تأسيس كل متناسق ومتجانس من الوثائق المدروسة ، وهذا الكل إما أن يكون منفتحاً أو منغلقاً ouvert ou fermé ، محدداً أو غير محدد .

٢ ــ العثور على مبدأ للاختيار Un principe de choix وهذا المبدأ يعتمد إما على أخذ عينة طبقاً لطرائق الاحصاء . أو طبقاً لما تحدده مسبقاً من عناصر ممثلة éléments représentatifs .

---

(٢) نلاحظ هنا أن فوكوه يستبعد النفس لغرض منهجي بحت ، وهذا لا يعني أبدا عدم الاعتراف بوجودها .

(٣) (3) Michel FOUCAULT : "Archéologie du Savoir" (Gallimard, 1969) P. 41.

(٤) (4) Ibid., P. 19.

٣ — تعريف مستوى التحليل niveau d'analyse وعناصره الهامة .
ومن الممكن لهذه العناصر أن تكون بيانات بالأرقام indications numériques أوبيانات تشير إلى احداث événements أونظم institutions أو تطبيقات عملية pratiques أو حتى بعض الكلمات المستخدمة ومجالاتها الدالة champs sémantiques وأخيراً نمط القضايا الذى يجمعها le type des propositions qui les unissent

٤ — تخصيص منهج للتحليل ، يمكن أن يتلخص فى تناول الجانب الكمى للمعطيات أو أن يقوم على تحليل هذه المعطيات وفق خصائص سبق تحديدها .

٥ — تحديد المجموعات ensembles والمجموعات المتدرجة تحتها sous-ensembles والتى تنبثق عنها المادة المدروسة .وهذه المجموعات والمجموعات المتدرجة يمكن أن تكون مناطق جغرافية أو حقباً تاريخية .

٦ — تحديد العلاقات التى تميز أى مجموع ensemble . وهى إما علاقات عددية numériques أو منطقية أو وظيفية أو علية أو تمثيلية analogiques أوحتى علاقة الدال بالمدلول signifiant à signifié .

ويظهر مما تقدم أن صاحب «أركيولوجيا المعرفة» إنما يتعمد إهمال العديد من المسائل التى تهتم بها فلسفة التاريخ ؛ وذلك مثل الغائية téléologie والمعقولية rationalité والنسبية relativité ومعنى الصيرورة devenir. غير أنه مع ذلك يشترك مع علوم أخرى فى بعض النقاط مثل علم اللغة وعلم الأجناس البشرية «الأنثولوجيا» والاقتصاد السياسى والتحليل النفسى (٥).

---

(٥) أهم ما تشترك فيه هذه العلوم هو انكار دور الذات .

وسيتضح التقارب بين «أركيولوجيا المعرفة» وبين ما توصلت إليه هذه العلوم من نتائج فيما بعد .

وينبغي أن نعلم مقدماً أن «أركيولوجيا المعرفة» لا يقتصر دورها فقط على القضايا العلمية ، وذلك لأن البحث الأركيولوجي إنما يجد مجاله كذلك في النصوص الفلسفية والأدبية ، و في القصص التي ينسجها الخيال ، وفي القواعد التي تفرضها المؤسسات ، بل وفي القررات السياسية أوكل ما يمكن أن نطلق عليه ــ بعبارة ماركسية ــ لفظ بناءات فوقية Superstructures .

وينبغي أن نعلم مقدماً أيضاً أن هدف فوكوه هو «وصف محض لأحداث المقال باعتبارها مجالا للبحث عن وحدات . وهو وصف يتميز عن التحليل اللغوي . فتحليل اللغة يسأل عن القواعد التي يتكون طبقاً لها منطوق ما énoncé ، وبالتالي عن القواعد التي يمكن أن يتكون طبقاً لها عدد مشابه من المنطوقات. أما وصف الأحداث المقالية les événements discursifs فإنه يجيب عن تساؤل آخر هو : لماذا يظهر منطوق ما بدلا من غيره كان من الممكن أن يحل محله» ؟ (٦).

وإذا كان فوكوه يعزل المنطوق عن اللغة وعن الفكر ، فذلك للتأكد من عدم نسبته إلى عناصر ذات طبيعة سيكولوجية (مثل قصد المؤلف l'intention de l'auteur ، وتكوينه النفسي la forme de son esprit ، وصرامة تفكيره la rigueur de sa pensée ، والموضوعات التي تستحوذ عليه (les thèmes qui le hantent ، وأيضاً ليتمكن من كشف أنماط أخرى للاطراد régularité وأنواع جديدة من العلاقات rapports (٧).

(٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، (سبق ذكره) ، ص ٣٩ .
(٧) نفس المرجع ، ص ٤١ .

ومن أمثلة العلاقات الجديدة التي يكشف عنها فوكوه : علاقة المنطوقات فيما بينها (حتى لو لم يكن لها نفس المؤلف أو حتى لو تجاوزت شعور أي مؤلف أو حتى لو لم يكن هناك أي تعارف بين المؤلفين) ؛ وفوكوه يكشف أيضاً عن العلاقة بين مجموعات من المنطوقات (حتى لوكانت هذه المجموعات تنتمي لمجالات مختلفة وغير متقاربة . وحتى لو لم يكن لها نفس المستوى الصوري le même niveau formel) ؛ وهو يكشف أخيراً عن العلاقة بين مجموعات من المنطوقات وبين أحداث تقنيه techniques واقتصادية واجتماعية وسياسية (٨).

ولايقتصر عمل المنهج الأركيولوجي على مجرد كشف علاقة المنطوقات بل إن هذا المنهج الوضعي إنما يهدف أيضاً إلى الكشف عن نسيج العلاقات الذي يختبيء وراء المنطوقات والذي يفسر ظهورها ، كما يهدف كذلك إلى الكشف عن نسق الترزيع Système de répartition الذي يفسر تواجد المنطوقات المتغايرة . والكشف عن قانون ظهور التصورات concepts ابتداء من المنطوقات (بعيداً عن أرض الاستنباط) (٩).

المنطوق ذرة المقال :

يقول فوكوه : «لقد استخدمت كلمة منطوق énoncé للاشارة إلى أحداث مفردة événements singuliers في مقابل هذه المجموعات ces ensembles التي نسميها مقالا discours . ويظهر المنطوق لأول وهلة كعنصر أول لا ينقسم ، يمكن أن يستقل بذاته ، وبامكانه أن يدخل

(٨) نفس الموضع .

(٩) KREMER-MARIETTI Angèle : Op. Cit., P. 139.

في علاقات مع عناصر أخرى مماثلة .. إن المنطوق ذرة المقال l'énoncé est l'atome du discours (١٠)

والمنطوق رغم أنه ينشأ عن رموز إلا أنه لا يوجد على نمط اللغة . ورغم أنه يقوم في زمان ومكان إلا أنه لا يوجد على نمط الأشياء .

«إن المنطوق هو وظيفة للرموز . يمكن ابتداء منها أن نقرر — بالتحليل أو الحدس — ماإذا كان للرموز معنى أولا ، وماهي القواعد التي تخضع لها في تتابعها أو تجاورها ، وما دلالة هذه الرموز .» (١١).

غير أننا سنرجيء الحديث عن «الوظيفة المنطوقية» أو «المنطوق كوظيفة للرموز» ، ونتساءل الآن عن مكانة المنطوق بالنسبة للقضية والجملة :

مكانة المنطوق بالنسبة للقضية والجملة :

هل يتطابق المنطوق مع ما يسميه المناطقة قضية proposition وهل يتطابق مع ما يسميه علماء النحو جملة phrase ؟ لا يعتقد فوكوه أن القضية هي شرط وجود المنطوق ، كما أنه لا يعتقد أن التحدث عن منطوق يكون فقط في حالة وجود قضية . إذ من الممكن أن نجد في قضية واحدة منطوقين متمايزين تماماً ونشآ عن تجمع مقالي groupement discursif مختلف .

ومثال ذلك :

«لا واحد يعلم» «Personne n'a entendu»

«حقيقة أنه لا واحد يعلم» «Il est vrai que personne n'a entendu»

---

(١٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ١٠٦ — ١٠٧ .

(١١) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١١٥ .

. من الناحية المنطقية نجد أن هاتين الصيغتين لا يمكن اعتبارهما قضيتين مختلفتين . أما من حيث كونهما منطوقين فإنهما غير متكافئين ولا يمكن أن يحل أحدهما محل الآخر .

فإذا كانت الصيغة الأولى هي السطر الأول الذى يبدأ سرد إحدى الروايات romans ، فاننا نفهم مبدئياً وحتى اشعار آخر أننا بصدد سرد تقريرى constatation للمؤلف أو لإحدى الشخصيات بالرواية .
أما إذا كانت الصيغة الثانية هى التى تبدأ بها الرواية :

«Il est vrai que personne n'a entendu»

. فانها توحي بأننا بصدد حديث داخلى Un monologue intérieur :

ومن ثم نرى أننا أمام قضيتين لهما نفس التركيب ، غير أنهما تكشفان عن منطوقين متمايزين (١٢) .

أما عن التكافؤ équivalence بين الجملة والمنطوق ، فإن فوكوه لا يمانع فى القول بأن الجملة التى تستقل بذاتها من الناحية النحوية يمكن أن تكشف عن منطوق مستقل . غير أن هذا التكافؤ ليس تاماً ، إذ من الممكن العثور على منطوق يفتقر إلى التركيب اللغوى للجملة مثل «كتب يكتب كتابة» (١٣) . وعلى هذا ، فانه لمن الصعب أن نعرف المنطوق ابتداء من الخصائص النحوية للجملة .

ويرى فوكوه أن هناك احتمالا أخيراً وهو أن يكون المنطوق مرادفاً لفعل الصياغة UN acte de formulation أو ما يطلق عليه التحليليون

(١٢) نفس المرجع ، ص ١٠٨ .
(١٣) المثال الذى أورده فوكوه هو تصريف فعل amare اللاتينى ، فأورد المنطوق كما يلى (amat و amas و amo» ، نفس المرجع السابق ، ص ١٠٩ .

اللغويون من الانجليز لفظ Speech act (أى القول كحالة شعورية) (١٤) .
ويبين فوكوه أن فعل الصياغة ليس هو الفعل المادى للصياغة: أى الكلام بصوت عال أو منخفض أو الكتابة باليد أو بواسطة الآلة الكاتبة . كما يبين فوكوه أيضاً أن فعل الصياغة لا يعنى كذلك قصد الفرد الذى يتحدث l'intention de l'individu سواء أراد أن يقنع الآخرين أو يرغب فى أن يكون مطاعاً أو كان يهدف إلى البحث عن حل احدى المعضلات الخ. وهذا الفعل لايعنى أخيراً النتيجة المرتقبة لما يقوله الفرد ، كأن يكون قد توصل إلى اقناع الآخرين أو إلى التأثير عليهم سلباً أو ايجاباً الخ .

إن الفعل الصياغة انما يقصد به الصيغة ذاتها la formule elle-même سواء أكانت وعداً promesse أو أمراً ordre أو قرارا décret أو عقداً contrat أو التزاماً engagement أو تقريراً constatation . وفعل الصياغة بهذا المعنى هو وحده الذى يمكن أن نسميه منطوقا .

غير أن علاقة التطابق بين فعل الصياغة والمنطوق لا تلبث أن تتهاوى هى الأخرى أمام النظرة الفاحصة . فغالباً ما يحتاج فعل الصياغة إلى أكثر من منطوق : فالقسم والوعد والعقد والبرهان انما تتطلب فى أغلب الأحيان عدداً من الجمل المنفصلة ، ومن الصعب ألا نخلع على أى منها صفة المنطوق بدعوى أنها تتشابك جميعاً بفعل صياغة واحد . وقد يقال عندئذ أن الفعل فى هذه الحالة لن يظل واحداً مع تعدد المنطوقات .ومع ذلك فإن هذا القول لن يكون كافياً ، وذلك لأن فعل الصياغة لم يعد معرفاً للمنطوق ، بل إن هذا الأخير هو الذى يعرف الفعل .

---

(١٤) نفس المرجع ، ص ١١٠ .

ونلاحظ بناء على ما تقدم أننا هنا أيضاً لايمكن أن نوافق على وجود علاقة تطابق بين المنطوقات وبين أفعال الصياغه .

ينبغي الاعتراف إذن بأنه من الصعب أن نتوصل للتعريف المناسب للمنطوق خصوصاً وأنه بمثابة القشرة الخارجية التي تبدأ منها جميع التحليلات اللغوية . فأي مجموعة من الرموز أوالصور figures أيا كانت درجة التنظيم فيها إنما تكفي لتكوين منطوق . ثم يبقى على عاتق علم النحو أن يبين ما إذا كانت جملة أولا ، وعلى علم المنطق أن يبين ما إذا كانت تستوفي شروط القضية أولا ، وأخيراً فإن على التحليل l'Analyse أن يحدد فعل الصياغة الذي يمر من خلالها (١٥).

وعلى هذا ، فوجود رمز أو مجموعة متراصة من الرموز يعني وجود منطوق لأن المنطوق هو نمط وجود mode d'existence الرموز (١٦) ، وهو أيضاً وظيفة للرموز كما سبق أن قدمنا .

وظيفة المنطوق: La Fonction énonciative

تحت هذا العنوان يتعرض فوكوه لمناقشة نقاط أربع تلتف كلها حول مفهوم المنطوق . وهي تبدأ بتكوينه ، ثم تسأل عن فاعله ومجاله ، وتنتهي بنسبة التواجد المادي له (١٧).

كيف يتكون المنطوق ؟

يرى فوكوه أن أي رموز تألفت بطريقة مادية صرفه ، وتجمعت بطريقة عشوائية أو غير عشوائية بعيداً عن أي قواعد للنحو أو الصرف يمكن أن تكون منطوقاً . وإذا أخذنا حروف الآ له الكاتبة أو المطبعة مثلا ، فإنه ليكفي أن

---

(١٥) نفس المرجع السابق ، ص ١١٢ .
(١٦) نفس المرجع السابق ، ص ١١٦ .
(١٧) نفس المرجع السابق ، ص ص ١١٦ — ١٣٨ .

أعيد كتابة هذه الرموز على ورقة حسب تتابعها الظاهر (١٨) دون أن أكون كلمة واحدة ، أقول يكفي هذا التتابع لأكون منطوقاً : إنه منطوق أحرف الهجاء فى تتابع يسهل عملية الكتابة على الآلة الكاتبة .

ويظهر لنا بوضوح أن أى مجموعة من الرموز يمكن إذن أن تصبح منطوقاً على شريطة أن يكون لها بشيء آخر علاقة خاصة . وإذا قيل أن هذه العلاقة هي علاقة الدال بالمدلول ، أو هي علاقة الاسم nom بما يشير اليه، أو علاقة الجملة بمعناها ، فإن فوكوه يبين أنها لا يمكن أن تتطابق مع أى من هذه العلاقات . فالاسم هو عنصر لغوى يمكنه أن يحتل مكاناً فى مجموعة نحوية فضلا عن أنه يعرف بإمكانية تكراره . أما المنطوق فإنه يوجد بعيداً عن أى احتمال لظهوره من جديد . أما إذا ظهر من جديد أى صياغة مماثلة Une formulation identique فعندئذ يقول فوكوه : «لقد استخدمت نفس الكلمات وربما نفس الجملة ولكن ليس بالضرورة نفس المنطوق » (١٩).

ولا ينبغي أيضاً أن نخلط العلاقة بين منطوق وما يعبر عنه ce qu'il énonce وبين علاقة القضية بالواقعة التى تشير اليها son référent .فنحن نعلم أن المناطقة يرون فى القضية «جبل الذهب يوجد فى كاليفورنيا» أنها صعبة التحقيق لأنها لاواقع لها . فنفيها ليس أكثر صدقاً أو أقل صدقاً من اثباتها . هل ينبغي أن نقرر بالتالى أن منطوقاً لا يرد إلى شيء ne se rapporte à rien إذا كانت القضية التى يؤسس وجودها à qui il donne existence لا واقع لها ؟ ينبغي بالأحرى

---

(١٨) هذا التتابع الظاهر فى أحرف الالة الكاتبة الفرنسية هو : AZERT

(١٩) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١١٨ .

ويلاحظ أن المنطوق لا يتكرر ظهوره لأنه «حدث» ، والأحداث لا تتكرر الا فى سياق جديد ، ومن هنا كان المنطوق شيئا غير متكرر وقابل للتكرار فى نفس الوقت ، وليس فى هذا تناقض .

أن نقرر العكس . فليس غياب الواقع بالنسبة للقضية هو الذى يتبعه غياب المتضايف مع المنطوق le corrélat de l'énoncé ، بل إن هذا الأخير — وهو ما اليه يرد المنطوق — هو الذى يسمح بالقول عما إذا كانت القضية لها واقع أولا .

فإذا افترضنا أن الصيغة «جبل الذهب يوجد فى كاليفورنيا» لا وجود لها فى كتب الجغرافيا أو فيما يرويه الرحالة ، بل توجد فى قصة أو أى رواية خيالية ، عندئذ يمكننا الحكم عليها بالصواب أو الخطأ بقدر ما يسمح هذا (الواقع) الخيالى الذى تنتمى اليه بقبول أو عدم قبول مثل هذه الأكذوبة الجيولوجية أو الجغرافية . وينبغى إذن أن نعرف إلى أى شىء يرد المنطوق ، كما نعرف المجال المكانى لمتضايفاته son espace de corrélations ، حتى يمكننا أن نقرر ما إذا كانت القضية لها واقع أولا . فاذا قلنا أن «ملك فرنسا الحالى أصلع» ، فهذه القضية ليس لها واقع إذا افترضنا أن المنطوق يرد إلى عالمنا الاخبارى الحالى . إن علاقة القضية بالواقع لا يمكن أن تكون أنموذجاً أو قانوناً لعلاقة المنطوق بمايعبر عنه ce qu'il énonce .فهذا الأخير ليس فقط منتمياً إلى مستوى آخر ، بل يبدو وكأنه سابق على القضية . (٢٠)

ولا ينبغى أخيراً أن نخلط العلاقة بين منطوق وما ينطق به بعلاقة الجملة بمعناها . فالتباعد بين هذين النوعين من العلاقات إنما يظهر جلياً فى حالة الجمل الخالية من أى معنى رغم سلامتها من الناحية اللغوية أو النحوية كما فى المثال الآتى :

«إن الأفكار الخضراء التى لا لون لها تنام نوماً عميقاً» .

إن القول بأن هذه الجملة لا معنى لها إنما يفترض استبعاد عدة احتمالات :

---

(٢٠) نفس المرجع السابق ، ص ١١٩ .

احتمال أن تكون الجملة سرداً لأضغاث أحلام ، واحتمال أن تكون الجملة مقتطعة من نص شعرى ، واحتمال أن تكون رسالة شفرية ، واحتمال أن تكون هذياناً صادراً تحت تأثير مخدر . ويبقى أن تكون الجملة نمطاً معيناً للمنطوق تربطه علاقة محددة بالواقع المرئى . يقول فوكوه : «أنه فى داخل علاقة منطوقية محددة وثابتة يمكن أن تتحدد العلاقة بين الجملة ومعناها» (٢١).

يضاف إلى ما تقدم أن مثل هذه الجمل ، حتى لو أخذت على المستوى المنطوقى حيث لا معنى لها ، فإنها كمنطوقات لا تفتقر إلى المتضايفات Cor rélations . فمن هذه المتضايفات مثلا ما يسمح بالقول بأن الأفكار ليست مما يقبل اللون أو عدم اللون ، وبالتالى فإن الجملة لا معنى لها (فهذه المتضايفات تخص جانباً من الواقع تكون فيه الأفكار غير مرئية بينما تظهر الألوان أمام كل الناظرين) ، ومن هذه المتضايفات أيضاً ماجعلنا نرى الجملة سليمة لغوياً رغم أنها مجردة من أى معنى (وهذه المتضايفات تخص المجال اللغوى وقواعده وخصائصه) . الجملة إذن رغم كونها غير دالة ، فإنها باعتبارها منطوقاً إنما ترد إلى شيء ما .

كيف نعرف علاقة المنطوق إذن ؟ وكيف نميزها عن العلاقات المتصلة بالمعنى أو بقيم الصدق أو الكذب التى كثيراً ما اختلطت بها ؟ .

إن المنطوق أيا كان لا يتضايف مع فرد أو شيء مفرد يشار اليه بلفظ فى الجملة : ففى حالة منطوق مثل«جبل الذهب يوجدفى كاليفورنيا» ،نجد

---

(٢١) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

أن مايرتبط بالمنطوق le corrélat de l'énoncé ليس هو «جبل الذهب» وليس «كاليفورنيا» ، بل مجموعة مجالات يمكن لمثل هذه الأشياء أن تظهر فيها . مثلا مجال الأشياء المادية ذات الخصائص الفيزيقية ، أو مجال الأشياء الخيالية ذات الخصائص العشوائية arbitraires وغير قابلة للتحقيق التجريبي ، أو مجال التحديد المكاني والجغرافي ويستخدم المسافات وعلاقات الجوار والتضمن .

إن المنطوق إذن لايرتبط بمتضايف يتواجد أمامه أو يغيب عنه كارتباط اسم العلم بشخص معين ، إنه بالأحرى يرتبط «بنسق» référentiel لايتكون من «أشياء» أو أعمال «faits» أو وقائع «réalités» أو كينونات «êtres» بل يتكون من مجال champ يعرف امكانات ظهور الأشياء أو الأفراد les possibilités d'apparition وأيضاً امكانات تحديد ما يعطي للجملة معناها وما يمنح القضية قيمة الصدق . إن هذا كله في مجموعه هو الذي يميز المستوى المنطوق للصيغة le niveau énonciatif de la formulation في مقابل المستوى النحوي son niveau grammatical أو المستوى المنطقي logique.

ويتبين مما تقدم أن المنطوق هو الجملة التي يمكن أولا يمكن أن ينسب إليها معنى ، أو هو القضية التي يمكن أن تقبل أولا تقبل قيمة الصدق : كما يتبين لنا أيضاً أن وصف هذا المستوى المنطوق لا يكون بالتحليل الصوري أو البحث السيمانطيقي une investigation sémantique ، كما لا يكون بالتحقيق vérification ، بل بتحليل العلاقات بين المنطوق وبين المجالات المكانية للتغاير (٢٢) Les espaces de différentiation .

---

(٢٢) نفس المرجع السابق ، ص ١٢١ .

فاعل المنطوق ومؤلف الصيغة :

Le sujet de l'énoncé et l'auteur de la formulation:

إن القضية أو الجملة أو مجموعة الرموز لا يطلق عليها لفظ منطوق énoncé لأن إنساناً نطق بها في يوم ما ، بل بقدر ما نستطيع أن نحدد وضع الفاعل la position du sujet.

و يرى فوكوه أن وصف أي صيغة باعتبارها منطوقاً لا ينحصر في تحليل علاقات بين المؤلف auteur وبين ماقاله أو ما يريد أن يقوله ، بل هو تحديد الوضع الذي يمكن أن يحتله أي فرد ليكون هو الفاعل (٢٣). وإذا بدا لأول وهلة أن فاعل المنطوق هو مؤلف الصيغة الذي يهدف إلى توصيل معنى معين ، فإن فوكوه يرى أن الواقع يكذب ذلك : ففي حالة الكاتب الروائي نجد أن مجموع المنطوقات المتضمنة في الرواية انما ينتسب إلى مجال مكاني يتسع لكي يشمل الكاتب الروائي نفسه . ومن ثم فإنه ليس هو الفاعل (٢٤) .

وإذا قيل أن مؤلف الجملة هو الإنسان الفرد الذي نطق بها أو كتبها لأن الرمز أو نسق الرموز لا وجود له دون علة أصدرته أو فاعل أتى به ، فإن فوكوه يقرر بأن هذا الفاعل لا يتطابق مع فاعل المنطوق . ففاعل المنطوق لا يرد إلى ضمير المتكلم الظاهر في الجملة ، فضلا عن أنه لا يوجد ظاهراً في التركيب اللغوى .

فاعل المنطوق يتميز إذن عن مؤلف الصيغة ، وهو لا يتطابق معه ، لا مادياً ولا وظيفياً ، ولا يمكن النظر اليه على أنه هو العلة أو الأصل أو نقطة البدء

---

(٢٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

(٢٤) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٢ .

في اصدار جملة شفهية أو مكتوبة . إنه «وظيفة محددة ، وفارغه ، يمكن أن يملأها أي «مؤلف صيغة» ، أعني أي فرد يصوغ المنطوق » (٢٥) ، أو «هو مكان محدد وفارغ يمكن أن يملأه أفرادمختلفون » (٢٦) . «وهذا المكان الفارغ هو بعد يميز كل صيغة باعتبارها منطوقاً كما أنه أحد خصائص الوظيفة المنطوقية »(٢٧).

ويستند فوكوه إلى قضية رياضية يوضح بها وجهة نظره وهي «المساويان لثالث متساويان» . ويرى أن فاعل المنطوق هنا هو وضع محايد لا يتأثر بزمان أو بمكان أو بظروف ، وهو متماثل identique في أي نسق لغوى ، ويمكن أن يحتله أي فرد ليقرر هذه القضية .

ورغم أن هذه القضية الرياضية كانت أفضل مثال يستند اليه فوكوه في توضيح وجهة نظره ، إلا أنه يقرر في موضع لا حق (٢٨) أن الرياضيات بالنسبة للمؤرخ الأركيولوجي هي مثل سيء لا ينبغي تعميمه .

مجال المنطوق :

من أهم خصائص الوظيفة المنطوقية هو ضرورة وجودها في مجال مشارك UN domaine associé؛(٢٩)وهذا هو ما يميزها عن الجملةوالقضية . فنحن أمام مجموعة من الكلمات أو الرموز ؛ يمكنناأن نقرر ما إذا كانت تكون «حدة سليمة نحوياً (جملة) أو منطقياً (قضية) ، وذلك فقط بالرجوع إلى القواعد المكونة لها . فمثلا «حضر عمر أمس » جملة ، أما «أمس عمر حضر»

---

(٢٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٣ .
(٢٦) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٥ .
(٢٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٢٦ .
(٢٨) نفس المرجع السابق ، ص ٢٤٧ .
(٢٩) ميشيل فوكوه « أركيولوجيا المعرفة » ، ص ١٢٦ .

ليست جملة ؛ أ + ب = جـ + د تكون قضية ، أما أ بـ + = د فإنها ليست قضية . وهنا نلاحظ أن مجرد فحص العناصر وتوزيعها بالقياس إلى نسق اللغة إنما يبين ما إذا كانت هذه العناصر تكون جملة أولا ، قضية أولا ، كما نلاحظ أن الجملة أو القضية يمكن أن نتصورها قائمة بذاتها دون سياق أي دون ما حاجة إلى وجود مجال مشارك . وإذا اعترض بأن الجملة لاتقوم إلا إذا خضعت لنسق معين من المسلمات ، أو أن هذه التعريفات والقواعد والاصطلاحات المتصلة بالكتابة إنما تكون في مجموعها مجالا مشاركاً لاينفصل عن القضية ، فإن فوكوه يجيب على ذلك بأن المسلمات والقواعد والاصطلاحات ليست على نفس مستوى الجملة أو القضية ، لأنها تنصب على عناصرها أو تختص بوصف تتابعها أو توزيعها الممكن ، وهي ليست مشاركة لها (٣٠) .

وإذا اعترض — في حالة الجملة — بأن بعضها يفتقر إلى المعنى إن لم يشمله سياق ، فهنا يجيب فوكوه بأنه حتى لو لم يكن المعنى مستوفياً ، فإن الجملة تظل سليمة لغوياً ومحتفظة باستقلالها (٣١) . وإذا اعترض — في حالة القضية — بأن عدداً من القضايا لا يمكن التحقق من صدقه بالرجوع فقط إلى قواعد تكوينه ، إذ لابد من الرجوع إلى الواقع يقرر ما إذا كانت صادقة أو كاذبة ، فهنا يرد فوكوه بأنها قضايا منطقية سواء صدقت أو كذبت ، وليس الواقع هو الذي يقرر ما إذا كانت قضايا أولا (٣٢).

وإذا كان هذا هو حال القضية أو الجملة ، فإن المنطوق ، على العكس

---

(٣٠) « أركيولوجيا المعرفة » ، ص ١٢٧ .

(٣١) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .

(٣٢) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

تماما ، لا بد من وجوده على علاقة بمجال مشارك مع عدد متجانس من المنطوقات يسميه فوكوه المجال المنطوق le champ énonciatif . وعلى هذا فإننا لا يمكن أن نتحدث عن منطوق عام أو محايد أو مستقل . لأن المنطوق يكون دائماً بمثابة جزء من كل . فهو يلعب دوراً خاصاً بين منطوقات أخرى، كما يستند إلى هذه المنطوقات مع استمرار تميزه عنها .

وابتداء من هذا التواجد المنطوق تنبثق العلاقات النحوية بين الجمل ؛ والعلاقات المنطقية بين القضايا، وأيضاً علاقات ما وراء اللغة. وهذه الأخيرة تنشأ بين اللغة كموضوع Un langage-objet وبين اللغة ذاتها وهي تعرف قواعدها (٣٣).

الوجود المادى للمنطوق :

إن ضرورة التواجد المادى للمنطوق هو من الشروط الأساسية للوظيفة المنطوقية. إذ لا يمكن التحدث عن منطوق دون أن يكون هناك الصوت الذى نطق به أو السطح الذى يحمل رموزه أو دون أن يكون هذا المنطوق متجسداً فى عنصر محسوس أو دون أن يكون قد ترك أثراً فى ذاكرة ما(٣٤).

ونلاحظ أن التواجد المادى للمنطوق إنما يكون على مستوى المؤسسات institu tions أكثر من كونه على مستوى التحديدات الزمانية المكانية ، وإلا لكانت الجملة التى تكرر ورودها فى ظروف زمانية ومكانية مختلفة تعبر عن عدد من المنطوقات هو عدد مرات هذا التكرار . وعلى سبيل المثال نجد أن التصريح بأن «الأرض كروية» أو أن «الأنواع تتطور» لا يمكن أن

(٣٣) نفس المرجع ، ص ١٣١ .
(٣٤) نفس المرجع ، ص ١٣٢ .

يعبر عن نفس المنطوق قبل وبعد كوبرنيق أو قبل وبعد دارون . فالتغير الذى حدث إنما يمكن فى علاقة هذه التصريحات بقضايا أخرى تتصل بمجال الخبرة والممارسة والتحقيق . وإذا قلنا أن «الأحلام هى تحقيق للرغبات» ، فإن هذه الجملة يمكن أن تتكرر على مر العصور ، وهى ليست نفس المنطوق عند أفلاطون وفرويد . وهنا نلاحظ أن نفس الكلمات ونفس التركيب والمضمون اللغوى لا يفصح عن نفس المنطوق . هذا على الرغم من أننا يمكن أن نجد نفس المنطوق فى صور لغوية متعددة وذلك فى حالة ترجمة أى مقال إلى لغة أو لغات أخرى غير لغته الأصلية (٣٥) .

ونرى مما تقدم أن المنطوق لا ينبغى أن ينظر اليه كمجرد حدث فى الزمان والمكان يمكن استعادته فى الذاكرة . كما أنه لا ينبغى أن ينظر اليه كذلك على أنه صورة مثالية يمكن أن تتجسد فى أى شىء ، لأنه فى حقيقته شىء قابل للتكرار . وهذه المادية المتكررة cette matérialité répétable التى تتصف بها الوظيفة المنطوقية تجعل المنطوق يظهر وكأنه شىء بين الأشياء التى انتجها الإنسان ، والتى يستخدمها ويتبادلها ويحولها أو يحللها ويعيد تركيبها وربما يحطمها . والمنطوق ، بدلا من أن يكون شيئاً قيل مرة واحدة (وبالتالى ذهب مع الماضى السحيق كما يذهب قرار معركة حربية أو كارثة جيولوجية أو موت ملك) ، فإنه يظهر بحالته ظهوراً مادياً : ويدخل فى مسارات مختلفة ، ويتمركز فى مجالات استخدام منفردة ، ويستسلم أمام تحولات وتغيرات غير محددة ، وقد ينتظم فى عمليات يمكن أن تطمس هويته (٣٦).

---

(٣٥) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣٦) نفس المرجع السابق ، ص ١٣٨ .

مما تقدم عن الوظيفة المنطوقية يمكننا أن نفهم ما قدمه فوكوه نفسه عن المنطوق من أنه حدث غريب ! (événement etrangel)أولا ، لارتباطه برموز الكتابة أو بالكلام . ولا حتفاظه مع ذلك بوجود فى الذاكرة وفى الوثائق المكتوبة وفى الكتب . ثانياً ، لأنه كحدث ينفرد فى أنه يخضع للتكرار والتحول والتجديد . وأخيراً ، لأنه يرتبط ليس فقط بمواقف تثيره أو بنتائج تترتب عليه ، بل هو يرتبط فى نفس الوقت بمنطوقات أخرى سابقة عليه ولا حقة له (٣٧) .

ومما تقدم عن الوظيفة المنطوقية، يتضح أيضاً أن «المنهج الأركيولوجى» إنما يستهدف الوصول إلى «وضعية المنطوق» la positivité de l'énoncé .

وهو فى هذا لا يتعرض لعالم مغلق ، لأن غاية المنهج هى إعادة «فتح ملفات» ما أنجز من أعمال لفحصها فى صورة منطوقات لا يتحدد معناها إلا داخل مجال معين . ولقد تحققت فعلا هذه الغاية فى تطبيقات المنهج التى سنخصص لها الباب الثانى كله من الرسالة . أما الآن ، فاننا سنعرض لما أسماه فوكوه «وصف المنطوقات» la description des énoncés .

معنى وصف المنطوق :

يرى فوكوه أنه إذا أطلقنا اصطلاح «أداء لفظى» performance verbale على أى مجموع من الرموز اللغوية ، فإن من الممكن أن نطلق اصطلاح «صياغة» formulation على الفعل الفردى أو الجماعى الذى يظهر — بطريقته الخاصة — هذه المجموعة من الرموز. وإذا كانت الصياغة هى حدث

(٣٧) نفس المرجع السابق ، ص ٤٠ — ٤١ .

événement يمكن تحديده دائماً بملابسات زمانية و مكانية ، كما يمكن أن ينسب إلى فاعل auteur ؛ ويمكن أن يكون بذاته ما يطلق عليه التحليليون الانجليز (٣٨) لفظ "Un acte"performatif (فعل الأداء) ، فإن المنطوق هو النمط الذى تظهر به الرموز ، وهو النمط الذى يجعل منها شيئاً آخر غير مجرد مجموعة خطوط أو مجرد تتابع لبعض العلامات على جسم أو أى شىء آخر صنعه الإنسان . ويظهر إذن أن وصف المنطوق هو تعريف بالظروف التى أعطت الوجود لمجموع من الرموز ، وجعلت لها علاقة بمجال من الأشياء . وهذا الوصف يتجه إلى شرط الوجود بالنسبة للمجموعات الدالة ensembles signifiants . وهو لا يهدف إلى الكشف عن عنصر مختبى أو معنى غامض وذلك على الرغم من أن المنطوق غير مرئى Non visible (٣٩).

ويبين فوكوه أنه لمن المتعذر التوصل للمنطوق عن طريق الإدراك الحسى. ربما لأنه كالأجسام الشفافة التى لا تظهر بوضوح لشفافيتها. وربما لأنه لا يكون وحده مستقلة مثل الجمل أو القضايا ، بل كثيراً ما يكون مستثمراً لخدمة هذه الأخيرة أو لخدمة أى تجمع آخر للرموز لا يخضع لما تخضع له الجمل والقضايا من قوانين وذلك مثل قوائم التصنيف والجداول Listes & Tableaux . وربما تعذر رؤية المنطوق كذلك لأن اللغة من حيث هى تركيب دال Une structure signifiante ، إنما تحيل دائماً إلى شىء آخر ، هو ما تشير اليه من أشياء وما يقصد من معنى وما يختبىء من ذوات Sujets . وفى الحقيقة يبدو أن اللغة مستودع عامر بالأغيار peuplé par l'autre ! أليست هى مسرح ظهور كل شىء سوى ذاتها ؟ ثم أليس فى كل هذا تبديد لوجودها ؟ (٤٠).

---

(٣٨) من أمثال جورج ادوارد مور ، وبرتراند راسل وتلميذهما فتجنشتين .

(٣٩) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٤٣ .

(٤٠) نفس المرجع ، ص ١٤٦ .

يرى فوكوه – انطلاقا من هذا كله – أن المستوى المنطوقي le niveau énonciatif ينبغي أن يدرس هذا الوجود المفرد Singulière والمحدد limitée للغة ، وذلك بأن يتجاهل ما لها من قدرات على نقل المعنى وكشف الحقيقة واظهار الأشياء وما إلى ذلك. وهذا يعني أنه يتجاهل المدلول اللغوي .

وإذا كان هنالك من الفلاسفة المعاصرين من سبق فوكوه إلى المطالبة بتعطيل المدلول اللغوي حتى تنصب الدراسة فقط على نسق الدال (٤١) ، فان فوكوه يطالب بوقف الدال أيضاً لكي تظهر اللغة (٤٢) ، أو لكي يظهر ما أسماه «المعطى المنطوقي Un donné énonciatif » (٤٣). والبحث عن «المعطى المنطوقي» في ذاته لا يعني البحث عن سر معين أو عن أصل للغة أو حتى عن مستوى أكثر عمقاً، بل أنه محاولة تستهدف التحري عن هذه الشفافية التي تبرر إمكانية أي دارسة تحليلية للغة .

وإذا نجحنا في وصف هذا «المعطى المنطوقي» ، فان هذا يعني أن الصياغة اللغوية لم تكن في الأصل مجرد تمزيق للصمت . كما يعني أن الكلمات والجمل والمعاني والتصريحات وتسلسل القضايا لا تستند مباشرة إلى ليل أولي صامت ، بل إن الظهور الفجائي للجملة وإشراق المعنى ، إنما يصدران دائماً عن الوظيفة المنطوقية (٤٤). ولذا. فقد كان من العبث أن نبحث فيما وراء

(٤١) نذكر من هؤلاء الفلاسفة المعاصرين فتجنشتين في فلسفته اللغوية، راجع بهذا الخصوص : الدكتور زكريا ابراهيم : «دراسات في الفلسفة المعاصرة» ، مكتبة مصر سنة ١٩٦٨ ، ص ٢٧١ – ٢٧٥ .

(٤٢) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٤٦ .

(٤٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة .

(٤٤) نفس المرجع ، ص ١٤٧ .

التحليلات اللغوية عن مجال ترتع فيه أى ذات انسانية ، وتتمتع بأى عمل حر ، أو تفتح الطريق أمام أى مسار متجاوز transcendantale، فاللغة فى ظهورها أو فى نمط كينونتها إنما هى المنطوق ، ومن ثم فانها تصدر عن وصف ليس متجاوزاً أو انثروبولوجيا .

وفى معرض الحديث عن وصف المنطوق باعتباره ذرة المقال يحدثنا فوكوه عن المقال ذاته ، ويرى أنه «يتكون من مجموع تتابع الرموز من حيث هى منطوقات» (٤٥) ، أما قانون هذا المجموع فهو ما يسميه «التكوين المقالى» la formation discursive . وهذا الأخير هو مبدأ انتشار dispersion وتوزيع répartition المنطوقات : وليس الصيغ أو القضايا (٤٦) . كما أن هذا المبدأ ليس شيئاً آخر سوى ترابط المنطوقات ذاتها ، لا على مستوى القضايا أو الجمل أو حتى على المستوى السيكولوجى بل فقط من حيث هى منطوقات .

ويلاحظ فوكوه أن وصف المنطوق ، والبحث عن الوظيفة المنطوقية ، ثم تحليل الظروف التى تمارس فى ظلها هذه الوظيفة ، كل هذا انما يكشف النقاب عن التكوين المقالى (٤٧) . ومن ناحية أخرى يرى فوكوه أن التكوين المقالى هو النسق المنطوقى العام le système énonciatif général الذى تخضع له مجموعة من الأداء اللفظى un groupe de performances verbales (٤٨)· . غير أن هذا الأداء — من حيث ما له من أبعاد أخرى — إنما يخضع كذلك لأنساق منطقية ولغوية وسيكولوجية .

---

(٤٥) نفس المرجع ، ص ١٤١ .
(٤٦) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٤٧) نفس المرجع السابق ، ص ١٥١ .
(٤٨) نفس المرجع ، ص ١٥٢ .

ومن هنا يتضح أن المنطوق إنما ينتمي إلى «تكوين مقالي» كما تنتمي الجملة إلى نص لغوي والقضية إلى نسق استباطي . غير أنه في الوقت الذي نجد فيه الجملة منتظمة حسب قوانين اللغة التي تنتسب اليها ، والقضية حسب قوانين المنطق الذي تنتمي اليه . فإن انتظام المنطوقات أو اطرادها régularité إنما يعرف بواسطة «التكوين المقالي» ذاته باعتباره قانونها . وليس ثمة تناقض في هذا الصدد خصوصاً وأن التكوين المقالي لا تميزه مبادىء تركيبية ، بل يميزه فعل الانتشارذاته dispersion كما أن التكوين المقالي ليس هوشرط امكانية المنطوقات بل هوقانون التواجد معاً une loi de coexistence (٤٩) .
وقد حرص فوكوه على أن يبين أن التحليل المنطوقي لا يرسم حدوداً تتوقف أمامها التحليلات اللغوية أو المنطقية ، بل إنه رغم مساره المختلف إنما يلتقي معها في النهاية (٥٠) . فتحليل المنطوق لا يهدف إلى أن يحتل مكان التحليل المنطقي للقضايا أو التحليل اللغوي للجمل أو التحليل السيكولوجي للصيغ بل ، هو — كما سبق أن قدمنا — طريقة جديدة أو بعد جديد لفحص الأداء الكلامي . فهو يفتت ما به من تعقيد ، ويعزل الألفاظ المتداخلة فيه ويحدد ما يخضع له من اطراد .

ونلاحظ هنا أن فوكوه إنما يقف في مواجهة التيارات الفلسفية التي تضع كينونة اللغة أو أصولها في مقابل جميع التحليلات اللغوية ، أي تضع الفلسفة في مقابل العلم «فالمقال لا يكون وحده صورية une Unité formelle يمكن أن تسجل ظهورها أواستخدامها في التاريخ ، بل إنه يتكون من عدد

---

(٤٩) نفس المرجع ، ص ١٥٣ .
(٥٠) نفس المرجع ، ص ١٤٨ .

محدود من المنطوقات يمكن أن نعرف بصددها مجموع من حالات الوجود»(٥١).
هذا بالاضافة إلى أن «التحليل المنطوق لايقوم إلا بصدد أشياء قيلت dites وحمل كتبت ، وعناصر دالة نعلقت أو نصبت » (٥٢) . إنه تحليل تاريخي يبتعد تماماً عن أي تفسير : فبالنسبة لأشياء قيلت ، نجد أنه لا يبحث فيما تخبئه أو ما ينبثق عنها من أفكار أو صور أو خيال ، بل على العكس نجده يسأل عن نمط وجودها وعن معنى ظهورها ، ولم كان هذا الظهور لها وليس لغيرها ، وعن معنى أنها تركت أثراً ، وأخيراً عن استخدامها الممكن (٥٣).

المقال إذن وحده unité وعدم استمرار discontinuité في التاريخ. وهو يحض على التساؤل عن حدوده limites (أي حدود المقال) ، وعن القطع فيه ses coupures وعن تحولاته transformations وأنماط وجوده الزماني أكثر من حثه على التساؤل عن بداية ظهوره في الزمان(٥٤).

وبناء على ماتقدم ، فإن ما يطلق عليه فوكوه اصطلاح «ممارسة مقالية» Pratique discursive (٥٥) ، يمكن أن يتحدد تماماً الآن : فهو لايخلط بعملية التعبير التي تظهر فكرة أو رغبة أو صورة image ، كما لا يخلط بأي نشاط ذهني كالذي يصاحب عادة أي استدلال inférence ، ولا بالفصاحة التي تصدر عمن يرتجل عبارات لغوية منمقة . على العكس تماماً من كل هذا ،

---

(٥١) نفس المرجع ، ص ١٥٣ .
(٥٢) نفس المرجع ، ص ١٤٣ .
(٥٣) حيث أن المقال له كيان مادي ، فهو اذن لا يعرف خارج نطاق العلاقات المكونة له . ولهذا نتحدث عن علاقات مقالية ، واضطراد مقالي ، ولا نتحدث عن مقال . راجع أيضا
LECOURT Dominique : "Pour une critique de l'épisté mologie" (Maspero, 1974), P. 110.

(٥٤) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٥٣ .
(٥٥) «أركيولوجيا المعرفة» ، نفس الصفحة .

نجد أن الممارسة المقالية هي مجموعة من القواعد الغفل anonymes ، تتجدد في الزمان والمكان وتعرف شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية في حقبة معينة وفي مكان جغرافي واقتصادي واجتماعي أو في مجال لغوي معين . وهذه القواعد الغفل هي التي تخضع لها الذوات .

وقبل أن تنتهي دراسة فوكوه عن المنطوقات باعتبارها ذرات مقالية ، فانه يناقش بخصوصها نقاطاً ثلاث : الأولى تتصل بندرتها rareté ، والثانية تتصل بدراسة علاقاتها الظاهرة من الخارج extériorité ، والثالثة تتصل بتحليل التراكم cumul (٥٦). ثم يعترف في النهاية بأنه ربما يكون قد اقترب من «الوضعية» ، ولا اعتراض منه على من وصفوه بذلك .

ندرة المنطوقات :

إذا كانت النصوص اللغوية يمكن أن ترد إلى بعضها البعض ، كما يمكن أن تنتظم في واجهة فريدة figure unique ، وتسير في اتجاه متقارب مع المؤسسات والممارسات ، بل وتشترك في معان موحدة داخل حقبة زمنية معينة ، ويكون كل عنصر فيها معبراً عن المجموع الذي ينتمي اليه والذي ينبثق عنه . فإننا نلاحظ هنا أن الوحدة تحل محل الكثرة . فكثرة الأشياء المقولة choses dites تنظم في (لوحة عريضة) أو نص كبير متسق un grand texte uniforme لم يرد ذكره بعد jamais encore articulé ، ويكشف للمرة الأولى عما ورد بخاطر البشر ، ليس فقط في أحاديثهم أو

---

(٥٦) «أركيولوجيا المعرفة» ، (ص ص ١٥٥ — ١٦٥) .

كتاباتهم بل أيضاً فى مؤسساتهم وممارساتهم وفى الأشياء التى ينتجونها (٥٧).

وإذا كان هذا المعنى المتضمن هو أول وآخر ما ينكشف من خلال الصياغات الظاهرة، خصوصاً وأنه يختبىء وراء مايظهر من التفسيرات أو أنه يسير محاذياً لهذه التفسيرات تحت السطح، فهذا يعنى أن المقال أيا كان إنما يحتفظ بالقدرة على أن يعنى شيئاً آخر غير الذى يقوله، كما أنه يحجب معان متعددة تسببت فى تعدد التفسيرات. والحقيقة أن التفسيرات المختلفة لم تكن لتوجد إلا بسبب ندرة المنطوقات. فالتفسير هو بمثابة رد الفعل الضرورى فى مواجهة هذه الندرة وهو يواجهها بتضعيف المعنى (٥٨) (أى بالاكثار منه).

وقد لاحظنا مما تقدم أن فوكوه إنما يتعرض لمفهوم الكثرة، كثرة الأشياء المقولة التى تنتظم فى نص أوحد، وكثرة المعانى المتضمنة فى النص مقابل ندرة المنطوقات. وقد ظهرت أهمية هذا المفهوم فى الفلسفة المعاصرة أولا عند برجسون فى كتابه «المعطيات المباشرة للشعور» (٥٩)، وفيه تعرف الديمومه على أنها نوع من الكثرة يختلف عن الكثرة المكانية. كما ظهر هذا المفهوم أيضاً عند هسرل فى كتابه «المنطق الصورى والمنطق الترانسندنتالى» (٦٠)

غير أن التحول الذى طرأ على مفهوم الكثرة عند فوكوه إنما يبتعد به تماماً عن المشكلات التقليدية المتصلة بالتقابل بين الكثير والواحد، وخاصة مشكلة تدخل الذات التى تميز وتشترط وتبحث عن الأصل.

---

(٥٧) نفس المرجع السابق، ص ١٥٥. ونلاحظ بهذا الصدد أن هذا النص الكبير الذى تنتظم بداخله المؤسسات والممارسات فى حقبة معينة ليس شيئاً آخرا سوى «البناء الثقافى» أو ما يطلق عليه فوكوه اسم Epistémé وسيرد الحديث عنه بالتفصيل فيما بعد

(٥٨) نفس المرجع السابق، ص ١٥٨.

(٥٩) ظهر هذا الكتاب سنة ١٨٨٩ م.

(٦٠) ظهر كتاب هسرل سنة ١٩٢٩ م.

لا وجود للواحد ولا للكثير عند فوكوه إذن ، وإلا فسنكون بصدد شعور يدرك ذاته في الواحد وينتشر في الكثير . يوجد فقط كثرة نادرة ، ذات نقاط مفردة ، وأماكن شاغرة لمن أتوا ليقوموا بدور الذوات في لحظة ما (٦١).

دراسة المنطوقات من الخارج :

إذا سلمنا بأن تحليل المنطوقات يكون من الخارج : فإن هذا العمل يفترض أن مجال المنطوقات لا يوصف على أنه ترجمة لعمليات تحدث في الفكر أو في اللاشعور أو في أي مجال متجاوز (ترانسند نتالى) ، بل ينبغي أن يقبل أمبريقيا كمكان للأحداث événements (٦٢). كما يترتب على ذلك أيضاً أن مجال المنطوقات لا يرد إلى فرد إنساني أو ضمير جمعي أو أي ذاتية متجاوزة ، بل ينبغي أن يوصف على أنه مجال غفل يكشف عن مكان محتمل لأي ذوات ناطقة . وهنا ينبغي الاعتراف بأن الذاتية الناطقة ليست سوى نتاج للمجال المنطوقي . كما ينبغي الاعتراف كذلك بأن التحليل المنطوقي إنما يستبعد الكوجيتو تماما (٦٣). «N'importe qui parle»

تحليل التراكم : Analyse des cumuls

إن صور تراكم المنطوقات لا يمكن أن تتطابق مع تجميع المعلومات في الذاكرة أو تكدسها في وثائق .

وإذا كان وصف المنطوقات يعتمد على انتشارها الخارجي ، فإن هذا

---

(٦١) راجع أيضا بهذا الخصوص مقال الكاتب GILLES DELEUZE بمجلة النقد Critique عدد مارس سنة ١٩٧٠ . (أنظر مصادر الكتاب) .

(٦٢) وأركيولوجيا المعرفة ، ص ١٦٠ .

(٦٣) نفس المرجع السابق ، ص ١٦١ .

الوصف لا يهدف إلى البحث عن الأصل بداية أو أثراً ، بل يهدف للوصول إلى الصور الخاصة للتراكم . هو لا يكشف إذن عن أساس fondement ولا يضع تفسيراً interprétation بل إنه يقرر موضوعية positivité établir une

ونلاحظ بهذا الخصوص أن تراكم المنطوقات لا يعنى أنها تكون كثرة بداهة (أكسيوماتيكية) ، أى أنها لا تنتظم فى نسق استنباطى كما هو الحال فى نظرية البناءات عند ليفى ستروس (٦٤). والمنطوقات ليست كثرة محسوسة ، بل هى فى مرتبة متوسطة بين المحسوس والمعقول تكاد تقترب من موضوع «التوبولوجيا» (٦٥) . وعلى هذا فإن المنطوق — كوظيفة — ليس بناء ، بل إنه هو الذى يظهر «البناءات » و«الوحدات الممكنة» فى الزمان والمكان (٦٦).

وقبل أن نختتم هذا الفصل عن المنهج الأركيولوجى ، نود أن نتعرض بالشرح لا صطلاحين هامين ، ونبدأ بالاصطلاح الأول عن معنى «الأرشيف».

«الأرشيف هو مجال ما قيل من أشياء» Le domaine des choses dites(٦٧)

و«هو موضوع البحث الأركيولوجى » (٦٨) . وهذا لا يعنى أن المفكر الأركيولوجى يبحث فى سرد «جمهرة من الوقائع ، والأحداث ، والمعانى ،

---

(٦٤) راجع نظرية البناءات عند ليفى ستروس «بالمدخل الفلسفى للأنثروبولوجيا البنائية» وهى الرسالة التى حصل بها الباحث على درجة الماجستير عام ١٩٧٥ ، مكتبة كلية الآداب .

(٦٥) التوبولوجيا هو أحد الفروع الحديثة لعلم الرياضيات ، وهو يدرس العلاقة بين نظرية السطوح وبين التحليل الرياضى . والمنطوقات بهذا المعنى تذكرنا «بالمتوسطات» الرياضية عند أفلاطون والتى أشار اليها فى «الجمهورية» لتقريب المحسوس من المعقول .

(٦٦) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١١٥ .

(٦٧) (67) KREMER-MARIETTI Angèle, "Michel FOUCAULT" (Seghers, 1974), P. 22.

(٦٨) (68) Ibid., P. 44.

والدلالات ، على طريقة المؤرخ التقليدى» (٦٩) ، بل إنه على الأحرى يحاول أن يضع يده على «جملة القواعد العاملة داخل ثقافة ما ، المحددة لظهور الأحكام واختفائها ، المتسببة فى بقائها أو إمحائها ، المعينة لطبيعة وجودها الخاص باعتبارها أحداثاً وأشياء .» (٧٠)

وفى كتاب «أركيولوجيا المعرفة» يحدد فوكوه ما يقصده بالأرشيف بأنه «النسق الذى يحكم ظهور المنطوقات باعتبارها أحداثاً مفردة » (٧١) أو «هو النسق العام لتكوين المنطوقات وما يطرأ عليها من تحول»(٧٢) . وأخيراً فإن الأرشيف « هو مايميز المقال فى صور وجوده المتعدد وما يحدده فى ديمومته الخاصة » (٧٣) .

أما الاصطلاح الثانى فهو «القبلى التاريخى» l' A priori historique يقول فوكوه : «أن ما أقصده بقبلى a priori هنا ليس شرطاً لصحة ومشروعية الأحكام بل هو شرط لواقعية المنطوقات ... أى شرط ظهورها وقانون تواجدها معاً coexistence ، والصورة الخاصة لأنماط وجودها ومبادىء استمرارها وتحولها أو زوالها »(٧٤) . كما يقرر فوكوه بأنه قد استخدم هذا الاصطلاح كى يشير به إلى المنطوقات فى انتشارها وتتابعها ، وأيضاً ليبين أن المقال ، بالاضافة إلى مايمكن أن ينسب له من حقيقة أو معنى ،

---

(٦٩) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، مكتبة مصر سنة ١٩٧٦ ، ص ١٣٢ .
(٧٠) المرجع السابق ، نفس الصفحة .
(٧١) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٧٠ .
(٧٢) نفس المرجع ، ص ١٧١ .
(٧٣) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٧٤) نفس المرجع ، ص ١٦٧ .

فإن له تاريخاً من نوع خاص، لاصلة له بقوانين الصيرورة الغريبة عنه(٧٥). وعلى سبيل المثال يرى فوكوه أن تاريخ النحو لا يمكن أن يكون انعكاساً للتاريخ الذى أحدث تحولا فى الميكانيكا والطب . ومع ذلك فمن الممكن أن يكون تاريخ المقال على علاقة بأنماط التاريخ الأخرى (٧٦).

والقبلى التاريخى يتميز بأنه تجريبى بحت purement empirique ، وهو بمثابة الصورة الوضعية للمقال . ووضعية المقال هى التى تظهر وحدة الكتب والنصوص فى حقبة زمنية معينة . فهذه الوحدة إنما تبين أن Buffon و Linné من علماء التاريخ الطبيعى ، Turgot و Quesnay فى الاقتصاد السياسى ، و Broussais و Bichat فى الطب ، وكلهم ينتسبون إلى القرن الثامن عشر ، نقول أن هذه الوحدة إنما تبين أن هؤلاء جميعاً إنما يقولون نفس الشيء Ils disent la même chose . فالمؤلفات التى تنتمى إلى نفس التكوين المقالى إنما تنتسب إلى العديد من المؤلفين الذين يعرفون بعضهم بعضاً أو يجهلون بعضهم البعض . وهم قد يختلفون وقد يتفقون ، غير أنهم يلتقون على غير علم منهم . وقد تتشابك كتاباتهم فى نسيج قلما وعوه أو أدركوا أبعاده ...إنهم يلتقون على أرض واحدة هى الصورة الوضعية لمقالهم . وهذه الصورة الوضعية أو (شروط ممارسة الوظيفة المنطوقية) هى التى تخلق مجالا يظهر فيه التماثل الصورى des identités formelles ، والصفة

---

(٧٥) ربما كان هذا ما قصده فوكوه فى العبارة الملغزة التى اختتم بها كتاب «أركيولوجيا المعرفة» والتى يوجه فيها الحديث الى أولئك الذين يتوجسون خيفة من قوة المقال مع خيبة الذات . يقول لهم : «إن المقال ليس هو الحياة ، وزمانه ليس زمانكم ...» وواضح هنا أنه يفرق بين زمان المقال وزمان البشر الخاضعين لقوانين الصيرورة . وسيكون لنا عودة لهذه العبارة فيما بعد .

(٧٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٦٨ .

الاستمرارية للأفكار العامة des continuités thématiques ، وتحول التصورات des translations de concepts. وعلى هذا ، فإن هذه الصورة الوضعية هي ما يسميه فوكوه القبلي التاريخي (٧٧).

ويتضح مما تقدم أن القبلي التاريخي هو الذي يمسك بحركة المقال ، وهو بالتالي يمكنه أن يفسر ظهور القبليات الصورية des a priori formels. وهذه الأخيرة تستند إلى تاريخ من نوع معين هو عبارة عن تصور ساكن وفارغ immobile et vide لا يستند إلى واقع ، في حين أن القبلي التاريخي يستند إلى تاريخ هو «جسد للصيرورة» (٧٨).

«إن القبلي التاريخي والقبلي الصوري ليسا على نفس المستوى وليس لهما نفس الطبيعة ، وكلاهما يتخذ بعداً يختلف عن الآخر»(٧٩) .

وفي ختام هذا الفصل ، نلاحظ أنه يهدف بالدرجة الأولى إلى التعرض للمصطلحات الجديدة ، أو بالأحرى تلك التي استخدمت استخداماً جديداً في المنهج الأركيولوجي وعلى رأسها «المنطوق» . كما نلاحظ أن «المنطوق» رغم كل ما جاء عنه في «أركيولوجيا المعرفة» ، ورغم أنه «القاعدة الأولى أو الجزيء الأخير للمقال» ، فإنه يظل متمرداً على التعريف والتحديد ، بل ظل متصفاً بالغموض لكونه مرئياً ومختبئاً في نفس الوقت non visible, non caché. ولا غرابة في ذلك على الاطلاق . فقد كان الفيلسوف الألماني

---

(٧٧) نفس المرجع ، ص ١٦٧ .

(٧٨) (78) GUEDEZ Annie : "Foucault" (Psychothèque, Ed. Universitaries, 1972) , P. 41.

(٧٩) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٦٩ .

مارتن هيدجر مغرماً هو الآخر برد جميع التصورات إلى تصور أول يصعب التعبير عنه (٨٠) . فالكينونة être ليست هي الوجود المشخص Etant . ومع ذلك ، فإن هذا الأخير يرد اليها (٨١). هي إذن «وجود وعدم» (٨٢) ،أوأن «فيها يكمن مبدأىالوجود العدم» (٨٣). إنها «كشف وطمس فى نفس الوقت» (٨٤) A la fois révélation et obnubilation .

ولا ينبغى مع ذلك أن يتهم فوكوه بأنه «استلهم الغموض من فلسفة دخيلة»(٨٥) . ويخرج بذلك على خصائص الفلسفة الفرنسية التى «هى نفسها خصائص فلسفة ديكارت »(٨٦). فالغموض أو التعقيد قد أصبحا من الصفات المألوفةفى الفلسفة المعاصرة بوجه عام (٨٧) .ولعل السببفى ذلك هو الواقع المعاصر نفسه ، فهو الذى استلزم إعادة النظر فى كل المفاهيم البسيطة لأنها ربما اتصفت بالضحالة .

وإذا أعدنا التساؤل عن صعوبة هذه «الأدوات الابستمولوجية الجديدة»

---

(٨٠) (80) DUFRENNE Mikel : "La philosophie du néo-positivisme", in (Esprit, Mai 1967), P. 785.

(٨١) (81) Ibid., P. 786.

(٨٢) (82) LACROIX Jean : "Heidegger, le plus grand philosophe de notre temps", in (Le Monde hebdo.No 1440, du 27 Mai, 1976).

(٨٣) (83) DUFRENNE Mikel : Op. Cit ., P. 787.

(٨٤) (84) Ibid.

(85) Ibid., P. 784.

(٨٦) كان الفيلسوف هنرى برجسون يعتقد بأن خصائص الفلسفة الفرنسية هى نفسها خصائص فلسفة ديكارت ، كما اعتقد أن أهم هذه الخصائص هى الوضوح والتميز .
ROBINET André : "La Philosophie Française", (P.U.F., 1966), P. 57.

(٨٧) الدكتور زكريا ابراهيم : «دراسات فى الفلسفة المعاصرة» ، مكتبة مصر سنة ١٩٦٨ ، ص ص ١٥ — ١٦ .

وعما تمخضت عنه من «جهاز ثقيل ومحير » Tout un appareil (٨٨) lourd et embarrassant ، عندئذ يجيب فوكوه بأنه لجأ إلى كل هذا بعد أن شك فى الوحدات المعرفية المطروقة (فى الكتب، وفى الأعمال الثقافية oeuvres ، وفى العلوم المختلفة) ، وخصوصا فيما ينسب اليها من استقلال أو ترابط (٨٩) يقول : «إننى لا أرى فى أى منها نصاً كبيراً متصلا Un grand texte ininterrompu يعبر الزمان من خلال أعمال فردية ، بل أرى صيغاً تختلف مستوياتها وتتغاير وظائفها ... كما أرى تصورات Concepts مختلفة فى التكوين والاستخدام ولا تجمعها أى رابطة كما لا يمكن أن تندرج تحت أى نسق منطقى ... ولهذا كله رأيت أن أنكب على وصف صور التبعثر هذه ces dispersions بهدف البحث عن أى انتظام أو اطراد ممكن : فى تتابع ظهورها ، أو فى تلازم وجودها فى الزمان ، أو تواجدها فى مجال مكانى مشترك espace commun ، أو ما يطرأ عليها من تحولات مترابطة يعتمد بعضها على البعض الآخر . وباختصار ... سأبحث عن انساق التبعثر systèmes de dispersion بدلا من أن أكون تسلسلا استنباطياً des chaines d'inférence كما يفعل عادة مؤرخو العلوم » (٩٠) .

وقبل أن نعرض تطبيقاً عملياً لهذا المنهج (٩١)، فاننا سنشرع فى استكمال أهم دقائقه فى الفصل القادم عن «الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار ».

(٨٨) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٧٧ .
(٨٩) نفس المرجع ، نفس الصفحة .
(٩٠) نفس المرجع ، ص ص ٤٢ ، ٤٣ .
(٩١) سيكون الباب الثانى (ويشمل الفصل الثالث والرابع والخامس) بمثابة عرض تطبيق المنهج .

الفصل الثانى

الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار

١ ــ معنى «الأركيولوجيا» .

٢ ــ مشكلة الذات .

٣ ــ زيف الاستمرار التاريخى .

٤ ــ الاختلاف بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار .

٥ ــ شجرة اشتقاق المنطوقات .

٦ ــ الرؤية الأركيولوجية للمتناقضات .

٧ ــ الأركيولوجيا هى تحليل مقارن .

٨ ــ موقف الأركيولوجيا من التغير .

٩ ــ مجال البحث الأركيولوجى .

الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار

يشترك هذا الفصل مع "سابقه" في توضيح الأبعاد المختلفة للمنهج عند ميشيل فوكوه. والفصل يبدأ أولا بالتوقف قليلا عند استخدام كلمة أركيولوجيا وبين ما استهدفه فوكوه من وراء هذا الاستخدام، ثم يلخص أوجه الإختلاف بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار . وأخيراً فإنه يعرض للمنهج الأركيولوجي باعتباره تحليلاً مقارناً .

معنى الأركيولوجيا :

لقد كان لكلمة «أركيولوجيا» أهمية خاصة في ثبت المصطلحات الكثيرة التي استحدثها ميشيل فوكوه . فهو يستخدمها للدلالة على منهجه ، ويجعل منها قاسماً مشتركاً لتسمية مؤلفاته الفلسفية ، إذ نجد عنده «أركيولوجيا النظرة الطبية» ، و«أركيولوجيا العلوم الإنسانية» ، و«أركيولوجيا المعرفة»(١).

«إن كلمة أركيولوجيا (= علم الآثار) مشتقة من اللفظ اليوناني «أركيه» archè أو «أرخايوس» arkhaios الذى يعني «قديم» . ونحن نعرف أن دراسة الآثار القديمة تستلزم القيام بحفريات ، من أجل استخراج آثار الماضي من طوايا الأرض ، والعمل على إعادة تركيب تاريخ الحضارات القديمة . ولكن فوكوه لا يستخدم هذا الاصطلاح بهذا المعنى المعروف»(٢).

فمثلا إذا كان استخدام لفظ «أركيولوجيا» يذكر بفكرة الحفريات fouille وقد يوحي بافتراض وجود وقائع وأسرار مختبئة ، على الفلسفة أن تكشف

---

(١) الأول هو التسمية الثانية لكتاب «مولد العيادة» ، والثاني هو كتاب «الكلمات والأشياء» .
(٢) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢٣ .

عنها ، فإن هدف فوكوه إنما يبتعد عن ذلك تماماً لأنه يرفض التأويل interprétation من جهة (٣) ، ومن جهة أخرى لأن المختبىء عنده مرئى وغير مرئى فى نفس الوقت invisible visible كما سبق أن قدمنا (٤) . إنه بالأحرى يعيد الظهور إلى الأشياء التى اختبأت من فرط تواجدها على السطح »(٥) ومنها على سبيل المثال تلك الممارسات المقالية التى انبثقت عنها العلوم الإنسانية (٦).

وقد شعر فوكوه بصعوبة استخدام كلمة «أركيولوجيا» ، خصوصاً وأنها تتضمن أيضاً فكرة الأصول الأولى Origines premières . وهو لايزعم أنه استهدف الارتداد إلى «لحظة أولى مهيبة» هى نقطة البدء لأول معرفة ممكنة (٧) ، لأن هذا قد يدخل ضمن مباحث الميتافيزيقا التى يرفضها تماماً . لقد كان الهدف الحقيقى لفوكوه هو أن يكشف عن ظهور «بدايات نسبية » Commencements relatifs ؛ وهو فى ذلك « يحتاج إلى التاريخ لكى يبدد خرافة الأصل »(٨). والتاريخ الذى يحتاج اليه فوكوه ليس فكرة مجردة ،بل هو «يتميز بما له من كثافة ، وما به من قصور ، وما قد يطرأ عليه من تقلبات أو لحظات توقف Syncopes. والتاريخ بهذا

---

(٣) راجع الفصل الأول ، ص ٤ .

(٤) ص ٢٣ .

(٥) M. FOUCAULT : „Entretien avec J. —J. Brochier", (Magazine Littéraire, No. 28, Avril-Mai 1969).
ذكرته : GUEDEZ Annie, Op., Cit., P. 42.

(٦) راجع ظهور العلوم الانسانية فى الفصل السابع .

(٧) Magazine Littéraire, Op. Cit.

(٨) GUEDEZ Annie, Op. Cit., P. 41.

(٨) ونلاحظ أن كلمة نسبية هنا تعنى نسبة هذه البدايات الى البناء الثقافى بأكمله وما به من عناصر .

المعنى هو «جسد للصيرورة»، وربما بحثنا له عن روح لو كنا ميتافيزيقيين» (٩).

وإذا كانت أركيولوجيا فوكوه لا تبحث عن أسرار مختبئة ، وإذا لم تكن تهدف إلى البحث عن أصول أولى، فإن لنا أن نتساءل الآن عما يتبقى لها من نقط للالتقاء بعلم الآثار .

إن القارىء لكتابات فوكوه قد يلاحظ أن اصطلاحاته المنهجية تخلو تماماً من لفظى «فكرة» و «أفكار» لأنه يستبدلهما «بالمنطوق» و «المنطوقات» . ولعله يلاحظ أيضاً أن تعلقه بكلمة «أركيولوجيا» يمكن أن يدخل كذلك فى نطاق تمسكه بالجانب المادى للمقال ، تماماً كما يتمسك عالم الآثار بكل عنصر ملموس تسفر عنه عمليات التنقيب والحفر .

وربما كانت نقطة الالتقاء الأساسية بين فوكوه وبين عالم الآثار هو أن كليهما ينظر إلى الواقعة الملاحظة على أنها عنصر فى سياق ، وكلاهما لا يعترف بدور للذوات sujets إلا باعتبارها جزءاً من السياق أو عنصراً ضمن بقية العناصر .

ويترتب على هذه النقطة أن فوكوه لا يتناول المقال باعتباره وثيقة document ، أو كرمز لشىء آخر signe d'autre chose ، أو كعنصر يتصف بالشفافية ، بل باعتباره أثراً à titre de monument (١٠).

ونلاحظ بهذا الصدد أن المقال كوثيقة يكون قابلا للتفسير ، وهذا الفن يتلخص فى تجاوز النص ذاته texte إلى نص آخر يرد إلى الأول غير أنه لا

---

(٩) (9) Magazine Littéraire, Op. Cit.

(١٠) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٨٢ .

يحتفظ بنفس الشكل أو المضمون لأنه يكون معنى مختبئاً يتعدى مستوى المقول ce qui est dit ويستخرج مالم يقال le non-dit (١١) .

وواضح أن فوكوه يستهدف شيئاً آخر مختلف تماماً عندما ينظر إلى النص نظرة عالم الآثار إلى الأثر . إنه يستهدف فقط وصف المقول. وهذا الوصف يستبعد النظر إلى النص على أنه مجرد انعكاس رمزى لأحداث أو لعمليات تتمركز بعيداً عنه »(١٢).أى يستبعد دور الذوات .

يقول فوكوه : «إن لفظ «أركيولوجيا» لا يشير إلى البحث عن نقطة بدء كما أنه لا يقترب بالتحليل نحو أى تنقيب أو تجريب جيولوجى ، إنه يشير إلى اتجاه عام فى الوصف ، ينصب على «كل ما قيل» ، ابتداء من المستوى الذى يوجد عليه : أعنى الوظيفة المنطوقية التى تمارس فيه ، والتكوين المقالى الذى ينتمى اليه ، والنسق العام للأرشيف الذى صدر عنه » (١٣)

وتلاحظ الباحثة آنجيل ماريتى MARIETTI أن دور أركيولوجيا المعرفة إنما يقتصر على فحص الممكنات LES POSSIBLES التى جعلت الواقع واقعاً ، أى الأنساق التى تيسر إمكانية حدوث الصور النسقية الأخيرة. ولكى يتحقق ذلك ، ظهرت مقولة جديدة catégorie nouvelle أو مفهوم جديد،يتحكم فى نمط جديد من المعرفة ، لا يهتم بالأعماق اللاشعورية ، ولابدعومة تتجاوز المجال المكانى ، ولا بالشىء فى ذاته ، ولا بفكرة مقال

---

(11) DELEUZE Gilles : "Un nouvel Archiviste", in (Critique, (١١) Mars 1970), P. 204.

(١٢) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢١٥.

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٧٣ .

مثالى ، بل يهتم فقط بالنص le texte (١٤) . كما ترى آجيل أن عمل الأركيولوجيا إنما يرتكز على شبكة عامة ومتكاملة من جميع العلاقات ، وهى العلاقات الجارى اكتشافها بفضل العمل الدائب لمجموع المناهج التى تجتمع تحت اسم «البنائية» . فهى تحلل التركيبات الاجتماعيـة ، وتدرس الصفـات المعرفية ونظرية تاريخ العلوم (١٥) .

والأركيولوجيا لا تهتم بالعلم بقدر اهتمامها بالمعرفة فى علاقاتها بالعلوم . ذلك لأن فوكوه قد تسنى له «اكتشاف دور التكوينات المقالية من بين ثنايا المقال العلمى » (١٦) ، وهو فى هذا إنما يخرج من حسابه تماماً أى دور للذوات فى مجال المعرفة أو العلوم . وهنا نصل إلى نقطة الخلاف الأساسية بين الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار ، والتى تنحصر فى «مشكلة الذات» .

مشكلة الذات :

كان ميشيل فوكوه يهتم دائماً «بالكشف عن زيف المسلمة الأنثروبولوجية التى يرتكز عليها تاريخ الأفكار ، لكى يلتمس لعملية تحديد «الوقائع المقالية» منهجاً جديداً لا يستند إلى أى موضوع أنثروبولوجى »(١٧).

والحقيقة أن الكشف عن زيف «المسلمة الأنثروبولوجية » أو «الموضـوع

---

(١٤) (14) KREMER-MARIETTI, Op. Cit., P. 41.

(١٥) Ibid., P. 43. ، أنظر الفرق بين العلم والمعرفة ، ص ٢٠٩ بالرسالة .

(١٦) «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥٥ .

اكتشف فوكوه من بين ثنايا علوم الطب والطب النفسى مثلا ظهور تكوينات مقالية جديدة فى السنوات الأخيرة من القرن ١٨ وبدايات القرن ١٩ . وكان اهتمامه يتركز دائماً فى الكشف عن ظهور بناء معرفى جديد Epistémé كما سيتضح فى الفصل الرابع والخامس .

(١٧) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦٥ .

الأنثروبولوجي» أو «الذات» Sujet ، لم يكن بمثابة اتجاه جديد يضطلع به فوكوه ، بل هو اتجاه عام لدى جميع البنائيين . فهم يتفقون على استبعاد الذات أو انكار أي دور مؤسس لها في مجال المعرفة . فمثلا كان عميد البنائيين الفرنسيين — ليفي ستروس — يستبعد الذات بزعم أنها : ذلك الطفل المدلل ، الذي شغل المسرح الفلسفي مدة طويلة . ووقف بذلك حجر عثرة في وجه كل عمل جاد نتيجة لرغبته المستمرة في الاستئثار وحده بكل انتباه (١٨).
كما كان ليفي ستروس — في دراساته الأنثربولوجية — لا يعترف بإرادة بشرية تخلق الأساطير . وذلك يدعوى أن هذه الأساطير تتكون «داخل النفس الإنسانية . وفي غفلة منها » (١٩) .

وإذا سمح لنا بالارتداد إلى أبعد من ذلك ، فاننا نجد هذه النزعة «اللاانسانية» عند الفيلسوف نيتشه . يقول نيتشة : «إن قوة الاقناع التي تتصف بها مسلمات المنطق والميتافيزيقا وأيضاً الاعتقادبفكرةالجوهر والعرض والمحمول وما إلى ذلك ، إنما ترجع كلها وترد إلى ما تعودناه من اعتبار كل نشاطاتنا كنتيجة لإرادتنا ... رغم أن إرادتنا هذه لا وجود لها » (٢٠) .

غير أن الباحثة آنجيل ماريتي قد لاحظت أن كتاب « أركيولوجيا المعرفة» يذهب في هدمه الكوجيتو إلى حدود أبعد مما نجده عند نيتشة ، وقد كان تحليل نيتشة للفظ «كوجيتو» على النحو التالي :

---

(١٨) نفس المرجع السابق ، ص ٥ .
(١٩) LEVI-STRAUSS : "Le cru et le Cuit" . (Plon, 1964) P. 20.
(٢٠) ورد هذا النص في المجلد السادس عشر من مؤلفات نيتشه ، ذكرته آنجيل ماريتي في كتابها سالف الذكر ، ص ٣٩ .

« يوجد بهذا الكوجيتو الشهير :

أ — شئ ما يفكر   Quelque chose pense

ب — أعتقد أن هذا الشيء هو أنا Je crois que c'est moi qui pense

جـ — إذا سلمنا بأن القضية (ب) غير يقينية ، خصوصاً وأن «أعتقد» هنا تعني «الظن» (لأنها تتضمن تقريراً ذاتياً لا موضوعية له) ، فإن القضية (أ) «شيء ما يفكر» إنما تحتوى كذلك على « ظن» . ذلك لأن « يفكر» اعتبرت كنشاط يحتم تصور «ذات» أيا كانت ، وحتى لو كانت «شيئاً ما» .

لذا فالقضية «أنا موجود ergo sum لا تعني أ كثر من ذلك» (٢١)أى أكثر من كون الأنا هى مجرد «شيء ما» . وهنا نلاحظ أن «الأنا المفكرة» وإن كانت تفتقر إلى التحديد في نظر نيتشة ، إلا أننا نجد الفكر عند فوكوه يتعرى تماماً من أى كوجيتو : فالأنا المتغلغلة في رواسب اللغة والثقافة ليست «أنا» . ذلك لأن «اللغة تكونت منذ آلاف السنين بدون الذات » (٢٢) ، وهي تعبر الذات من ورائها وتتخطاها في نفس الوقت . فالمعنى يرقد بداخل الكلمات ، والذات تجهل نسق اللغة رغم أنها مضطرة لأن تصب «كلامها» «وفكرها» في قوالبه ، حتى لقد أصبحت «الأنا» هى مجموع من قطاعات متراكمة يمكنني أن أظهر بريقها للحظات أو أعيد لبعضها الحياة لبعض الوقت وسط عدد لا ينتهى من احتمالات الظهور للعديد منها . » (٢٣).

---

(٢١) ورد هذا النص في المجلد الرابع عشر من مؤلفات نيتشه ، وهو المسمى «بإرادة القوة» ، ذكرته آنجيل ماريتي في كتابها سالف الذكر ، نفس الصفحة .

(٢٢) يقصد بدون الذات العاقلة .

(٢٣) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٣٤ .

ومما تقدم يتضح أن الذات التي تتحدث «le sujet parlant» لم تعد سوى ذات ظاهرية une apparence de sujet فقط ، خصوصاً إذا حللنا ماتشتمل عليه من مقال تحليلا اجتماعياً وتاريخياً .

«زيف» الاستمرار التاريخي :

غير أن محور الخلاف بين الأركيولوجيا وعلم تاريخ الأفكار لم يكن يرتكز فقط على «زيف» المسلمة الأنثروبولوجية ، بل إنه لينسحب كذلك تلقائياً على «زيف» الاستمرار التاريخي la continuité historique أوالنظر إلى التاريخ على اعتبار أنه ضمير حي conscience historique et historisante. نقول أنه ينسحب تلقائياً لأن أصحاب المسلمة الأنثروبولوجية إنما يسلمون كذلك بأن «مالدى الذات من «هوية» (identité) «شاهد على ما في حياتنا من استمرار » (٢٤).

وقد بدأ اهتمام الفكر الحديث بالتاريخ على أنه مسار متصل يرتبط بالذات بظهور كتاب «فلسفة التاريخ» للفيلسوف هيجل . إذ رأى هيجل «أن من يتأمل في سير التاريخ وتقدمه يجده خاضعاً لعقل عام ، فما تاريخ العالم إلا عملية عقلية ، وروح العالم هي القوة الرائدة لتقدمه » (٢٥).

أما الفكر المعاصر قبل فوكوه ، فانه ينقسم بين مؤيد ومعارض للاستمرار التاريخي : وقد كان الفيلسوف الفرنسي برجسون على رأس قائمة المؤيدين .

---

(٢٤) الدكتور زكريا ابراهيم : «بين الاتصال والانفصال » ، مقال بمجلة العربي الكويتية ، عدد يوليو سنة ١٩٧٦ .

(٢٥) الدكتور زكي نجيب محمود ، أحمد أمين : «قصة الفلسفة الحديثة » ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥٦) (ط٥ ص ٣٧٦ .

فالديمومة عنده هي كثرة كيفية لا تقبل القسمة ، ولا تكف عن التدفق والسيلان . والتاريخ الانساني لا يعيد نفسه مطلقاً (٢٦) . كما كان الفيلسوف الألماني نيتشه من أول المعارضين للاستمرارية التاريخية . فالوجود عنده ليس صيرورة مستمرة لا نهائية . إذ كل شيء في الوجود يتكرر بلا انقطاع ، وهذا التكرار يتناول كل شيء ، ولا يفلت منه حدث من الأحداث الكبرى أو الصغرى (٢٧).

ثم كان انتصار باشلار لمبدأ «الانفصال» أو «عدم الاستمرار التاريخي» ، وكان ذلك بسبب استناده إلى واقع الحضارة البشرية وأيضاً لا ستشهاده بإنجازات العلم . يقول باشلار : «إن كل تاريخ الحضارة البشرية شاهد على كذب كل ادعاءات القائلين بالاستمرارية الزمنية (٢٨). «فالكشوف العلمية الكبرى قد اتخذت طابع «الثورات» التي جاءت لتهدم ، وتقوض ، وتحطم ! وآية ذلك — فيما يقول باشلار — أن العلوم الميكانيكية الحديثة — بما فيها الميكانيكا النسبية ، والميكانيكا التموجية ، والميكانيكا الكمية (الكوانتيه) — قد أبرزت حقيقة الثورة الابستمولوجية التي أحدثها العلم المعاصر في مضمار التفكير البشري. والواقع أننا هنا بإزاء «علم جديد» لسنا نعرف له أي أسلاف (٢٩)!

---

(٢٦) الدكتور زكريا ابراهيم : «برجسون» ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨ ؛ ص ص ٦٥ — ٦٨ .

(٢٧) علي أدهم : «نيتشه وموقفه الرافض من التاريخ» ، مقال بمجلة العربي الكويتية — ديسمبر سنة ١٩٧٥ .

راجع أيضا : MARIETTI, Op. Cit., P. 101.

(٢٨) الدكتور زكريا ابراهيم : «بين الاتصال والانفصال» ، مقال بمجلة العربي الكويتية يوليو سنة ١٩٧٦ .

(٢٩) نفس المرجع ، ونلاحظ أن باشلار هنا يتفق مع فوكو في عدم الاعتراف بالعلوم كوحدات معرفية .

وليس من شك في أن أحفاد أحفادنا لن يبدوا كبير اهتمام بعلوم أجداد أجدادنا ، فلا ضير علينا إذا قلنا — منذ الآن — أن «القنبلة الذرية» قد سحقت — فيما سحقت — قطاعاً كبيراً من تاريخ العلم البشري : إذ لم يعد ذهن عالم الفيزياء المعاصرة « الفيزياء النووية » يحمل أي أثر من آثار تلك الأفكار الأساسية التي كان يؤمن بها دعاة النزعة الذرية التقليدية ! ومعنى هذا أن التقدم الذي أحرزته الفيزياء الكمية قد جاء مؤكداً لحقيقة «الانفصال» القائم في تاريخ العلم . وليس أدل على صحة المبدأ القائل بانعدام الاستمرار من أن اكتشافات العلم واختراعاته لم تتحقق يوماً على طول خط متصل مستمر ، وكأنما هي مجموعة من الوقائع المتسلسلة المنتظمة ، بل هي قد اتخذت دائماً طابع الانفجارات المتقطعة التي كانت تجيء في كل مرة لكي تغير من اتجاه العلم ، أو لكي تثير مشكلات ابستمولوجية جديدة وكأن كل «تقدم علمي» قد جاء بمثابة تصحيح لخطأ علمي سابق ! ... بيد أن باشلار لم يكن هو الفيلسوف الوحيد — في الفكر المعاصر — الذي انتصر لمبدأ «الانفصال» ضد مبدأ «الاتصال» ، بل لقد جاء فلاسفة «البنيوية» أيضاً ، وعلى رأسهم كلود ليفي شتراوس ، فراحوا يهاجمون النزعة الاستمرارية في تصور الزمان ثائرين في الوقت ذاته على شتى مذاهب «الاستمرارية التاريخية» (٣٠).

ومما تقدم ، فاننا نجد أن «مبدأ الانفصال» باعتبار ما له من قيمة ابستمولوجية خاصة ، لم يكن اتجاهاً فكرياً جديداً بدأه فوكوه ، بل هو في الحقيقة من المبادىء الثابتة لدى معاصريه من البنائيين وأيضاً لدى أستاذه بشلار .

---

(٣٠) نفس المرجع .

وإذا كان صاحب «أركيولوجيا المعرفة» يتفق مع زملائه البنائيين في رفض أي تدخل للذوات بدعوى أنها صانعة ذلك الوهم المسمى «بالاستمرار التاريخي» ، فانه في ذلك يختلف مع أستاذه . فالنشاط العلمي عند باشلار مرهون بارادة العلماء (٣١).

ومهما يكن من شيء ، فإنه لينبغي الاعتراف بأن ميشيل فوكوه كان أول من فكر في صياغة هذا التحول الابستمولوجي بما يشمله من قطع Coupure وما يشير اليه من عدم اتصال discontinuité بالاضافة إلى أنه أول من استنتج منه نتائج عامة ، واستخلص منه كل متضمناته ، وسنعود لمسألة التحول الابستمولوجي بالتفصيل فيما بعد تحت عنوان «موقف الأركيولوجيا من التغير» (٣٢) .

غير أن التساؤل الذي يتبادر إلى الذهن الآن هو : ما الذي يمكن أن تقدمه هذه «الأركيولوجيا» بحيث يتعذر الحصول عليه من مناهج أخرى ؟

الحق نقول أنه من الصعب الاجابة على هذا التساؤل في فصل عن المنهج . ذلك لأن ما قدمته هذه الأركيولوجيا إنما يدخل في نطاق ما لها من تطبيق وما تتضمنة من نتائج ،وهوما وعدنا بطرحه في الباب الثاني من الرسالة. وحسبنا الآن أن نقرر مع فوكوه بأن الوصف الأركيولوجي هومحاولة لعمل تاريخ من نوع جديد هو تاريخ لكل ماقاله البشر (٣٣) . ولكي تتضح هذه

---

(٣١) (31)LECOURT Dominique :"Pour une critique de l'épistémologie", (Maspero, Paris, 1974) PP. 105 — 106.

(٣٢) ص ٩٨ .

(٣٣) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٨١ .

المحاولة ، وأيضاً لكي يتضح ما للمنهج الأركيولوجي من تميز وتفرد ، ينبغي أن نعقد مقارنة بينه وبين مايذهب إليه «تاريخ الأفكار» .

الاختلاف بين الأركيولوجيا وتاريخ الأفكار :

يرى فوكوه أن علم تاريخ الأفكار هو تحليل للآراء أكثر من كونه تحليلاً للمعرفة . وهو ينشغل بتحليل الأخطاء أكثر من اهتمامه بالبحث عن الحقيقة ولاحظ فوكوه أن هذا العلم ، وهو يبحث عن النشأة أو الأصل la genese إنما يبدأ بالتمثلات représentations كنقطة بداية (٣٤) ، وهي التي يتولد عنها الأنساق systèmes أو الانتاج الفكري oeuvre ، ثم لا يلبث هذا الانتاج الفكري أن يندثر . وهنا يكون عمل «تاريخ الأفكار» أن يصف ما يطرأ على فكرة ما thème .فهي إما أن تنحل se dénoue أو تنعزل s'isolel أو تتقادم tombe en désuétude أو تظهر في نمط جديد .وهنا أيضاً يبدو هذا العلم وكأنه يدرس البدايات والنهايات . مع اهتمامه بوصف تلك الاستمرارية التاريخية الغامضة . وإذا كان هذا «التاريخ» يكشف عن انتقال مشكلات وأفكار فلسفية إلى مجال المقال العلمي أو السياسي ، كما يكشف عن العلاقة بين الانتاج الفكري وبين المؤسسات أو العادات أو أنماط السلوك الاجتماعي أو الحاجات besoins ،فهو في كل هذا لا يزيد عن كونه وصفاً لكل ما يحيط بالانتاج الثقافي ، ولما يرتد به إلى مجالات أخرى غريبة عنه .

وإذاأردنا أن نوجز مايقوم به «علم تاريخ الأفكار» في صورته العامة ، فاننا نقول : إنه وصف للانتقال من اللافلسفة إلى الفلسفة ، ومن اللاعلم إلى العلم ، ومن اللا أدب إلى الانتاج الأدبي ذاته (٣٥) . إنه تحليل

---

(٣٤) هنا نلاحظ أن البحث عن الأصل يرتبط بالذات suietjnet.

(٣٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٨١ . ولعل فوكوه يقصد هنا نشأة التفكير الفلسفي أو الانتقال الى المرحلة العلمية أو ظهور الأدب .

للميلاد الصامت (أو اللامعين) des naissances sourdes ، وللالتقاء البعيد des correspondances lointaines ، وللثبات الصامد تحت صخب المتغيرات ، كما أنه تحليل للتكونات البطيئة التي تساندها آلاف العوامل الغامضة، ولتلك الاتجاهات العامة التي تترابط تدريجياً ثم تظهر فجأة على قمة الانتاج الفكرى .

وإذا كان علم تاريخ الأفكار يرتكز أساساً على المسلمة الانثروبولوجية فإن ثالوث الأصل genèse والاستمرار continuité والتجميع (أو الشمول) totalisation هو الذى جعله على اتصال دائم بتلك الصورة التقليدية للتحليل التاريخى (٣٦).

ونلاحظ بخصوص وحدات هذا الثالوث أنها تترابط جميعاً وتلتف حول «الذات » . وآية ذلك أن كل قطاعات المعرفة إنما ترد إلى وحدة الذات الفردية أو الجمعية كأصل أو كمصدر لها . كما أن وحدة الأصل تتلازم بالضرورة مع استمرار النمو la continuité du développement ، وأخيراً فإن وحدة الأصل تتلازم بالضرورة كذلك مع تجانس الأجزاء وبالتالى مع إمكانية رد بعضها إلى البعض الآخر وهذا هو معنى التجميع أو الشمول(٣٧).

ويتضح مما تقدم أن علم تاريخ الأفكار هو «تاريخ المتصل » أى هو عبارة عن حد متضايف corrélat مع «الذات » باعتبار ما لها من وظيفة مؤسسة . وهو تاريخ «لا يمكن أن يكون قائماً على علاقات ، بل باعتباره ديناميكية

---

(٣٦) نفس الموضع .

(٣٧) (37) LECOURT Dominique : Op. Cit., P. 103.

داخلية ، وليس نسقاً systeme بل نتيجة كفاح في طلب الحرية (٣٨) ؛ وليس صورة forme بل مجهود متواصل لشعور منعكس على ذاته يحاول أن يمسك بأعماقه الدفينة» (٣٩).

وفي الحقيقة ، فإن الفكرة المثالية عن «الذات» هي التي لعبت دوراً في التصور الذي كونه المؤرخ عن التاريخ. فإذا نظرنا للذات على أنها أساس الفكر وأساس أيضاً لموضوعه ، فإن التاريخ سينظر اليه على أنه متصل . ولذا فإن الاتجاهات البنائية الحديثة قد أعادت النظر في «الكوجيتو» باعتباره وظيفة مؤسسة — كما سبق أن قدمنا — وهي تكشف عن قوى ثقافية واجتماعية يمكنها أن تدعم كوجيتو من نوع جديد ليس فردياً بل جمعي collectif ليس روحياً بل مادي ، ليس منفصلا عن الواقع بل تتغلغل أصوله فيه. وهذه القوى هي التي يحاول كتاب «أركيوجيا المعرفة » أن يطلعنا عليها . ومع ذلك ، فإنه لمن الخطأ أن نظن أن الأركيولوجيا تبحث عن نقطة التقابل بين الجانب الفردي والجانب الاجتماعي ، فهي ليست علم نفس أو علم اجتماع أو انثروبولوجيا (٤٠). أنها تعرف أنماط وقواعد الممارسات المقالية التي تنتقل عبر أعمال فردية بهدف قيادتها أو التحكم فيها . أما «الجهد الفردي الخلاق» باعتباره سبباً لوجود الانتاج الفكري ومبدأ لوحدته ، فهذا ما يبدو غريباً على هذه الأركيولوجيا (٤١) .

الأركيولوجيا إذن لا تهدف إلا إلى تعريف المقال ذاته ، باعتباره ممارسة

---

(٣٨) الاشارة هنا الى جان بول سارتر ونظرته الى التاريخ على أنه سيرورة متصلة تنبع من ديناميكية داخلية .

(٣٩) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣ .

(٤٠) نفس المرجع ، ص ١٨٢ .

(٤١) نفس المرجع ، ص ١٨٣ .

تخضع لقوانين ، أى أنها فى تحليلها للمقال تستهدف فقط الكشف عن قواعده الخاصة به كما تكشف عن أن هذه القواعد لا يمكن أن ترد إلى غيرها(٤٢). وهى فى مواجهة علم تاريخ الأفكار إنما تجد فى الكشف عن زيف مبادئه كما سبق أن قدمنا . وستعرض فى الجزء التالى للصعوبات المنهجية التى تواجه كل من يبحث عن الأصل genèse أو المصدر الأصلى Origine.

صعوبة البحث عن الأصل :

إن الاستناد إلى ماهو سابق précedent فى تقويم الصياغات اللاحقة ليس محكاً مطلقاً يسمح بالحكم على المقال وتمييز الأصيل منه أو المكرر distinguer l'original du répétitif . أما عن التشابه بين الصياغات التى تتتابع (بعضها سابق والبعض الآخر لاحق) ، فإنه يثير عدة مشكلات تجعلنا نتساءل عن المعيار الذى يمكننا من القول بأن فكرة ما سبق أن وردت عند آخرين ، أو القول بأن قضية ما تقترب كثيراً من قضية أخرى .وهذا كله يدفعنا إلى التساؤل عن معنى الهوية l'identité فى المقال .

أن أى صياغتين تتطابقان تماماً . وتستخدمان نفس الكلمات المتضمنة لنفس المعنى ، ليسا بالضرورة متحدتين فى الهوية . فإذا لاحظنا نفس الصياغة لمبدأ التطور عند ديدروه Diderot ولا ماركLamarck وداروين Darwin ، فإنه لمن الخطأ الزعم بأننا أمام حدث مقالى أوحد هو هو ذاته يتكرر خلال الزمن .التطابق فى الهوية إذن ليس محكاً L'identité n'est pas un critere (٤٣).

إن محاولة رد أى انتاج فكرى إلى أصوله إنما تستهدف القول بأن هذا

---

(٤٢) نفس المرجع ، ص ١٨٢ .
(٤٣) نفس المرجع ، ص ١٨٧ .

الانتاج يتفق مع المدارس التقليدية التي سبقته ، أو أنه إنتاج فريد ليس له أصول سابقة عليه. فالقول بأن مناطقة البور رواياك لم يأتوا بأي كشف جديد (٤٤) ، وكذلك القول بأن كوفييه (٤٥) قد ردد أفكار سابقيه ، كل هذا يعتبره فوكوه مجرد أقوال فكاهية للتسلية ، يصرح بها المؤرخون من ذوى السراويل القصيرة (٤٦) d'historiens en culottes courtes أى قليلو الخبرة .

إن أركيولوجيا المعرفة لا تعطى للتقابل (أصالة — عدم أصالة) (Originalité-Banalité) أى أهمية . كما أن نظرتها للجملة التي تكرر ما سبق صياغته منذ مئات السنين ، تخلو من أى تقييم ، وذلك لأنها تهتم فقط باطراد المنطوقات régularité des énoncés. والاطراد هنا يعنى مجموع الشروط التي تمارس في ظلها الوظيفة المنطوقية ، كما تحدد مجالا حقيقياً للظهور Un champs effectif d'apparition . فكل منطوق يحمل نوعاً من الإطراد لا ينفصل عنه . وبهذا الصدد ينفي فوكوه عن الإطراد أى مركز متوسط بين طرفى المنحنى الاحصائى ، أى أنه ليس مؤشراً لأى احتمال أو تكرار ، والاطراد الذي يتحدث عنه فوكوه ليس مقابلا لعدم الاطراد ، بل إن المقابل له هو مجموعات أخرى للاطراد تميز منطوقات

---

(٤٤) Port-Royal هو إسم دير شهير بالقرب من مدينة باريس تأسس سنة ١٢٠٤ . وقد كان في القرن السابع عشر مركز إشعاع ثقافى هام ، وأشهر الكتب التي كانت تدرس في هذا المركز كتاب في المنطق ألفه أنطوان أرنو وبيير نيكول .

(٤٥) كوفييه هو عالم بيولوجى فرنسى (١٧٦٩ — ١٨٣٢) .

(٤٦) فوكوه : « أركيولوجيا المعرفة » ص ١٨٨ .

أخرى (٤٧). ويترتب على ذلك أن الأركيولوجيا لا تنشغل بالاكتشافات كما أنها لا تتفرغ للبحث عن الآراء الشائعة أو ما يردده الرأى العام فى فترة معينة أو مكان محدد . فهى إذا نظرت فيا كتبه أمثال (ديدرو Diderot أو داروين ، فإنها تستهدف التوصل فقط إلى اطراد الممارسة المقالية ، وهى ممارسة تسير على وتيرة واحدة (إذا كانت منبثقة عن نفس الحقبة المنطوقية) (٤٨) سواء عند هؤلاء الذين سموا بالمكتشفين أو أولئك الذين ساروا على نهجهم أو كانوا سابقين عليهم. فمن وجهة النظر المنطوقية du point de vue énonciatif نجد أن الاكتشاف أو الاختراع ليس أقل اطراداً من النص الذى يردده أو يعيد نشره. ويتضح مما تقدم أن التحليل الأركيولوجى لا يسمح بأى اختلاف فى النوع بين منطوقات مبتكرة des énoncés créateurs ومنطوقات مقلدة des énoncés imitatifs . وذلك لأن مجال المنطوقات ليس هو الشاطىء الساكن الذى تتخلله لحظات من الحركة ، بل إن هذا المجال يموج على الأخرى بنشاط مستمر .

ويلاحظ فوكوه أن مجموعات المنطوقات يمكن أن تخضع لصور مختلفة للاطراد ، (٤٩) فأعمال لا نسلو Lancelot وهو أحد أقطاب فلاسفة البورروايال (١٦٦٥-١٦٩٥) لا تقع تحت تأثير نفس الاطراد الذى وقعت تحته أعمال سوسير Saussure ، عالم اللغة السويسرى الشهير (١٨٥٧ — ١٩١٣) . وهذا يعنى أنه على الرغم من وجود مجالات متجانسة للاطراد

---

(٤٧) نفس الموضع .

(٤٨) يقول فوكوه فى موضع لاحق أن الأركيولوجيا انما تخرج حقبا منطوقية من هذه الوحدات الغامضة التى تسمى عصورا ، (أركيولوجيا المعرفة ، ص ١٩٤) .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ١٨٩ .

المنطوق داخل كل تكوين مقالى ، إلا أن هذه المجالات تختلف فيما بينها .

وليس من الضرورى أن يكون الانتقال إلى مجال جديد للاطراد المنطوقى مصاحباً لتغيرات تطرأ على المستويات الأخرى للمقال(٥٠). فمن الممكن أن نجد صياغات مقالية تتطابق من الناحية اللغوية (المفردات والتركيب اللغويين) ، كما تتطابق كذلك من الناحية المنطقية (من ناحية تركيب القضية وأيضاً مكانتها فى النسق الاستنباطى) ، غير أنها تختلف من الناحية المنطوقية . وعلى سبيل المثال ، فإن التحليل المنطوقى يرى ممارسة مقالية جديدة واطراداً منطوقياً جديداً افتتحه مناطقة البورروايال عندما أعادوا دراسة النظرية القديمة (للجملة كمحمول la phrase-attribution والفعل كرابطة le verbe-copule)(٥١)

وعلى العكس ، فإن الأركيولوجيا يمكنها أن تكشف عن اطراد منطوقى معين فى صياغات مقالية تختلف من الناحية اللغوية ; وتختلف أيضاً من حيث انتمائها إلى سياق استدلالى أو نسق استنباطى مختلف . وعلى سبيل المثال يلاحظ فوكوه أن بعض الأبحاث التى شغلت القرن الثامن عشر مثل لغة العمل la théorie du langage d' action والبحث عن نشأة اللغات origine des langues لم تكن بالفعل أبحاثاً جديدة إذا قورنت بالتحليلات «المنطقية» التى قام بها لانسلو Lancelot فى القرن السابع عشر (٥٢) .

---

(٥٠) نفس المرجع ، ص ١٩٠ . (والمستويات الأخرى للمقال هما المستوى اللغوى والمستوى المنطقى) .

(٥١) مثال الجملة كمحمول هو :

Son idée, elle n'est pas difficile à saisir. Voir :

R. WAGNER : "Grammaire du Français classique", (Hachette, 1962).

(٥٢) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩١ .

ويخلص فوكوه مما تقدم إلى أنه لم يعد من الممكن القول بأن اكتشافاً معيناً أو حتى أى صياغة لمبدأ عام يمكنها أن تبدأ تحولا جذرياً فى تاريخ المقال ، كما أنه لم يعد من الممكن البحث عن أصل مطلق Origine absolue أو ثورة كلية ينتظم كل شيء ويتحدد ابتداء منها . فالحقيقة هى أننا بصدد أحداث ذات أنماط ومستويات مختلفة ، ويكتنف كلا منها سياق تاريخى متميز . وإذا ظهر أى تجانس للمنطوقات ، فإن هذا لا يتضمن أن البشر سيفكرون بطريقة موحدة لعشرات من السنين أو لعدة قرون ، كما أنه لا يتضمن ظهور عدد معين من المبادىء ينهار أمامها أى فكر سابق كنتيجة حتمية .

ويتضح مما تقدم أيضاً أن تجانس المنطوقات أو عدم تجانسها قد يصادفه تغيرات أو ثبات فى المسارات اللغوية أو المنطقية دون أن يكون هنالك أى ضرورة فى أن تتوحد المسيرة الثلاثيه أو أن يؤثر أحد أطرافها فى أى طرف آخر . (٥٣).

شجرة اشتقاق المنطوقات : L' arbre de dérivation énonciative

إذا كانت كل المنطوقات تصدر عن اطراد معين ، فإن أيا منها لا يمكن اعتباره خلقاً تمخضت عنه القريحة Création du génie . وقد تبين لنا أنه لا واحد من المنطوقات يمكن اعتباره ظلا لآخر أو ترديداً وتكراراً سلبياً لمنطوق أصيل énoncé initial لأن المجال المنطوقى برمته يتصف باطراد معين من شأنه أن يوفر عنصر الايجابية لكل منطوق فيه ، ومع ذلك فقد

---

(٥٣) نفس الموضع .

أكتشف فوكوه فى داخل الاطراد المنطوق درجات بعضها فوق بعض ، أطلق عليها شجرة الاشتقاق المنطوق. وعند قاعدة هذه الشجرة، نجد المنطوقات التى تنبثق مباشرة عن قواعد التكوين régles de formation، والتى تعبر عن اتساع مداها sa plus vaste étendue . أما فى أعلى الشجرة فاننا نجد المنطوقات التى تنبثق عن نفس الاطراد وتعبر عن التفاصيل الدقيقة (٥٤).

ويرى فوكوه أن الأركيولوجيا يمكنها ابتداء من هذه النظرة — وهى مبدأ من أهم مبادئها الأساسية — أن تكون شجرة لاشتقاق المقال . وهو يضرب لذلك مثلا بمقال «التاريخ الطبيعي» Histoire naturelle ، ويستخرج منه المنطوقات الرائدة les énoncés recteurs ويضعها إلى جانب الجذور . والمنطوقات الرائدة هى المنطوقات التى تخص تعريف البناءات الملاحظة ومجال الأشياء الممكنة Champ d' objets possibles ، وأيضاً المنطوقات التى تحدد طرق الوصف وما يمكن أن يستند اليه من قوانين الادراك les codes perc eptifs ، وكذلك المنطوقات التى تبين الامكانات العامة لتحديد السمات وتفتح بذلك مجالا لتكوين تصورات جديدة concepts . أما أعلى الشجرة ، فإنه يحتوى بتغيرات تطرأ على التصورات مثل التعريف الجديد للجنس . كما يشتمل على مفاهيم جديدة مثل «الثدييات » mammifères ومفهوم التركيب العضوى organisme . وأخيراً تظهر تنظيمات منهجية مثل المبادىء المنظمة للمجموعات ومثل منهج التصنيف méthode de classement ووضع التسميات méthode de nomenclature (٥٥) .

---

(٥٤) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩٢ .
(٥٥) نفس الموضع .

ويلاحظ فوكوه أن هذا الاشتقاق ابتداء من منطوقات رائدة لايمكن أن يقارن بالاستدلال من بديهيات ، أو بالفكرة العامة وقد أنبتت أفكاراً جزئية ؛أو بالنواة الفلسفية وقدانتشرت معانيها تدريجياً فى خبرات وتصورات محددة (٥٦).

ويقول :

«وهكذا يمكننا أن نصف الاشتقاقات الأركيولوجية للتاريخ الطبيعي دون أن نبدأ ببديهيات لا برهان لها مثل «استمرار الطبيعة» la continuité de la nature ودون أن تكون نقطة البدء لدينا هي اكتشافات تورن فور Tournefort قبل لينيه Linné واكتشافات جونستون Jonston قبل تورن فور» . (٥٧)

وهنا يظهر المنهج الأركيولوجى بعيداًعن الأنساق وبعيداًعن التتابع التاريخى.
L' ordre archéologique n'est ni celui des systématicités, ni celui des successions chronologiques. (٥٨)

وإذا سألنا عن العلاقة بين هذه الاتجاهات الثلاثة : (المنهج الأركيولوجى ومنهج الانساق ومنهج التتابع التاريخى) ، فإن فوكوه يجيب على ذلك بأن «المنهج الأركيولوجى ربما لا يكون جد مختلف عن منهج النسق فيما يختص

---

(٥٦) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩٣ .
(٥٧) نفس الموضع .
(٥٨) نفس الموضع .

ببعض التكوينات المقالية ، غير أنه ربما تطابق مع منهج التتابع التاريخي في بعض الحالات .» (٥٩) .

وعلى كل ، «فإنه ينبغي دائماً عدم الخلط بين هذه الاتجاهات الثلاثة . فنعتبر (الاكتشاف الجديد) أو الصياغة الأصيلة هي المبدأ الذي منه يستنتج ويشتق كل شيء ، أو نبحث عن قانون الاطراد المنطوق أو الاختراعات الفردية في أي مبدأ عام ، أو نطلب من الاشتقاق الأركيولوجي أن يعكس التتابع الزمني ، أو نطلب منه أن يقدم خطة استنباطية Un schéma déductif »(٦٠)

الرؤية الأركيولوجية للمتناقضات : Les Contradictions

يرى فوكوه أن علم تاريخ الأفكار يعترف بوجود مستويين للتناقض .
المستوى الأول هو المستوى السطحي الذي يطرأ على الظواهر les apparences.

والمستوى الثاني هو المستوى العميق الذي يكون بمثابة الدفعة التي تحرك المقال .

وعن المستوى الأول يقول فوكوه أن المؤرخ عندما يواجه بقضايا متناقضة أو مفاهيم غير متناسقة ، فإنه يحاول دائماً أن يبحث عن المبدأ الذي يرأب الصدع الظاهر في المقال بهدف تحويله إلى وحدة متناسقة .

إن هذا المبدأ الموحد للمقال هو معول هام في يد الباحث لأنه يحاول أن يتخطى به المتناقضات وأن يتحاشى أي تغيرات ظاهرة من شأنها أن

---

(٥٩) نفس الموضع .
(٦٠) نفس الموضع .

تخل بوحدة النسق . والنسق يتوصل اليه الباحث بالانتقال من الصياغات اللغوية الظاهرة إلى تركيب مثالى architecture idéale هو أقرب إلى العاطفة والخيال منه إلى العقل والاستدلال . ويعمل هذا التركيب على توحيد المتضادات ، ويعتمد فى ذلك على قوة الصور والامتثالات images et représentations. وعلى الجملة ، فإن التحليل عند هؤلاء المؤرخين إنما يستهدف التخلص من التناقض (الظاهرى) (٦١).

أما التناقض على المستوى العميق، فغالباً ما يكون بسبب تناقض المسلمات أو بسبب صراع اقتصادى أو سياسى يسبب بدوره انقساماً فى المجتمع الواحد . وهذا النوع من التناقض غالباً ما ينظر اليه على أنه المبدأ المنظم أو القانون المؤسس أو البناء التحتى infrastructure لكل أشكال التقابل .

إن هذا النوع من التناقض ليس حدثاً عارضاً فى المقال ، بل هو قانون وجوده ومبدأ خضوعه لحركة التاريخ Le principe de son historicité (٦٢).

أما التحليل الأركيولوجى ، فإنه لا ينظر إلى المتناقضات باعتبارها مظاهر apparence يمكن تجاوزها ، أو مبادىء غامضة ينبغى الكشف عنها ، بل إنه يخضعها للوصف شأنها فى ذلك شأن أى موضوع أو شىء ما objet.

فلو نظرنا مثلا إلى مبدأ ثبات أنواع الكائنات le principe fixiste عند لينيه Linné فى القرن الثامن عشر ، وما يقابله فى القرن الثامن عشر أيضاً من نصوص عن التطور évolution عند أمثال بيفون Buffon وديدروه Diderot ، فاننا نجد التحليل الأركيولوجى لا يحاول أن يبين سطحية

---

(٦١) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ١٩٦ .

(٦٢) نفس المرجع ، ص ١٩٧ .

التناقض استناداً إلى أن أصحاب الآراء المتنافرة يميلون إلى قبول نفس المسلمات عن الاستمرار في الطبيعة la continuité de la nature ، وأن الخلاء ممتنع فيها ، وعن امكان خروج الحي من الميت le passage du non-vivant au vivant.
كما أن التحليل الأركيولوجي لا يميل إلى البحث عن جذور عميقة تبرر هذا التناقض ، كأن يشير مثلا إلى صراع أعم وأشمل اشتهر به الفكر في القرن الثامن عشر ، وهو الصراع بين فكرة الخلق المنظم الذى تحقق دفعة واحدة ، وفكرة الطبيعة المائجة التى تحركها قوى غامضة (٦٣) .

إن التحليل الأركيولوجي إنما يحاول أن يتجاوز هذا كله . فهو يبين كيف أن التسليم بثبات أنواع الكائنات أو القول بتطورها ، كلاهما ينبثق عن وصف معين للانواع والأجناس. وهذا الوصف يتخذ موضوعاً له هو التركيب الظاهر للكائنات (وصف أعضاء الكائن وحجمها وعددها والهيئة التى تتواجد عليها في المكان).

ونعود فنقول أن هذا الوصف إما أن ينصب على الكائن العضوى ككل l' ensemble de l' organisme ، أو أنه ينصب على عدد معين من عناصره التى تكون موضع تخير لأهميتها أو لسهولة تصنيفها pour leur commodité taxinomique .

أما في الحالة الأولى فتكثر الأوصاف المتقاربة والتى تقبل عدداً غير محدد لصور جديدة تقترب من الصور الموجودة فعلا ، مما يسمح بالتطور .

وفى الحالة الثانية نجد أننا أمام جدول منتظم لهذه العناصر

---

(٦٣) نفس المرجع ، ص ١٩٩ .

un tableau régulier ، يحتوى على عدد محدد من الخانات cases ، ويكون بمثابةمشروع لبيان أى خلق ممكن programme de toute créationpossible ، لأنه يحتوى على تصنيف ثابت للاجناس والأنواع مما أدى إلى ظهور مبدأ ثبات الأنواع .

ونلاحظ هنا أن التقابل بين فكرتين متعارضتين ترده الأركيولوجيا إلى مجال الأشياء دون أدنى محاولة لتصفيته أو للبحث عن الجذور العميقة له (٦٤) .

والتحليل الأركيولوجى يميز بين نوعين من التناقض : النوع الأول يكون على مستوى القضايا أو الصياغات اللفظية دون أن يمس النظام المنطوق الذى انبثقت عنه le régime énonciatif . وهذا التناقض يسميه فوكوه تناقضاً جوهرياً أو داخليا intrinsèque ومثاله فى القرن الثامن عشر ، التقابل بين الصفة الحيوانية للحفريات la thèse du caractère animal des fossiles وبين نسبة طبيعة الجسم المعدنى اليها leur nature minérale .ورغم أن طرفى التقابل هنا يؤديان إلى نتائج متباعدة ، إلا أنه من الممكن — فيما يقول فوكوه — أن ندلل على أنهما ينتميان إلى نفس التكوين المقالى .إنه تقابل بين أطراف مشتقة أركيولوجيا archéologiquement dérivées (٦٥) .

أما النوع الثانى من التناقض فهو يكون بين أطراف تنتمى إلى تكوينات مقالية مختلفة . ويسميه فوكوه تناقضاً خارجياً extrinsèque . ومثاله مبدأ ثبات أنواع الكائنات عند لينيه ومبدأ التطور عند داروين . والأول

---

(٦٤) نفس المرجع .
(٦٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٠٠ .

ينتمي إلى علم التاريخ الطبيعي ، بينما ينتمي الثاني إلى علم البيولوجيا (٦٦).

الأركيولوجيا هي تحليل مقارن :

إن التحليل الأركيولوجي يقوم بعمل مقارنة بين التكوينات المقالية ، كما أنه يميز بعضها عن بعض . فهو يقرب بين عدة أنماط للمقال في فترة زمنية محددة بهدف استخلاص أهم خصائصها ، ثم يعمل على مقارنتها بأنماط أخرى ظهرت في عصور سابقة أو لاحقة. وقد كان هذا هو موضوع البحث الذي تناوله كتاب «الكلمات والأشياء» . (٦٧)

وإذا كانت الابستمولوجيا تقوم عادة على تحليل البناء الداخلي لنظرية من النظريات structure interne ، فإن التحليل الأركيولوجي هو أوسع من ذلك بكثير لأنه يفتش في العديد من سجلات المعرفة une multiplicité de registres . وهو عندما يتجه نحو نمط محدد من أنماط المقال مثل الطب النفسي أو الطب الإكلينيكي (٦٨) ، فإنه يهدف إلى وصف هذا النمط في علاقته بالمؤسسات والأحداث والممارسات والقرارات السياسية . وفي ارتباطه بشبكة من العوامل الاقتصادية وما يتصل بها من مشكلات السكان والحاجة لليد العاملة والبطالة . أي أنه يصف النمط المقالي في علاقته بممارسات غير مقالية .

ونلاحظ هنا أن الأركيولوجيا تهدف إلى إيجاد تقارب بين تكوينات مقالية ومجالات غير مقالية . ويؤكد فوكوه أن إيجاد التقارب هذا لا يهدف إلى الكشف عن اتصال بين عناصر الثقافة المختلفة أو التأكيد على وجود

---

(٦٦) نفس الموضع ، ونلاحظ أن التكوين المقالي الذي ينتسب اليه علم التاريخ الطبيعي ينتمي في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، أما داروين فانه ينتمي الى التكوين المقالي الجديد .

(٦٧) سنخصص له الفصل الثالث .

(٦٨) الحديث عن هذين النمطين سيأتي بيانه في الفصلين الرابع والخامس على الترتيب .

علاقة عليه بين هذه العناصر (٦٩) . فالأركيولوجيا لا تبحث عن علة الوقائع المنطوقية ، كما أنها لا تبحث عما لها من دلالة ، بل هي تحاول أن تكشف عن أن قواعد التكوين التي انبثقت عنها الوقائع المنطوقية يمكن أن ترتبط بأنساق غير مقالية . ويعود فوكوه إلى مثال الطب الإكلينيكي وهو الذى عاصر ظهوره في نهاية القرن الثامن عشر ظهور عدد من الأحداث السياسية والظواهر الاقتصادية وأيضاً ظهور تغيرات طرأت على المؤسسات .

فإذا كان التحليل يقوم على البحث عن علل ، فإنه ربما تساءل عن تأثير التغيرات السياسية والعمليات الاقتصادية في آفاق رجال العلم وفي توجيه مصالحهم وقيمهم ونظرتهم للأشياء ، وربما توصل أيضاً إلى النتيجة القائلة بأنه في الوقت الذى شعرت فيه الرأسمالية الصناعية بحاجتها إلى اليد العاملة أصبح للمرض بعد اجتماعي . وأصبح للجسد قيمة باعتباره أداة للعمل ، فتكفلت الدولة بمكافحة الأمراض وبالعناية بالمرضى ودرو الاستشفاء .

أما التحليل الأركيولوجي باعتباره تحليلا مقارناً، فإنه يقوم على مستوى آخر . فهو لايهدف إلى بيان كيف أن الممارسة السياسية هي التي تحدد صورة المقال الطبي ومعناه . بل هو يهدف بالأحرى إلى بيان أن هذه الممرسة تكون جزءاً من شروط ظهوره(٧٠). ذلك لأن الطب الاكلينيكي والأحداث التاريخية التي عاصرته يعبران عن صورة واحدة مشتركة. فإذا أخذنا بعض المفاهيم الطبية مثل مفهوم التكاتف العضوى solidarité organique أو التماسك

(٦٩) فوكوه ، وأركيولوجيا المعرفة ، ص ٢١٢ .
(٧٠) نفس المرجع . ، ص ٢١٣ .

الوظيفي cohésion fonctionnelle أو تواصل الأنسجة communication tissulaire؛ (وهي مفاهيم جديدة أعقبت التخلي عن مبدأ تصنيف الأمراض لصالح تحليل التفاعلات العضوية داخل الجسم)، فإننا نجد أنها تلتقي مع الممارسات السياسية التي انبثقت من بين أنقاض التصنيفات الطبقية التي اشتهر بها المجتمع الاقطاعي. ذلك أن هذه الممارسات قد توصلت إلى علاقات ذات نمط وظيفي، وعرفت التكاتف الاقتصادي des solidarités économiques في مجتمع فئاته المختلفة على بعضها البعض كي تضمن استمرار مسيرة الحياة.

ونلاحظ أن هذا الالتقاء بين المفاهيم الطبية والممارسات السياسية، يعبر عنه فوكوه بأنه انعكاس للمفاهيم ترى فيه ذاتها (٧١)، أي أنه يستبعد أن تكون الممارسات السياسية هي علة ظهور المفاهيم.

وعلى الرغم من ذلك فإن فوكوه يصرح بأن استقلال المقال ونوعيته الفريدة sa spécificité، لا يمكن أن يمنحانه مثالية خالصة أو استقلالا تاريخياً كاملا. فما يريد أن يكشف عنه الوصف الأركيولوجي إنما هو هذا المستوى الفريد الذي يمكن التاريخ من أن يمنح الوجود لأنماط من المقال لكل منها نمطه التاريخي الخاص كما أن لها علاقة بأنماط تاريخية متعددة. (٧٢).

موقف الأركيولوجيا من التغير:

قالت الباحثة جيدي آني GUEDEZ Annie:

«إن ميشيل فوكوه الذي ظننا أن مكانه في مصاف

---

(٧١) نفس المرجع، ص ٢١٢.
(٧٢) نفس المرجع، ص ٢١٥.

> الايليين (زينون وبارمنيدس) ، قد يقترب على الأحرى
> من هيراقليطس» ... « فاذا قال هيراقليطس بأنك
> لاتستحم فى النهر الواحد مرتين ، فإننا نجد صدى
> ذلك لدى فوكوه فى عدم اطراد التجربة عنده
> l' extrême irrégularité de l' expérience (٧٣)

والحقيقة أن الباحثة المذكورة ربما ظنت فى البداية أن بإمكانها أن تضع فوكوه إلى جانب زينون ، لما عرف عن كتابة «الكلمات والأشياء» من أنه لفيلسوف بنائى يتمسك بنسق آنى ، وهذا النسق ربما تضمن عدم الاعتراف بالصيرورة . وهى الآن تدعى أن فوكوه يسرف فى عدم الاعتراف باطراد التجربة ، ظناً منها بأن هناك تحولا خطيراً طرأ على فكر فوكوه . واحقاقاً للحق ، فإننا سنحاول أن نتعرف على الموقف المحدد لفوكوه فى هذه النقطة ، وذلك من خلال ماكتبه فى فصل بعنوان « التغير والتحول » (٧٤)
Le changement et les transformations

يقول فوكوه :

> «إن الأنموذج الأركيولوجى ليس نسقاً منطقياً خالصاً
> للآنية Un schéma purement logique de simultanéité ،
> كما أنه ليس تتابعاً للأحداث يسير فى خط مستقيم .
> بل إن هذا الأنموذج يحاول أن يبين أن هناك التقاء
> بين علاقات متتابعة وأخرى ليست كذلك » (٧٥).

---

(73) GUEDEZ Annie : "Foucault" OP. Cit., P. 93.

(٧٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢١٦ — ٢٣١ .

(٧٥) نفس المرجع ، ص ٢١٩ .

ويقول :

«إنه لمن المؤسف أن البعض يرون فى الأركيولوجيا مجردنفى للتاريخ وتأكيد لعدم الاستمرار la discontinuité . وهؤلاء هم الذين يتمسكون بما تم التعارف عليه منذ قرن ونصف من أن التاريخ هو حركة وتدفق وتطور (mouvement, flux, évolution) .(٧٦)

ثم يخاطب أولئك المتمسكين بهذا الرأى القديم فيقول لهم :

« إن استخدامكم للاستمرار التاريخى هو الذى يقلل من شأنه . ذلك لأنكم تعتبرونه الدعامة التى يرد اليها كل شيء ، والقانون الأول والثقل الأساسى la pesanteur essentielle لكل ممارسة مقالية. إنكم تريدون تحليل كل تغير بالقياس إلى قوة الاستمرار هذه تماماً كما تحلل كل حركة بالقياس إلى مجال للجاذبية . غير أنكم بهذا إنما تلقون بها خارج الزمان «à la limite extérieure du temps فى سلبية مطلقة . أما الأركيولوجيا فانها تعكس هذا الوضع ، أو على الأصح ... فإنها تريد أن تحتفظ بدور خاص لكل من المتصل وغير المتصل . فتبين أن كليهما إنما يدخل فى مجال الممارسة المقالية ». (٧٧).

---

(٧٦) نفس المرجع ، ص ٢٢٥ .

(٧٧) نفس المرجع ، ص ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .

يظهر مما تقدم أن الأركيولوجيا ليست ضد فكرة الزمان باعتباره سيلا متدفقاً للأحداث ، بل هى ضد فكرة التتابع المطلق وضد خضوع المقال لصورة واحدة من صور التتابع ، أى أنها تؤيد الانفصال le discontinu أو القطيعة la rupture أو القطع coupure وكلها بمعنى واحد عند فوكوه .

وكتب الدكتور زكريا ابراهيم عن ظاهرة «الانفصال» ما يلى :

«يشرح لنا فوكوه هذه الظاهرة فيقول (إن الانفصال لايعنى شيئاً آخر سوى أنه قد يحدث أحياناً فى خلال عدة سنوات أن تكف ثقافة ما عن التفكير على النحو الذى درجت عليه حتى تلك الآونة . لكى تشرع فى التفكير فى شىء آخر ، وعلى نحو آخر) ! صحيح أنه قد يحدث فى بعض الأحيان أن تتكرر —لدى ثقافتين مختلفتين— نفس العبارات (تقريباً) . ولكننا عندئذ قلما نعنى نفس الأشياء ، بل لابد من أن يكون البناء العقلى القديم قد تصدع ، ومن ثم لابد لكل العلاقات من أن تكون قد تغيرت ، لكى ينشأ من كل هذا «مجال ابستمولوجى» جديد ! (٧٨).

وقد بين فوكوه أن الفترات التى تعرضت فيها الثقافة الغربية لهذه

---

(٧٨) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٤٧ ، وما بين القوسين نص فوكوه «بالكلمات والأشياء» ، ص ٦٤ .

الظاهرة كانت فى منتصف القرن السابع عشر وأواخر القرن الثامن عشر وحوالى منتصف القرن العشرين .

أما القطع الأول ، فقد كان يفصل عصر النهضة عن العصر الكلاسيكى . ولم يكن للغة فى عصر النهضة أى مضمون تمثلى contenu représentatif لأنها كانت شيئاً بين أشياء العالم . بينما ظهر هذا المضمون التمثلى فى العصر الكلاسيكى ونشأ عنه علم التاريخ الطبيعى وعلم النحو وعلم تحليل الثروة Analyse de la richesse .

أما القطع الثانى ، فقد نشأ عنه علوم البيولوجيا والفيلولوجيا وعلم الاقتصاد السياسى . وتقدمت المعرفة العلمية الحديثة عندما أصبحت العين هى مبدأ الوضوح وعندما تحرر الإنسان من التمثلات التى خلقها فحجبت عنه العالم والأشياء .

ثم جاء القطع الثالث عندما أصبح الرمز موضوعاً للعلم وما صاحب ذلك من ظهور لعلم اللغة الحديث وللفكر البنائى بوجه عام (٧٩).

وقد يظن خطأ أن الأركيولوجيا تدرس عصوراً ثقافية غير أن «العصر l' époque لا يمكن أن يكون بأى حال موضوعاً لها objet . وحتى إذا تحدثت عن عصر معين فذلك لا يأتى إلا نتيجة للتحليل الأركيولوجى ذاته وبمناسبة الحديث عن ممارسات مقالية معينة » (٨٠)وإن الأركيولوجيا إنما تخرج على الأحرى حقباً منطوقية من هذه الوحدات الغامضة التى تسمى عصوراً» (٨١).

---

(٧٩) سيأتى الحديث بالتفصيل عن هذه المجالات الابستمولوجية فى الفصل القادم .
(٨٠) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٠ .
(٨١) نفس المرجع ، ص ١٩٤ .

Elle fait surgir des «périodes énonciatives» dans ces unités confuses qu' on appelle «époques».

ويلاحظ فوكوه أن القطع الأركيولوجي ليس هو ذلك الفيصل (أو الحد) limite الذى يشار اليه من بعيد دون التمكن من تحديده ، إنه اسم يطلق على التغيرات التي تطرأ على النسق العام للتكوين المقالى (٨٢). وهو ليس زماناً ميتاً un temps mort يفصل ولو بمقدار لحظة بين نمطين أو حقبتين متغايرتين ، بل هو عدم الاتصال المحدد بعدد من التغيرات المتميزة والذى يحدث بين وضعيتين واضحتى المعالم (٨٣).

والقطع لا يعني خضوع جميع التكوينات المقالية دفعة واحدة وفى لحظة ما لتغير مفاجىء يعيد تنظيمها من جديد وفقاً لقواعد جديدة . فعلم التاريخ الطبيعي وعلم النحو العام وعلم تحليل الثروة رغم أنها قد تكونت جميعها خلال القرن السابع عشر ورغم تشابه «أنماط» ظهورها ، إلا أن نسق تكوين علم تحليل الثروة كان مرتبطاً بعدد كبير من الممارسات غير المقالية مثل حركة السلع la circulation des marchandises ، ومثل تداول العملة manipulations monétaires وأيضاً نظام حماية التجارة والصناعة مما تسبب فى بطء تكوين هذا العلم الذى استمر أكثر من قرن (من كانتيون Cantillon وحتى جرامون Grammont) (٨٤) . أما التغيرات التى

---

(٨٢) نفس المرجع ، ص ٢٣١ .

(٨٣) نفس المرجع ، ص ٢٢٨ . ونلاحظ أن فوكوه يستخدم كلمة «وضعية» Positivite ليحدد بها مرحلة معرفية لنسق العلم . راجع الفصل السادس .

(٨٤) ريتشارد كانتيون ، اقتصادى ايرلندى (١٦٨٠ — ١٧٣٤) ، أما جاك جرامون فهو رجل اقتصاد وسياسة : فرنسي الجنسية (١٧٩٦ — ١٨٦٢) .

مهدت لظهور علم النحو وعلم التاريخ الطبيعي ، فإنها لم تستمر لأكثر من خمس وعشرين سنة فقط (٨٥).

وخير مثال يستدل به فوكوه على عدم الاتصال يختاره من علم الطب la médecine فهو يرى أن المقال الطبي قد طرأ عليه تغير عميق في فترة لاتزيد عن ربع قرن من الزمان (من سنة ١٧٩٠ إلى سنة ١٨١٥) . وهو تغير لم يحدث له مثيل منذ العصر الوسيط أو حتى منذ عصر الاغريق . وقد شهد هذا التغير ظهور موضوعات جديدة مثل :

الإصابة الموضعية (العضوية) للأعضاء Lésions organiques ،

وتغير الأنسجة Altérations tissulaires ،

وخاصية الانتشار بين الأعضاء Voies et formes de diffusion interorganiques .

كما شهد هذا التغير كذلك ظهور مفردات جديدة استخدمت في الوصف بل وفي تسمية وتحديد بعض الأمراض القديمة قدم الانسان مثل السل la tuberculose ، وأيضاً شهد هذا التغير اختفاء بعض الألفاظ التي سبق أن استخدمت في التشخيص لعدة مئات من السنين مثل الحمى fièvre (٨٦).

ويرى فوكوه أن نسق التكوين للطب الاكلينيكي إنما يتضمن عناصر أساسية يذكر منها على سبيل المثال تغير معدل البطالة taux de chômage ومقتضيات التوظف des exigences de l' emploi والقرارات السياسية الخاصة بتجمعات أصحاب المهن corporations ، والقرارات الخاصة

---

(٨٥) فوكوه : حفريات المعرفة ، ص ٢٢٩ .
(٨٦) نفس المرجع ، ص ٢٢٢ .

بالجامعة ، والحاجات الجديدة les besoins nouveaux ، والإمكانيات الجديدة لمساعدة ذوى الحاجات فى نهاية القرن الثامن عشر . (٨٧).

ويرى فوكوه أيضاً أن التحول الذى طرأ فى العلاقات المميزة لنسق التكوين هو الذى تضمن التغير العميق الذى شهده علم الطب ، كما تضمن كذلك تحولا آخر فى العلاقات المتبادلة بين مجال الادراك champ perceptif والقانون اللغوى code linguistique والأدوات المستخدمة فى الإدراك médiation instrumentale والإعلام information (٨٨).

غير أن القول بأن تكوين مقالى قد حل محل آخر لا يعنى بالضرورة ظهور موضوعات وتصورات وصياغات جديدة ، وإنما يعنى حدوث تحول فى العلاقات لا يغير بالضرورة جميع العناصر . إذ من الممكن لواحد من هذه العناصر أو لأكثر من واحد منها أن يظل هو هو محتفظاً بمضمونه وصفاته رغم انتمائه لقوانين تكوين متميزة ويسجل بالتالى نوعاً من الاستمرار continuité . ومثال ذلك دورة النقد la circulation monétaire كموضوع رئيسى فى علم تحليل الثروة فى العصر الكلاسيكى ثم فى علم الاقتصاد السياسى بعد ذلك . ومثال ذلك أيضاً فكرة الفعل المنعكس le concept de réflexe ، التى تحددت فى العصر الكلاسيكى عند ويليس Willis وبروشاسكا Prochaska، ثم ظهرت فى الفسيولوجيا الحديثة (٨٩). وهناك عناصر تظهر متأخرة لكونها مجرد اشتقاق dérivation فى تكوين مقالى معين ، ثم تحتل مكان

---

(٨٧) نفس المرجع ، ص ٢٢٤ .

(٨٨) نفس المرجع ، ص ص ٢٢٤ — ٢٢٥.

(٨٩) توماس ويليس ، عالم فسيولوجيا وتشريح انجليزى (١٦٢١ — ١٦٧٥) ، وبروشاسكا تشيكى المولد والجنسية (١٧٤٩ — ١٨٠٩) .

الصدارة فى تكوين مقالى لاحق . ومن أمثلة هذه العناصر فكرة المركب العضوى l' organisme التى ظهرت فى نهاية القرن الثامن عشر فى علم التاريخ الطبيعى نتيجة لعملية الوصف التصنيفى وأصبحت بعد ذلك تصوراً رئيسياً concept majeur فى البيولوجيا عند كوفيه Cuvier . وأخيراً ، هناك عناصر تعود إلى الظهور بعد أن كانت قد أهملت مثل فكرة ثبات أنواع الكائنات fixisme التى قال بها لينيه Linné ، وهى تعود إلى الظهور عند كوفييه . ومثل الفكرة القديمة عن اللغة الأصل une langue originaire عندما عادت إلى الظهور فى القرن الثامن عشر (٩٠).

ويرى فوكوه أنه على الرغم من أن وصف التغيرات على هذا النحو ينطبق تماماً على واقع المنطوقات ، فإن علم تاريخ الأفكار إنما ينظر إلى هذه التغيرات على أنها ظواهر خادعة ، ويبحث فى التحليل فى أن يردها إلى عدد أقل من التغيرات . كما يبحث فى أن يرد هذا العدد الأقل إلى أقل منه ، وهكذا حتى نصل إلى حد مثالى هو نفى للتغير وعودة إلى الاتصال (٩١). وإذا كانت هذه هى نظرة علم تاريخ الأفكار ، فإن الأركيولوجيا تتخذ موضوعاً لها هو هذا التغير ذاته ، أى العقبة l' obstacle التى يتعثر أمامها علم تاريخ الأفكار دون أن يتجاوزها (٩٢).

وإذا كان لابد من مسايرة واقع المنطوقات ، فإن «الأركيولوجيا ينبغى إذن أن تتابع التجمعات poursuivre les séries (أى تجمعات المنطوقات) ، وتخترق المستويات traverser les niveaux (أى الوحدات

---

(٩٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٢٧ .
(٩١) نفس المرجع ، ص ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .
(٩٢) نفس المرجع ، ص ٢٢٣ .

المعرفية)، وألا يقتصر عملها على مجرد متابعة سير الظواهر والمنطوقات وفقاً لبعد أفقي أو رأسي، بل طبقاً «لمحور متحرك يساير المنهج الأركيولوجي» (٩٣). وربما كانت الحاجة لهذا «المحور المتحرك» من الضرورات المنهجية لمواجهة «عدم اطراد التجربة» الذي أشارت اليه الباحثةآني Annie. وهذا يعني أن المسائل المنهجية التي تثيرها أركيولوجيا المعرفة إنما تسير تماماً على عكس ماألفه« علم تاريخ الأفكار» . وأيضاً على عكس ما ألفناه نحن في عاداتنا الابستمولوجية القديمة .

مجال البحث الأركيولوجي :

إن البحث في أركيولوجيا العلوم إنما يتخذ لنفسه مكاناً داخل المجال الذي تظهر فيه وتتشابك مشكلات الكائن الإنساني والشعور conscience ، والأصل ، والذات ، بل ومشكلة البناء structure أيضاً (٩٤) .ولقد كان البحث الممكن يتمثل في تفسير الوثائق الموجودة ، بأن يعيد تكوينها les réformer ، ثم يتحدد بعد ذلك هذا المجال الهائل . والذي هو عبارة عن مجموع المنطوقات الشفوية والمكتوبة في انتشارها كأحداث . ثم تكون هذه المنطوقات بدورها مجالا للبحث عن وحدات .

ولقد وقع الاختيارمؤقتاً على مجال العلوم المتصلة بالانسان كمنطقة للبحث تتصف بعلاقاتها الخصبة والعديدة والتي يسهل وصفها . كما كانت المسألة الهامة التي تفرض نفسها دائماً هي تلك التي تتعلق باستخلاص العلاقات التي تظهر بين المنطوقات .

---

(93) Gilles DELEUZE : "Un nouvel Archiviste" in (Critique, Mars 1970).

(٩٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦ .

غير أن فوكوه يلاحظ أولا أن من المنطوقات ماينتسب لعلوم حديثة نسبياً مثل الاقتصاد السياسي أو البيولوجيا أو علم النفس المرضي la psychopathologie . كما أن منها ماينتسب إلى علوم أخرى ربما صعب علينا أن نحدد متى بدأت بسبب امتداد جذورها في الماضي السحيق مثل علم النحو أو الطب . ويرى فوكوه أن هذه الوحدات الأخيرة يسهل تفتيتها إذا لم نتمكن من إيجاد روابط معترف بها بين مجموع ماتشمله من منطوقات ، فتحليل أمراض الرأس عند Willis ، والدراسات الاكلينيكية التي قام بها شاركوه Charcot لا يمكن أن تنتسب جميعاً إلى نفس نمط المقال . وهذا ما يدفعنا إلى التساؤل عن طبيعة النسق الحالي للعلوم ككل (٩٥) .

ولقد كان السؤال المحدد الذي ورد عند فوكوه هو : لماذا يجتمع العديد من المنطوقات في وحدات مترابطة نسميها علوماً ؟..

ولكي يجيب فوكوه هذا السؤال ، فإنه يقوم بدراسة فروض أربعة ، يقول عنها أنها « محاولات فاشلة » تجعله يبحث عما يمكن أن تستند اليه بعض «العلوم» من سبب لوحدتها .

الفرض الأول :

«إن المنطوقات المختلفة من حيث الصورة والمتناثرة في الزمان إنما تكون مجموعاً ensemble وذلك إن كانت تلتف حول نفس الموضوع » . (٩٦)

وعلى سبيل المثال ، إذا كانت المنطوقات المتصلة بعلم النفس المرضي

---

(٩٥) نفس المرجع ، ص ص ٤٤ — ٤٥ .
(٩٦) نفس المرجع ، ص ٤٥ .

تلتف كلها حول موضوع واحد هو «الجنون» (٩٧) ، فإنه لمن الممكن أن نتساءل عن هذه الوحدة المفترضة» folie «وعما إذا كانت تسمح بتقديم نفس المجموع من المنطوقات المترابطة والمنتظمة . ويجيب فوكوه عن هذا التساؤل بالنفي . فالمنطوقات داخل هذه الوحدة المفترضة إنما تصف وتفسر وتقصي وتشير إلى متضايفات وتصدر أحكاماً ، وتصيغ عبارات لا ترد ، مع ذلك ، لنفس الموضوع .

«فالموضوع الذى انتسبت اليه المنطوقات الطبية فى القرن السابع عشر والثامن عشر لا يتطابق مع الموضوع الذى ترسمه الأحكام القضائية أو الإجراءات البوليسية فى نفس العصر . وكذلك نجد أن كل موضوعات المقال السيكوباثولوجى قد تغيرت من بينيل Pinel أو اسكيرول Esquirol إلى Bleuler ويظهر بهذا الخصوص أننا لم نكن بصدد نفس الأمر اض هنا وهناك ، كما أننا لم نكن بصدد نفس المرضى عقلياً» (٩٨).

ونلاحظ أنه أمام تعدد الموضوعات لا يمكننا أن نستنتج وحدة المقال بخصوص موضوع الجنون . «فالموضوعات تتمايز خلال التطبيق اليومى ، وفى فقه القانون ، وفى تشخيص الأطباء» ، كما أن قواعد التحول transformation والقطيعة rupture وعدم الاتصال هى التى تجعل الموضوع شيئاً آخر غير ذاته .

ويتضح مما تقدم أن وحدة المنطوقات لا يمكن أن ترد إلى وحدة المقال

---

(٩٧) تعمد فوكوه أن يستخدم لفظا مثلا هو الجنون ، وأن يضم تحته مجموعا من العناصر الشاذة التى ظن (بضم الظاء) أنها متجانسة .

(٩٨) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٤٥ - ٤٦ . وسيأتى تفصيل الحديث عن مقال الطب النفسى فى الفصل الرابع .

أو وحدة الموضوع ، بل إلى قانون الظهور والتحول la loi d' apparition et de transformation . كما يتضح أيضاً أن «تعريف مجموع من المنطوقات فيما تحتويه من تفرد individuel لايكون بردها إلى موضوع واحد ، بل يكون بوصف انتشار موضوعاتها ، والإمساك بالفواصل التي تباعد بينها ، وقياس هذه الفواصل ، أو بعبارة أخرى صياغة قانون التوزيع الخاص بها loi de répartition »(٩٩).

الفرض الثاني : «وهو يهدف إلى تعريف مجموع من العلاقات بين المنطوقات استناداً إلى الصورة التي تتواجد عليها وأنماط ترابطها »(١٠٠).

وفي هذا الفرض نجد أن فوكوه بعد أن قلل من أهمية الموضوعات objets والتصورات concepts ، يتساءل عما إذا كان الأسلوب style وسمة المنطوقات le caractère d'énonciation لا يكونان أكثر تحديداً لعلوم معينة مثل العلوم الطبية مثلا .

وكان فوكوه قد لاحظ أن علم الطب قد تميز في القرن التاسع عشر بأسلوب معين un certain style ، وذلك لأنه — لأول مرة — لم يعد قائماً على مجموعة من التقاليد والملاحظات والوصفات المتغايرة des recettes hétérogènes ،بل على معرفة رصينة تتميز بنظرة خاصة للأشياء وتقوم على تحليل الظاهرة المرضية من خلال علاقتها بالجسد ككل ،وتستخدم نسقاً محدداً في التعبير عما تراه بلغة أتفق على مفرداتها . وباختصار ، فقد

---

(٩٩) نفس المرجع ، ص ص ٤٦ — ٤٧ .
(١٠٠) نفس المرجع ، ص ٤٧ .

كان العلم الطبي وكأنه ينتظم حول مجموعة من المنطوقات تقوم على الوصف descriptifs.
غير أن ذلك لم يدم طويلا ..

وربما كان السبب هو الانتقال من مرحلة الفحص الذى يقوم على الملاحظة المباشرة وتسمع الصدر إلى مرحلة أخرى يدخل فيها استخدام المجهر والاختبارات البيولوجية .

وربما كان السبب أيضاً هو أن الطبيب لم يعد هو الملاحظ للمعلومة الطبية والمفسر لها فى نفس الوقت. فقد ظهر إلى جانبه من المراجع والأجهزة ما غير تماماً من وضعه كملاحظ . .

ويضاف إلى ماتقدم أن المقال الطبي هو «مجموع من الفروض عن الحياة والموت ، وعن قواعد معينة تمليها الأخلاق السائدة وعليها أيضاً متطلبات العلاج وتسير وفقاً لنماذج تعليمية . وتتبع قوانين المؤسسات . وهنا يتضح أنه ليس مجرد مجموع المنطوقات التى تقوم على الوصف». (١٠١)
وهنا أيضاً يتضح بطلان الفرض الثانى . .

وإذا كان لنا أن نتحدث عن وحدة المقال الطبي بعد كل ذلك ، فإن مبدأ هذه الوحدة لا يمكن أن يتواجد فى صورة محددة للمنطوقات ؛ بل بالأحرى فى مجموعة القواعد التى سمحت بظهور الوصف الذى يعتمد على حواس الملاحظ ثم الملاحظة التى تعتمد على الأجهزة وتخضع لقوانين التجارب المعملية والحسابات الأحصائية والقواعد التى تفرضها المؤسسات ... الخ .

وعلى الجملة ، «فإن ما ينبغي الكشف عنه ليس سوى النسق الذى يتحكم

---

(١٠١) نفس الموضع .

فى توزيع المنطوقات ، وأيضاً علاقات التضمن أوعدم التضمن التى تشملها ، والتحول الذى يطرأ عليها (١٠٢) .

الفرض الثالث : ألا يمكن تصنيف مجموعات من المنطوقات وذلك بتحديد نسق التصورات الدائم أو المتناسق الذى تصدر عنه ؟(١٠٣) .

لقد كان علم النحو عند الكلاسيكيين ابتداءمن لانسلو Lancelòt(١٠٤) وحتى نهاية القرن الثامن عشر يعتمد على نسق معين من التصورات concepts تقرر استخدامها وتحدد مضمونها : مثل الحكم jugement باعتباره صورة معيارية لكل جملة forme normative وتصور الفاعل Sujet والصفة attribut وهما يجتمعان تحت مقولة الاسم sous la catégorie de nom وتصور الفعل le verbe وقد استخدم مساوياً للرابطة فى المنطق la copule logique، وتصور الاسم كرمز للتمثل signe de représentation.

ولاحظ فوكوه أن نسق التصورات التى افترض أنها ثابتة لم يظل دائماً كذلك . فقد ظهرت مفاهيم جديدة منذ نهاية القرن الثامن عشر وحتى الآن ؛ ربما كان بعضها مشتقاً من الأولى ، أما البعض الآخر فهو إما متغاير تماماً hétérogènes وإما متعارض كلية . ومن أمثلة هذا النوع الأخير النظر إلى الفعل verbe على أنه إسم يشير إلى حدث أو عمل ، وفكرة المعرفة الكامنة فى الكلمات والتى تنتقل من خلالها بطريقة غامضة obscurément ودلالة الأصوات وما لها من دور فى التعبير la valeur expressive de sons . وكلها

---

(١٠٢) فوكوه ، وأركيولوجيا المعرفة» ، ص ٤٨ .

(١٠٣) نفس الموضع .

(١٠٤) لانسلو تخرج فى مدرسة البور رواياك ، واشترك فى تأليف كتاب المنطق الذى اشتهرت به هذه المدرسة . وهو من مواليد باريس (١٦١٥ - ١٦٩٥).

مفاهيم تختلف تماماً عما استخدمه لانسلو ومعاصريه (١٠٥) . وهنا يبدو أن الصورة المتناسقة التي ظهر عليها علم قواعد النحو ليست في الحقيقة كذلك ، لأن مجموع المنطوقات والتحليلات والمبادىء والاستنتاجات التي اجتمعت تحت هذا الإسم إنما تكون وحدة مزيفة une fausse unité . ولذا ينبغي أن نكتشف وحدة جديدة تعتمد هذه المرة : لا على تناسق بين التصورات ، بل على تتالي ظهورها وتباعدها أو تناقضها .

ونخرج من هذا الفرض بنظام في البحث شرط إمكانه هو دور الظهور apparition ودور الانتشار dispersion ودور التحول المحتمل transformation éventuelle .

الفرض الرابع : وهو الذي يختص بتجميع المنطوقات ووصف ما بينها من ترابط بفضل تطابق واستمرار الأفكار العامة (١٠٦) L' identité et la persistance des thèmes.
فلو أخذنا موضوع التطورية évolutionnisme ، سنجد أنفسنا أمام موضوع فلسفي بقدر ما هو علمي . يقول عنه فوكوه «إنه أقرب إلى علم نظام الكون Cosmologie منه إلى علم البيولوجيا » . كما أن هذا الموضوع قد ساهم في توجيه بعض الأبحاث أكثر مما ساهم في تفسير بعض النتائج ، وهو يذهب في مجال الافتراض إلى أكثر مما يمكن تحقيقه أو معرفته معرفة حقيقية . وعلى الرغم من كونه فكرة عامة ، فإنه مع ذلك لا يحتفظ في داخله بأي ضمان لوحدة المنطوقات خصوصاً وأن هذه الأخيرة ، وإن بدأت من مجال فلسفي إلا أنها تؤدي بعد ذلك إلى مجال علمي . وأيضاً لأن الفكرة العامة ، وإن كانت توحي بأبحاث ودراسات ، إلا أنها تظل مثالاً ذهنياً هو بذاته لا يصدر عنه نتائج .

---

(١٠٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٤٩ .
(١٠٦) نفس المرجع ، ص ٥٠ .

ومن ثم نرى أن المنطوقات لا تدين للفكرة العامة thème ، إلا لأنها هى التى أوحت بها ، وذلك لأن الفكرة تظل خارجة عن المنطوقات ، كما أنها لاتحمل بين طياتها سبباً كافياً لحقيقة هذه المنطوقات .

لقد كانت «التطورية» فى القرن الثامن عشر تؤكد اتصال وقرابة جميع الأنواع la parenté et la continuité des espèces (ديدرو Diderot)(١٠٧). بينما نجد أن التطورية فى القرن التاسع عشر تعبر عن أنماط التفاعل بين الكائن الحى وبين الوسط المحيط به مما يؤدى إلى صور جديدة للحياة. والتطور بهذا المعنى الأخير يعبر عن عدم استمرار discontinuité وهنا نلاحظ مع ميشيل فوكوه أن نفس الفكرة الفلسفية تمخض عنها نمطان مختلفان من المقـــــال .

ومما تقدم ، يتضح أن مجال البحث الأركيولوجى لا ينبغى أن يعول كثيراً على المعطيات الظاهرة أو مانسميه الموضوع objet أو الأسلوب style أو نمط تسلسل المنطوقات أوثبات وتناسق بعض التصورات أو الأفكار ، بل ينبغى أن يكون التحليل منصباً — فيما وراء ذلك كله — على التبعثر ذاته la dispersion même . وهذا يعنى أن علينا أن ندرس صور التوزيع les formes de répartition ، وأن نكتشف أنساق التبعثر systèmes de dispersion

هذا هو الجديد فى مجال البحث الأركيولوجى كما يقترحه ميشيل

---

(١٠٧) ديدرو : فيلسوف فرنسى (١٧١٣ — ١٧٨٤) ، تحول الى المذهب المادى ، ويرى أن كل شئ يمكن أن يفسر تفسيرا ميكانيكيا ماديا وتظهر لديه فكرة الاتصال الكلاسيكية بين الكائن وبين الطبيعة : واذ ليس هناك حاجز (فى رأيه) بين الانسان وبين الحيوان ، أو بين الصخور وبين النباتات أو بين هذه الأخيرة وبين الحيوانات . راجع :
P. CASTEX : "Manuel des Etudes littéraires IV", (Hachette, 1949), P. 93.

فوكوه ، وظاهر لنا أنه يختلف تماماً عن تاريخ الأفكار لما تضمنه من جدة وأصالة .

ولو أننا سايرنا هذا البحث الأركيولوجي في بداياته ، وعكفنا على دراسة ثلاثى المؤلفات الفلسفية لفوكوه (١٠٨) ، لوجدنا أن «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» يحاول أن يدرس التبعثر في المنطوقات ، ويثبت أن هذه المنطوقات قد تم جمعها منذ القرن السادس عشر في وحدة زائفة يضمها موضوع وهي أطلق عليه اسم «الجنون» . وفي هذا الكتاب كان الوصف منصباً على مقال الطب النفسي في مجموعة ، وكانت المشكلة الرئيسية هي ظهور عدد من الموضوعات المتشابكة ، كما كان الكتاب يستهدف بالدرجة الأولى احتواء ما أسماه فوكوه «بالاختيار النظرى» Choix théoriques أو «الاستراتيجيات» Stratégies أى الأفكار العامة Thèmes والنظريات Théories (١٠٩) .

أما «مولد العيادة» ، فانه يبحث في التغير الذى طرأ على نمط المنطوقات في المدة من نهاية القرن الثامن عشر وحتى بداية القرن التاسع عشر ، وذلك فيما يختص بالمقال الطبي . لم يكن يهدف هذا الكتاب إذن إلى اكتشاف تكوين الأنساق التصورية أو تكوين الاختيار النظرى ، بل كان على الأحرى يهدف إلى اظهار مكانة المؤسسات . Statut, (ou) emplacement institutionnel.

---

(١٠٨) ثلاثى المؤلفات الفلسفية حسب ترتيب ظهوره عند فوكوه هو :
١ — تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي (١٩٦١) .
٢ — مولد العياده (١٩٦٣) .
٣ — الكلمات والأشياء (١٩٦٦) .

(١٠٩) نلاحظ أن «الاختيار النظرى» سمى كذلك لأنه ليس ممارسة ملموسة ولا تتعلق بالذات .
راجع : Angèle KREMER-MARIETTI : "Foucault" Op. Cit., P. 155.

وأخيراً نجد أن الدراسة في «الكلمات والأشياء» قد انصبت على مجموع شبكات التصورات وعلى قواعد تكوينها كما تكشف أيضاً عن مجالات «الاختيار النظرى» التي تنبثق عنها التصورات. وسيكون ثالوث المؤلفات هذا هو موضوع الفصول الثلاثة القادمة. نبدأها «بالكلمات والأشياء» نظراً لاتساع دائرة اختصاصه، ولأنه يصل المنهج بالمذهب حسبما يرى الدكتور زكريا ابراهيم (١١٠).

(١١٠) الدكتور زكريا ابراهيم: «مشكلة البنية»، ص ١٣٩.

الباب الثانى

«تطبيقات أركيولوجية»

«إننى لم أزعم فى أى مرة بأن «الاكيولوجيا» علم أو حتى مجرد أساس أو قاعدة لعلم ستتضح معالمه فى المستقبل . إن كلمة «أركيولوجيا» إنما تشير فقط إلى خطة لتحليل الأداء اللفظى» .

فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦٩

الفصل الثالث

الأنساق المعرفية والعصور التاريخية

١ — معنى الحقبة المنطوقية .

٢ — استحالة المشاكلة (أو التشابه) .

Les mutations de la ressemblance.

٣ — التماثل Similitude (فى عصر النهضة).

٤ — التطابق والتغاير (فى العصر الكلاسيكى) .

الماتيسيس والتاكسينوميا .

علوم العصر الكلاسيكى :

علم النحو العام

التاريخ الطبيعى

علم الاقتصاد

٥ — « إبستميه » العصر الحديث .

٦ — خصائص الحقبة المنطوقية الحديثة .

الأنساق المعرفية والعصور التاريخية

معنى الحقبة المنطوقية :

رأينا في الفصل السابق أن الأركيولوجيا تخرج حقباً منطوقية من وحدات غامضة تسمى عصوراً(١). وكان ميشيل فوكو يقرر بأن الهدف من كتاب «الكلمات والأشياء» هو أنه يبشر بنهاية الحقبة المعرفية الحديثة l'Epistémè moderne ، كما يبشر ببزوغ فجر جديد لفلسفة تتساءل عن اللغة وعن وحدتها الضائعة(٢). فما المقصود بالحقبة المنطوقية أو المعرفية ؟ .

لقد استخدم فوكو كلمة «ابستميه épistémè » ليشير بها إلى «مجموع العلاقات التي تربط بين الممارسات المقالية في عصر معين . وهي الممارسات التي تؤدي إلى أشكال معرفية وعلوم وأنساق صورية كما تحدد النمط الذي تظهر به هذه العلوم وتلك الأنساق. » (٣) وهذا يعني أن «الإبستميه» ليس سوى «المجال الابستمولوجي» الذي يضم «مجموع المقولات الموضوعية » أو تلك المبادئ «شبه الترانسندنتاليه» التي تحدد انفتاح المعارف وانغلاقها . وعلى ذلك : فإن المنهج «الأركيولوجي» — بمعنى ما من المعاني — هو دراسة «الابستميه» «لعصر الواحد» . (٤) .

وفي دراستنا لكتاب «الكلمات والأشياء» ، نجده يتناول حقباً معرفية ثلاث ، يستخرجها من ثلاثة عصور تاريخية هي عصر النهضة والعصر

---

(١) ص ٦٥.

(٢) فوكو : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣١٨. والتساؤل هنا عن لغة ضائعة «لأنها مسرح ظهور كل شيء ، سوى ذاتها » . وهي لم تكن ضائعة في عصر النهضة لأنها كانت شيئاً بين أشياء العالم .

(٣) فوكو : «أركيولوجيا المعرفة » ، ص ٢٥٠.

(٤) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية » ، ص ١٣٧ .

الكلاسيكي والعصر الحديث . كما نجده أيضاً يتناول هذه الحقب المعرفية من حيث أن كلا منها يكون نسقاً متكاملا هو «الابستميه» . ومن هنا اشتهر فوكوه بأنه فيلسوف بنائي يتحمس للنسق .

وإذا كان البناء فى أبسط تعريفاته هو مجموع من العلاقات الثابتة بين عناصر متغيرة ، فإننا كذلك نلاحظ فى داخل «الابستميه» أن الشيء يمكن أن يرمز لأشياء أخرى كثيرة ؛ ومع ذلك يقوم بدوره دائماً على نفس الوتيرة بمعنى أن تظل العلاقة بين العناصر محتفظة بطبيعتها ، وبالتالى يظل الرمز محتفظاً دائماً بنفس وظيفته .

غير أن البناء المعرفى قد يتعرض لاختلال التوازن ؛ فتتغير «الابستميه» وذلك عندما تتغير العلاقة ذاتها (أى تتغير علاقة الرمز بما يعنيه ، فلم يعد يعنى نفس الشيء) .

وإذا كانت البناءات عند معظم مفكرى الاتجاه البنائي تتصف بالثبات permanence ، لذا فقد ظهر من قال بأن بنائية فوكوه هى بنائية بدون بناءات Structuralisme sans structure (٥) . ولسنا الآن بصدد تقييم عمل فوكوه أو تحديد المكانة التى يحتلها بين البنائيين ، لأن ذلك سيرد فى مكانه المناسب ، ولأن مسار البحث فى هذا الفصل يتطلب عرضاً موضوعياً لبناءات الثقافة كما وردت عند فوكوه .

يرى فوكوه أن النظام البادىء فى الأشياء يفترض وجود مبدأ منظم ، أى يفترض وجود نسق به نميز وبه ندرك التشابه بين الأشياء . وهذا المبدأ

(٥) PIAGET Jean : "Le Structuralisme" Op. Cit., P. 108.
وسنعود إلى هذه النقطة فى « التقييم والتعقيب » .

إنما يستتر وراء كل ما تكتسبه أي ثقافة من معرفة أو علوم .

يوجد إذن ، في قلب كل ثقافة : «نمط من النظام une modalité de l'ordre مختبيء أو غير متعقل impensée ، هو بمثابة الأرضية التي ينبثق عنها بالضرورة تصنيف الخبرات البشرية . ويظهر هذا النظام دائماً كشرط لإمكانية المعرفة والتنظير ، وهو بوجه عام يقوم بعمل القبلي التاريخي L'a priori historique (٦).

ويرى فوكوه أيضاً أن هذا النظام هو شبكة غير مرئية تربط بين الأشياء un réseau secret . وهذه الشبكة هي التي يتيسر بفضلها عرض وتصنيف الأشياء بالطريقة التي تمكننا من معرفة مابينها من علاقات ، فتفسرها وتجعل التفكير في أحدها مستدعياً للتفكير في الآخر (٧). إن هذه الشبكة إذن هي مبدأ كل معرفة . وهي لا توجد إلا من خلال نظرة أو انتباه أو لغة Ce réseau n'existe qu'à travers la grille d'un regard, d'une attention, d'un langage. فهي التي تمكننا من القول بأن التشابه بين الكلب والقط أقل من التشابه بين كلبين من كلاب الصيد على الرغم من أنها جميعاً مستأنسة ، وتتصف كلها بسرعة الجري ، أي أنها أيضاً مبدأ كل تصنيف (٨) .

ويرى فوكوه أن كل نظام يفترض وجود مضاهاة أو مشاكلة أو تشابه بين الأشياء des ressemblances (٩). ولقد كانت القضية الأساسية في «الكلمات والأشياء» هي البحث عن تاريخ هذا «التشابه» وما طرأ عليه

---

(٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ص ١٣ — ١٤ .
(٧) نفس المرجع ، ص ١١ .
(٨) نفس الموضع .
(٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٢ .

من تحول ، خصوصاً وأن هذا التحول الذى طرأ على النظام إنما يكشف عن تحول فى العلاقة بين «الكلمات والأشياء» أو بين اللغة والوجود .

استحالة المشاكلة (أو التشابه) : Les mutations de la ressemblance

اعتقد فوكوه أن اللغة فى صورتها الأولى ، عندما أعطاها الله للانسان ، كانت رمزاً شفافاً ومعبراً عن الأشياء لأنها كانت تشبه الأشياء . فالأسماء وضعت فوق مسمياتها تماماً كما كتبت القوة فى جسم الأسد والملك فى نظرة النسر وتأثير الكواكب على جباه البشر . ويرى فوكوه أن هذه الشفافية قد تبددت بعد طوفان بابل عقاباً للبشر ، ولم تتعدد اللغات وتفترق بعد ذلك إلا بعد أن تبدد هذا التشابه مع الأشياء . ومع ذلك ، فإن كل اللغات التى نعرفها الآن ما كان لنا أن نتواصل بها إلا على أساس من هذا التشابه الضائع وفى الفراغ الذى تركه (١٠).

عصر النهضة :

وإذا انعدم التشابه المباشر بين اللغة وبين الأشياء التى تسميها . فإن هذا لا يعنى انفصال اللغة عن العالم : ويستشهد فوكوه بما لا حظه أحد كتاب عصر النهضة (١١) من أن العبرانيين les hébreux والمصريين والعرب والأتراك والفرس والتتار يكتبون جميعاً من اليمين إلى اليسار ، وهم فى هذا يتفقون مع الحركة اليومية للسماء الأولى وهى أكثر الحركات اكتمالا عند أرسطو . كما أن الاغريق واللاتين وسائر الأوربيين يكتبون من اليسار إلى اليمين وفق حركة السماء الثانية المكونة من سبع كواكب . أما الهنود والصينيون واليابانيون

(١٠) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥١ .

(١١) Claude DURET "Trésor de l'histoire des langues" (Cologne, 1613).

ذكره فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٢ .

فهم يكتبون من أعلى إلى أسفل وفقاً لنظام الطبيعة الذى أعطى للانسان الرأس من أعلى والقدمين من أسفل . وعلى عكسهم كتب المكسيكيون من أسفل أعلى أو فى خطوط حلزونية طبقا للمسار السنوى للشمس حول دائرة البروج le zodiaque . ومن هذه الملاحظة يتضح أن اللغات فى هندستها المادية إنما تعبر عن العالم بسمائه وأرضه ، كما يتضح أن البحث عن الوظيفة الرمزية ينصب على اللغة بوجه عام وعلاقتها الكلية بالعالم فى مجموعة .

وعلى أى حال ، فإن التقاء اللغة بالأشياء فى عالم مشترك ، إنما يفترض ميزة مطلقة للكتابة privilège de l'écriture سادت على وجه الخصوص فى عصر النهضة بسبب ظهور المطبعة وانتقال المخطوطات الشرقية المكتوبة باليد إلى أوربا والاهتمام بتفسير النصوص الدينية . ولذا فإن ما تتصف به طبيعة اللغة فى ذلك العصر هو أن تكون مكتوبة ، أما الصوتيات فهى ليست سوى ترجمة مرحلية ومؤقتة للغة . فالله قد أنزل إلى العالم نصوصاً وكلمات مكتوبة : أما آدم فلم يفعل سوى قراءة العلامات المرئية الصامتة التى أنزلها الله كأسماء لمسميات هى الأشياء والحيوانات . ويضاف إلى ذلك أن القانون الإلهى مكتوب فى اللوح المحفوظ والكلم الحق موجود بالكتاب المقدس وليس فى ذاكرة البشر . وهذا ما دعا بعض مؤرخى القرن السادس عشر إلى أن يقرر صراحة بأن النص المكتوب كان دائماً يسبق القول الشفهى سواء أكان هذا السبق فى الطبيعة ذاتها أو فى معرفة البشر (١٢) . ومهما يكن من شىء ، فقد كانت الطبيعة ذاتها فى القرن السادس عشر نسيجاً متشابكاً من الكلمات والعلامات والروايات

---

(١٢) « الكلمات والأشياء » ، ص ص ٥٣ — ٥٤ .

والصفات والأقوال والصور التى تكون فى مجموعها استعداداً معرفياً une disposition de l'épistémè مميزاً لعصر النهضة .

ومن أمثلة ذلك ما نجده ؛ عند عالم طبيعى هو ألدروفاندى Aldrovandi من خليط متداخل من الوصف المضبوط والنصوص المنقولة والروايات التى لم تخضع لأى نقد والملاحظات العابرة عن تشريح حيوان أو عن مسكنه أو عن مدى استفادة علم الطب من هذا الحيوان ، وكذلك مكانه عند السحرة. وهذا ما دعا أحد علماء القرن الثامن عشر هو بيفون Buffon إلى التساؤل عن قيمة ما تقدمه مثل هذه الكتابات لعلم التاريخ الطبيعى ، خصوصاً وأن معظمها ليس وصفاً بل نسج خيال Une légende (١٣) . وهنا يقول فوكوه أن كلمة legenda عند ألدروفاندى ومعاصريه تعنى أى شىء يقرأ . كما أن معرفة أى شىء فى ذلك العصر ، سواء أكان حيواناً أو نباتاً أو جماداً ، هى عبارة عن جمع تلك الطبقة السميكة من الرموز التى التى انبثقت عن هذا الشىء أو ظهرت بخصوصه . كما يرى فوكوه كذلك أن ألدروفاندى كملاحظ لم يكن أقل شأناً من بيفون ، كما أنه لم يكن أكثر ميلا نحو تصديق كل ما يقال له أو أقل اهتماماً بالأمانة العلمية التى تتطلب تدقيق النظر . إن الاختلاف بين الرجلين إنما يرد فى النهاية إلى أن نظرة كل منهما لا يربطها بالأشياء نفس النسق système أو نفس الاتجاه المعرفى la même épistémè.

ونلاحظ بهذا الصدد أن التحليل الأركيولوجى يتفق مع سائر الاتجاهات البنائية فى النظر إلى مختلف الثقافات ومختلف الشعوب على قدم المساواة .

---

(١٣) ألدروفاندى هو عالم نبات ايطالى (١٥٢٢ - ١٦٠٥) . أما بيفون فهو عالم طبيعى وكاتب فرنسى (١٧٠٧ - ١٧٨٨).

فليس هناك فكر ساذج فى عصر النهضة مقابل فكر أكثر تقدماً فى عصر عصر لا حق ، وليس هناك مرحلة سابقة على المنطق مقابل مرحلة الفكر المنطقى . و هذه النتائج تلزم بالضرورة عند البنائيين من الاعتراف بطبيعة إنسانية واحدة كما تلزم عن الأخذ بفكرة البناء باعتباره نسقاً لا يكون الفكر سوى عنصر من عناصره .

إن ما يكون حقيقة المعرفة فى عصر النهضة هو أنها لم تكن ملاحظة أو برهنة وإنما كانت تفسيراً (أو تأويلا) interprétation . فمن تعليقات على النصوص القديمة إلى أخرى عن القدماء أنفسهم ، ومن تعليقات على ما ينقله الرحالة إلى تعليقات على القصص والأساطير . أى أنها كانت باختصار انتقالا من لغة إلى لغة ، أو أن اللغة كانت تملك بداخلها مبدأ تضاعفها principe intérieur de prolifération .

ويستشهد فوكوه على ذلك بعبارة لمنتنى تقول : «لدينا نحو تفسير التفسيرات أكثر مما لدينا نحو تفسير الأشياء . كما أن لدينا الكثير من الكتب التى ينصب مضمونها على كتب أخرى بدلا من معالجته لموضوعات جديدة . إن ما نفعله ليس سوى نقد وتعليق ذاتيين » (١٤) .

ويرى فوكوه أن هذا النص يكشف عن علاقة داخلية اشتملتها لغة القرن السادس عشر ، وهذه العلاقة تضمن وجود حركة دائبة داخل اللغة تجعلها فى نمو مطرد لا يتوقف . فالحقيقة لا تتكشف إلا فى كلام يأتى مستقبلا ، وهذا الأخير لا يملك التوقف والانغلاق على ذاته . غير أن هناك حركة

---

(١٤) (14) Montaigne, Essais, Livre III, Chap. XIII.
ذكره فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٥ .

مرتدة تكشف تحت المقال موضوع النظر مقالا آخر أكثر أهمية هو النص الأول Texte primitif الذى تدور حوله جميع التفسيرات رغم تعددها. إن هذا النص الأول هو الكتابة التى تتجسد العالم l'écriture qui fait corps avec le monde والتى تتحدث ابتداء منها إلى مالا نهاية ، فتتعدد أنماط المقال رغم أن كل نمط منها يتوجه إلى تلك الكتابة الأولى على اعتبار أنها المقصد النهائى والأمل فى العودة (١٥) . أى أننا أمام حركة دائرية أو كروية ، كانت هى السمة المميزة للمعرفة فى عصر النهضة .

لم تكن اللغة فى القرن السادس عشر إذن عبارة عن مجموع من الرموز المستقلة الموحدة النمط والشكل بحيث تنعكس فيها الأشياء كما تنعكس فى مرآة بغية انكشاف حقيقتها ، بل إنها كانت على الأحرى ذات طبيعة معتمة وغامضة ومغلقة حول ذاتها وتختلط بصور العالم وتتداخل معها (١٦). إنها كانت جزءاً من الطبيعة ، كما أن لعناصرها ما للحيوانات والنباتات والنجوم من قوانين حتمية للتوافق lois d'affinité . فنجد مثلا أن راموس Ramus قد قسم منطقه إلى قسمين . أما القسم الأول فقد كرسه لدراسة أصول الكلمات l'étymologie لابقصد الكشف عن معناها الأصلى بل بقصد الكشف عن خصائص أحرف الهجاء ومقاطع الكلمات . وأما القسم الثانى ، فقد اختص بالقواعد syntaxe ويدرس البناء اللغوى المركب بواسطة الكلمات وبالقياس إلى خصائصها . ولم تكن دعامة البحث اللغوى عند راموس هو كم المعنى الذى تنقله اللغة ، بل ما يكمن من أهمية فى المقاطع لذاتها syllabes ، وأيضاً فى أحرف الهجاء lettres ، مما يجعلنا نقارنها

---

(١٥) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٦ .
(١٦) نفس المرجع ، ص ٤٩ .

بالأشياء فى العالم حين يكون بينها تجاذب أو تنافر (١٧).

وفى الحقيقة ، لقد كان الترابط بين الأشياء وبين كلمات اللغة من أهم خصائص الحقبة المعرفية لعصر النهضة . وهذا يعنى أن نسق الرموز كان ثلاثياً حتى بداية العصر الكلاسيكى ، غير أن فوكوه لا يفوته أن يقرر بأن بدايات هذا النسق الثلاثى قد ظهرت فى العالم الغربى قبل ذلك بكثير ، ابتداء من الفلسفة الرواقية . وقد كانت عناصر النسق الرواقى تتضمن :

أ) الكلام (حروف ملفوظة أو مكتوبة)

ب) مدلول الكلام (مضمون الفكر) .

جـ) موضوع الكلام (وهو الشىء المشخص الموجود فى العالم الخارجى)(١٨).

أما عناصر النسق الثلاثى ternaire فى عصر النهضة ، فإنها كما يبين فوكوه ، تبدأ بمجال صورى للعلامات des marques (هى الحروف الملفوظة أو المكتوبة) ، وهذه العلامات تشير إلى مضمون contenu (هو الشىء المشخص الموجود فى العالم الخارجى) ، كما يستند إلى تماثل similitude (هو المدلول) يربط العلامات بالأشياء المعنية choses désignées .

ويرى فوكوه أن التجربة اللغوية فى عصر النهضة قد شهدت أيضاً صورة معكوسة لنفس هذا النسق : فاللغة توجد أولا فى شكلها الخام والبدائى وتتخذ صورة بسيطة ومادية للكتابة باعتبارها علامة على الأشياء الموجودة فى العالم

---

(١٧) نفس المرجع ، ص ص ٥٠ — ٥١ .

أما راموس فهو فيلسوف وعالم نحو فرنسى (١٥١٥ — ١٥٧٢) ، تحول إلى الديانة البروتستانتية ، وكان يبحث — فى العقل — عن معيار الحقيقة ، وكان فى ذلك ممهداً للأفكار الديكارتية .

(١٨) الدكتور عثمان أمين : « الفلسفة الرواقية » ، (مكتبة الأنجلو سنة ١٩٧١) ، ص ١٢٤ .

(وهنا يظهر التماثل Similitude ، وهو ما يعبر عنه فوكوه بكتابة أشياء العالم l'écriture des choses du monde . ثم لا يلبث أن يتولد عن هذه الكتابة صورتان للمقال ، الأولى هي نص التعليق texte du commentaire على هذه الكتابة ، أما الثانية فهي نص افتراضي يوجد تحت العلامات المرئية للجميع ، وتفترض أولويته وأصالته ، ويشرحه التعليق (١٩).

Texte supposé originaire et que le commentaire interprète.

ومن هنا نجد مستويات ثلاثة للغة تبدأ من كينونة واحدة للكتابة L'être unique de l'écriture كما نجد أن وحدة المقال لا تتناقض مع الثالوث la trinité الذى تنقسم اليه .

وتلخص آنجيل ماريتي ما تصوره فوكوه عن شكل المعرفة فى عصر النهضة فتقول :

«كان خليط الكلمات والأشياء يسبح فى وسط كونى
un milieu cosmique مقدس ومتشابك العناصر .
كل عنصر فيه يسمح بالمرور إلى الكل ، كما يسمح
بالمرور إلى أى عنصر آخر . وهنا تتجلى ظاهرة المشاركة
participation كما يظهر التماثل Similitude »(٢٠).

غير أن التشابه الذى كان تماثلا فى عصر النهضة سيتحول إلى تطابق identité وتغاير différence فى العصر الكلاسيكى . مما يتسبب فى ظهور تصورات جديدة وموضوعات جديدة أيضاً .

---

(١٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٧ .

(٢٠) Angèle KREMER-MARIETTI "Michel FOUCAULT" Op. Cit., P. 53.

العصر الكلاسيكي :

إذا كان المقال فى القرن السادس عشر يتأرجح بين الوحدة والثالوث ، فإن العصر الكلاسيكي قد تميز بنسق للغة ليس ثلاثياً بل ثنائياً binaire ، ويتصف بأنه امتثالى représentatif ولا يرتبط بالعالم* désancré du mond ويرد إلى مجموع من الرموز signes التى تخضع لعلاقة الدال بالمدلول . وإذا كان القرن السادس عشر يسأل : كيف يمكن التأكد من أن نسق العلامات يتطابق مع ما يشير اليه . فإن تساؤل العصر الكلاسيكي هو : كيف يمكن التأكد من أن الرمز يرتبط بمدلوله ؟ .

ويحدد فوكوه صورة الاستعداد المعرفى السائد فى العصر الكلاسيكى فيقول : «إنها محاولة لتكوين علم عام للنظام ، ونظرية فى الرموز تحلل الامتثال ، واتجاه نحو عمل قوائم تنظيمية للعناصر المتطابقة والمتغايرة » (٢١).

وإذا كان الحديث عن حالة المعرفة فى العصر الكلاسيكى لابد وأن يتطرق إلى الحديث عن المقال الديكارتى باعتباره بادرة التحول وبداية حقبة منطوقية جديدة إلا أن «الديكارتيه» لم تكن القوة الكبرى التى عملت على تدعيم أسس هذا المجال الجديد . وإنما كانت — فى نظر فوكوه — مجرد انعكاس له ، إن لم نقل مجرد تعبير عنه (٢٢) .

ومهما كان من شيء ، فإن المتأمل لنصوص «التأملات الديكارتية» يجدها حافلة بالنظر فى علاقة الدال بالمدلول ، أى علاقة الكلمات بمدلولاتها وهى المسألة التى شغلت علماء النحو فى القرن السابع عشر ، كما يجدها

---

(٢١) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٦ .

(٢٢) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٤٣ . .

تكشف عن اختلاف فى الطبيعة بين الأفكار يماثل اختلاف العلاقات الممكنة بين الأشياء . والتأملات الديكارتيه لا تختلف فى هذا كثيراً عما أورده مناطقة البور روايال فى هذا الشأن .

يقول ديكارت فى التأمل الثالث :

«... إذا أخذت هذه الأفكار من حيث أنها أنحاء من أنحاء التفكير فحسب . فإنى لا أرى بينها فرقاً ولا تبايناً ، وإنما تبدو لى كلها صادرة عنى على نمط واحد . ولكن إذا اعتبرتها صوراً للأشياء بعضها يمثل شيئاً وبعضها يمثل شيئاً آخر ، فبديهى أنها تكون متباينة جداً . ... ثم إن الفكرة التى بها أتصور إلها . له العزة والملك ، أزلياً . لا متناهياً ، منزها عن التغير . عالماً بكل شىء ، قادراً على كل شىء . خالقاً لجميع الأشياء الخارجة عن ذاته — أقول أن هذه الفكرة على التحقيق تملك فى ذاتها وجوداً موضوعياً أكثر مما تملك الأفكار التى تمثل لى الجواهر المتناهية .» (٢٣).

ويتبين من هذا النص أن الأفكار صور للأشياء ، وهى تختلف كاختلاف الأشياء . كما يتبين أن للافكار وجوداً موضوعياً ، و أن أكثرها مفارقة هو أكثرها موضوعية . وفى موضع لاحق من التأمل الثالث يقول ديكارت :

«يجب أن نذكر أن كل فكرة لما كانت عملا من أعمال

(٢٣) ديكارت : «التأملات فى الفلسفة الأولى» ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، (مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٥١) ، ص ص ١٣٣ — ١٣٤ .

الذهن فطبيعتها لاتتطلب من ذاتها أى وجود صورى
سوى الوجود الذى تتلقاه وتستفيده من الفكر أو الذهن
فما هى إلا حال من أحواله أى نمط أو نحو من أنحاء
التفكير » (٢٤).

ويقول أيضاً فى نفس التأمل :

« ... فالنور الفطرى يرشدنى إلى أن أعرف معرفة
بديهية أن الأفكار فى نفسى أشبه بلوحات أو صور ،
يمكن أن تقصر عن محاكاة كمال الأشياء التى أخذت
عنها ، ولكن لا يمكن أبداً أن تحوى شيئاً أعظم وأكمل
منهـــا . » (٢٥).

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم أن العصر الكلاسيكي يلبس المقال ثوباً وأنطولوجياً . فاللوحات أو الصور التى يتحدث عنها النص هنا ليست سوى طرق متعددة للدلالة على وجود أشياء ، كما أن المقال يهدف إلى تسمية الأشياء بلفظ يشير إلى كينونتها . ويظهر أيضاً مما تقدم أن هناك تآزراً بين تحليل اللغة وتحليل الفكر . «فالقضية بالنسبة للغة هى كالتمثل بالنسبة للفكر» (٢٦).

La proposition est au langage ce que la représentation est à la pensée.

والكلمات لا ينظر اليها على أنها القشرة الرقيقة la mince pellicule التى تسير موازية للفكر من خارجه ، بل إنها استدعاء للفكر وايضاح لأعماقه (٢٧).

---

(٢٤) نفس المرجع ، ص ص ١٢٧ – ١٢٨ .
(٢٥) نفس المرجع ، ص ١٢٩ .
(٢٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٠٧ .
(٢٧) نفس المرجع ، ص ٩٢ .

ويضاف إلى ذلك أن فعل الكينونة كان دعامة أساسية لعلم النحو والفلسفة معاً . فهو الذى يسمى كينونة الامتثال Il nomme l'être de la représentation وهو الذى يسمح بربط نسق الرموز ككل كما يسمح بربطه بالأشياء ، أى أنه يسمح بربط الدال بالمدلول . يقول فوكوه : «إن لم تكن هناك وسيلة للتعبير عن الكينونة ، فلا وجود إذن اللغة . ومع ذلك فإن فعل الكينونة لا وجود له بدون اللغة لأنه جزء منها »(٢٨).

وبناء على ما تقدم ، فإن المعرفة لم تعد قائمة على مقولات شبيهة بالمقولات الأرسطية ؛(٢٩)فقد أصبحنا الآن بصدد ابستمولوجيا الصور Une épistémologie des formes وهى التىتقوم على مستويات للامتثال قابلة للتحليل والتركيب وإعادة التنظيم .

الماتيسيس والتاكسينوميا :

إذا كان العصر الكلاسيكى قد اشتهر بأنه يفصل النفس عن المادة والروح عن الجسد ، فإنه كذلك يقوم بفصل اللغة عن العالم والكلمات عن الأشياء . ولم تعد هناك أولوية لما يكتب : « فالعين ستخصص للرؤية ، والرؤية فقط . أما الأذن فإنها ستسمع فقط » (٣٠).

لم يكن من المدهش فى العصر الكلاسيكى إذن ، أن انتقلت الشفافية من

---

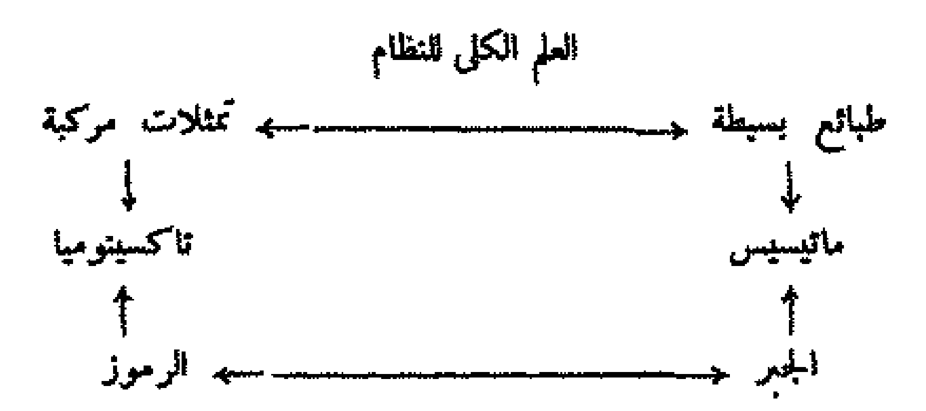
(٢٨) نفس المرجع ، ص ١٠٩ .

(٢٩) المقولات الأرسطية هى أوائل المحمولات أو أجناسها العليا ، وهى تمثل وجوه الوجود المختلفة .

راجع : يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة اليونانية» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر)سنة ١٩٥٣ ، ص ١٢٠ .

(٣٠) «الكلمات والأشياء» ، ص ٥٨ .

العالم إلى المقال ، وقد كانت السيادة فى هذا العصر لمفهو مين أساسيين هما الرمز signe والنظام ordre .أما العلوم التى كانت تتناول ما أسماه ديكارت بالطبائع البسيطة «فإنها كانت تلجأ للرياضيات الكلية Mathesis Universalis ولمنهجها العام وهو الجبر . وأما العلوم التى تدرس «الطبائع المركبة» (وهى العلوم التى يكون موضوعها بمثابة التقاء بين التمثل والتجربة) ، فإنها كانت تلجأ لمنهج التصنيف Taxinomia الذى يعتمد على نسق الرموز . ولقد كانت نسبة الرموز للطبائع المركبة كنسبة الجبر للطبائع البسيطة. فالرموز التى يضعها الفكر تكون جبراً للتمثلات المركبة (٣١) . ومن هنا كانت العلاقة الوثيقة بين الرياضيات العامة وبين منهج التصنيف ، مما جعل المعرفة فى العصر الكلاسيكى تجتمع تحت مثل أعلى تنطبع بطابعه ، ألا وهو العلم الكلى للنظام La science générale de l'Ordre. ونجد بكتاب « الكلمات والأشياء» توضيحاً لذلك كما يلى : (٣٢).



وقد كان فوكوه يهدف إلى بيان إمكانية رد التمثلات الأمبريقية إلى طبائع بسيطة ، وبالتالى رد «التاكسينومياء إلى «الماثيسيس» . ولما كان

---

(٣١) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٦ .

(٣٢) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٧ .

إدراك البداهات les évidences ليس سوى حالة خاصة للامتثال بوجه عام ، لذا ، فإنه من الممكن القول كذلك بأن «الماتيسيس» ليس سوى حالة جزئية «للتاكسينوميا» .

ويرى فوكوه أن منهج التصنيف أو التاكسينوميا إنما يتضمن نوعاً من الاتصال بين الأشياء Un certain continuum des choses . وعلى ذلك فإن العلوم التجريبية يمكنها أن تكشف بالتحليل أن الاتصال المطموس للكينونة la continuité brouillée de l'être يمكن استعادته من خلال الرابطة الزمانية le lien temporel للامتثالات . ومن هنا كان البحث فى أصل المعرفة هو المبدأ السائد طوال العصر الكلاسيكى (٣٣).

وإذا أردنا أن نحدد ابستميه العصر الكلاسيكى فى كلمات بسيطة ، فاننا نقول أنه من ناحية «كانت تطبق رموز « العمليات الممكنة » على الأشياء المتطابقة أو المختلفة» (٣٤) .

On utilise les symboles des opérations possibles sur des identités et des différe nces.

(وعلى سبيل المثال ، فقد ظهر أثر ذلك فى الأبحاث الطبية فى ذلك العصر . لأن هذه الأبحاث — بسبب «تصنيفها للأمراض » — كانت تطبق نفس العلاج لمجرد ظهور نفس الأعراض على أى عضو من أعضاء الجسم ، وكانت فى ذلك تتجاهل وحدة الكائن الحى .) (٣٥) ومن ناحية أخرى «كانت تحلل العلامات التى تتواتر باستمرار من جراء تشابه الأشياء وبفعل الخيال »(٣٦)

(٣٣) نفس الموضع . ونلاحظ أن البحث عن الأصل يفترض دائماً الاعتراف بالاستمرار التاريخى . .

(٣٤) نفس الموضع .

(٣٥) سيتضح ذلك فى الفصل الخاص بنشأة علم الطب .

(٣٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٧.

(فمثلا كان الاعتقاد فى اطراد الطبيعة يترتب عليه الاعتقاد فى تولد نفس المعلولات عن العلل المتشابهة ، كما يحث على تخيل صدور نفس المعلولات عن نفس العلل) .

وإذا تخيلنا عناصر المعرفة المختلفة فى العصر الكلاسيكى داخل لوحة تنتظمها ، فإن اطار هذه اللوحة يكون هو الحساب والأصل le calcul et la genèse .

إن الرموز داخل هذه اللوحة إنما تسمح بتكوين نسق آنى un système simultané تتقارب فيه الامتثالات وتتباعد ، وتظهر فيه عناصر التطابق والاختلاف des identités et des différences . وداخل هذه اللوحة نجد علم التاريخ الطبيعى ، وهو علم يدرس صفات الكائنات science des caractères ويؤمن باتصال الطبيعة وتداخل عناصرها . وداخل هذه اللوحة أيضاً ، نجد نظرية العملة والقيمة la théorie de la monnaie et de la valeur وهو علم الرموز التى تسمح بالتبادل l'échange . ونجد داخل اللوحة كذلك علم النحو العام ، وهو علم الرموز التى تسمح بتجميع المدركات الجزئية كما تقوم بضبط حركة الفكر (٣٧) .

إن هذه المجالات الثلاثة ، على الرغم من تباينها . ما كان لها أن تظهر فى العصر الكلاسيكى إلا بفضل الإطار العام للوحة الذى يتكون من حساب المتساويات وأصل الامتثالات (٣٨)

le calcul des égalités et la genèse des représentations.

ويرى فوكوه أن مفاهيم الماتيسيس والتاكسينوميا والأصل لا تشير إلى

---

(٣٧) «الكلمات والأشياء» ، ص ٨٨ .
(٣٨) نفس الموضع .

مجالات منفصلة بقدرما تشير إلى شبكة قوية من الخصائص المتداخلة appartenances التى تعرف الشكل العام للمعرفة فى العصر الكلاسيكى . فالتكسينوميا لا تتعارض مع الماتيسيس لأنها هى أيضاً علم النظام . إنها ماتيسيس وصفية Mathesis qualitatives .

إن الماتيسيس هى علم المساويات science des égalités أى الحمليات des attributions والأحكام des jugements . أنها علم الحقيقة la science de la vérité . وكان . فوكوه فى موضع سابق يصرح بأن «الماتيسيس هى علم النظام المحسوب «science de l'ordre claculable" .

أما التاكسينوميا فانها تختص بمقولة التطابق والتغاير . إنها علم الفئات والتصنيف ، ومنهج للوصول إلى معرفة الكائنات . وأما الأصل ، فإنه متضمن فى التاكسينوميا ، أو أنه يجد فيها على الأقل إمكانية تطبيقه . وهو تحليل لحالات النظام المتكونة وذلك ابتداء من حالات أمبيريقية متتالية ؛ والفرق بينه وبين التاكسينوميا هو أنه يفترض تسلسلا متتالياً قد لايكون مرئياً ، فى حين أن التاكسينوميا تنظم لوحة من الاختلافات المرئية. والأصل قد لايكون مرئياً ، فى حين أن التاكسينوميا تنظم لوحة من الاختلافات المرئية . والأصل يدرس الرموز موزعة فى الزمان ، أما التاكسينوميا فإنها تتناولها فى آنية مكانية simultanéité spatiale (٣٩) .

وترى الباحثة آنجيل ماريتى أنه من الممكن أن نلتمس تبريراً لهذه النتائج التى توصل اليها فوكوه وذلك بالرجوع إلى كتابات ديكارت وخاصة «التأملات الميتافيزيقية» .

---

(٣٩) نفس الموضع .

ففى التأمل الأول نجد ديكارت يستبعد الأشياء التى يمكن أن توضع موضع الشك، ويأتى فى مقدمة هذه الأشياء ما كان منها أكثر تعقيداً ، وما ارتبط بعلوم كان حظها من اليقين ضئيلا مثل الفيزياء وعلم الفلك والطب. وعلى عكس الأشياء المعقدة نجد الأشياء البسيطة ترتبط بعلوم تتصف باليقين مثل علم الحساب والهندسة • ومع ذلك ، فإن الأشياء البسيطة ستوضع موضع الشك أيضاً لافتراض وجود الشيطان الماكر ، وهنا يرتد الامتثال إلى أدنى درجة وهى الشك .

غير أنه ابتداء من الشك نجد أن كينونة الكوجيتو ستنمو وتتحول إلى امتثال مستقل فى ذاته هو أساس ودعامة المتمثل المفارق . support du représenté séparé أى دعامة المقال العلمى نفسه .

، وترى الباحثة آنجيل أن النفس الانسانية ستصبح مجالا مفارقاً للمتمثل sphère séparée du représenté وذلك طبقاً لعنوان التأمل الثانى وهو «فى طبيعة النفس الإنسانية وأن معرفتها أيسر من معرفة الجسم» . لأنه إذا كانت معرفة النفس أكثر يسراً ، فهذا يعنى أن المقال يتكون ابتداء منها . ونحن نعلم أن المعرفة العلمية عند ديكارت هى مقال مفارق للأشياء un discours séparé des choses.

يقول ديكارت فى التأمل الثانى :

> « إن القضية «أنا كائن وأنا موجود» قضية صحيحة بالضرورة كلما نطقت بها وكلما تصورتها فى ذهنى» •

وترى آنجيل أن فى هذه القضية بداية المقال العلمى المفارق للأشياء(٤٠) •

---

(40) Angèle KREMER-MARIETTI : "Foucault" Op. Cit., (٤٠) P. 62.

وهنا نلاحظ أن الأشياء les choses تختفي من الأفق المعرفي كي تترك مكانها للكلمات les mots . غير أن هذه الكلمات الجديدة يتميز اليقين فيها بالشفافية ، وهذا هو شرط انتمائها إلى الامتثال الديكارتي : وهو امتثال معدل ومنتقى épuré ومصحح . وهذا الانتقاء وذلك التصحيح هما شرطا قبول ما كان يسمى حتى الآن «بالأشياء» بعد تعديله بفضل مفاهيم مفارقة séparées ، بسيطة أو مركبة . وهذا التعديل هو بمثابة مقدمة للمقال العلمي .

إن الفقرة الخاصة بقطعة الشمع في التأمل الثاني هي التي توضح الانتقال المشروع من التاكسينوميا إلى الماتيسيس حسبما يرى فوكوه . إذ عندمايبدأ ديكارت في هذه الفقرة بوصف عدد من الخصائص الملاحظة لقطعة الشمع ، فلاشك أنه بهذا إنما يستخدم مقالا للطبائع المركبة. وتلك الأخيرة لا يتكشف معناها إلا بما لها من علاقات مع الطبائع البسيطة . ولا شك أن المقال الذي ينصب على هذه الطبائع البسيطة لايعتمد على الحواس بل على التفكير والعقل. كما أن كينونة التمثل هي المؤسسة لكينونة الادراك الحسي . فالا متداد بالنسبة لقطعة الشمع هو وحده الذي يبرر الصفات الملاحظة بالادراك. وهذه الأخيرة لا تصبح ذات قيمة علمية إلا بعلاقتها بمفهوم الامتداد وهو المفهوم الهندسي للمكان . ولقد كان ديكارت يعتبر اللغة مدخلا إلى العلم . يقول ديكارت :

> «إن الواجب على من تكون بغيته الارتفاع إلى معرفة تجاوز مرتبة العامة أن يتورع عن أن يلتمس في صيغ الكلام التي ابتدعتها العامة مظان للشبهات ومواطن للشك» (٤١).

---

(٤١) ديكارت : «التأملات في الفلسفة الأولى» ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، ص ١٠٠ .

وهذا يعنى أن لغة العلم إنما تتجاوز صيغ الكلام العادية . إنها لغة جديدة شفافة لا تختلط بلغة الحس ، كما أنها تتضمن فى ذاتها معيار يقينها .

غير أننا ينبغى أن نلاحظ مع ميشيل فوكوه أن اللغة عند ديكارت خاصة وفى العصر الكلاسيكى بوجه عام لا تمثل قطاعاً تاريخياً يسمح بنمط غير محدد من التعقل أو التفكير . إنها تمثل بالأحرى «مجالا للتحليل يتحدد بداخله مسار الزمان والمعرفة الانسانية»(٤٢). وهذا يعنى أننا بصدد مجال مغلق ، يتعذر بسببه نمو المعرفة ، لأنه سيكون علوماً ذات صبغة دوجمائيقية أى ايقانية dogmatiques ، كما ينبثق عنه فلسفة للتمثل تحولت بمضى الوقت إلى فلسفة إسمية nominaliste وشكية sceptique (٤٣).
يقول فوكوه :

«إن الاتجاه العلمى فى العصر الكلاسيكى لم يحدث فى تاريخ الفكر أى تغير ، كما أنه لم يضف أى جديد إلى مسار المعرفة» (٤٤).

ولكى يبرر فوكوه هذا الرأى عن حالة العلوم الكلاسيكية ، فإنه يتناول بالدراسة ثلاثة منها هى علم النحو العام والتاريخ الطبيعى والاقتصاد . وقد وقع الاختيار عليها لأن التحليل فيها يكون أكثر وضوحاً .

علم النحو العام : La grammaire générale

رأينا فيما تقدم عن العصر الكلاسيكى أن التحليل يرد المعرفة فى هذا

---

(٤٢) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٢٥ .
(٤٣) نفس المرجع ، ص ٨٨.
(٤٤) نفس المرجع ، ص ١٠٢.

العصر إلى نظرية عامة للرموز والتمثل. غير أن تحليل عملية التمثل هو رهن بوجود المقال وتأكيد لكينونته . كما أن اللغة ليست أداة اتصال بين الأفراد فحسب بل هي أيضاً الطريق الذي يؤدي حتما إلى ربط التمثل بالتفكير . ولهذا فإن علم النحو كان له أهمية كبيرة في الفلسفة خلال العصر الكلاسيكي لأنه أول تحليل متعمد للفكر وأول قطيعة مع المباشر rupture avec l'immédiat . إنه منطق تلقائي للنفس أو فلسفة تتلاءم معها . بل إن كل فلسفة عليها أن تستند اليه إن أرادت أن تعثر على النظام الضروري والمتميز للتمثل (٤٥) .

إن علم النحو العام هو دراسة للنظام اللغوي باعتباره تتابعاً لرموز لغوية. وهذا التتابع ليس هو هو ذاته في جميع اللغات ، إذ أن بعضها يضع الحدث في وسط الجملة وأحياناً في آخرها . والبعض يبدأ بالموضوع الرئيسي للتمثل ، أما البعض الآخر فيبدأ بالملابسات الثانوية ... الخ .

ونلاحظ أن علم النحو العام من حيث هو تفكير ينصب على اللغة بوجه عام إنما يظهر علاقة هذه الأخيرة بفكرة العمومية universalité . فاللغة الكلية أو العامة في العصر الكلاسيكي هي اللغة التي يمكنها أن توفر لكل تمثل ، ولكل عنصر من عناصر التمثل ، الرمز الذي يظهره بطريقة أكيدة. وكان العصر الكلاسيكي يفترض في هذه اللغة القدرة على توفير الرموز المناسبة لكل التمثلات أيا كانت ، وأيضاً إقامة جميع الروابط الممكنة بينها (٤٦). وحيث أن اللغة يمكنها أن تستوعب جميع التمثلات ، فإنها تحقق شرط للعمومية أو للكلي L'élément de l'universel .

---

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٩٨ .

(٤٦) نفس المرجع ، ص ص ٩٨ — ١٠٠ .

وقد انتشرت فى العصر الكلاسيكى فكرة الإلمام بكل معرفة عن العالم.« وذلك لأن الابستمولوجيا الكلاسيكية تعتبر أن الوجود موجود ، دون أن لن يكون فيه أى موضع للعدم ، وبالتالى أن فى الامكان تمثله ، دون أن تكون هذه الامكانية مشوبة بأدنى شائبة ، أو متخللة بأية فجوة ؟ (٤٧) . ومن هنا ظهرت دائرة معارف شاملة فى القرن الثامن عشر تهدف إلى الكشف عن خبايا العالم (٤٨) .

«ولم تكن صفة العمومية فى علم النحو العام تعنى اهتمامه بالبحث عن قوانين نحوية تطبق على كل المجالات اللغوية وتظهر ، فى وحدة مثالية وملزمة contraignante ، بنية كل لغة ممكنة . إن العمومية فى هذا العلم إنما تعنى ما يزعمه من قدرة على اظهار الوظيفة التمثلية للمقال ، تلك الوظيفة التى تكمن وراء القواعد النحوية » (٤٩) .

وإذا كان علم النحو العام يدرس الوظيفة التمثلية للكلمات وعلاقة الكلمات بعضها ببعض ، فإنه يقترح أولا تحليل الرابطة أى دراسة نظرية القضية ثم نظرية الفعل théorie du verbe ، ثم يقترح ثانيا تحليل الأنماط العديدة للكلمات وكيفية التعبير عن التمثلات (٥٠) . وقد ترتب على ذلك أن «بقى «علم النحو العام» — فى ظل العصر الكلاسيكى — مجرد «منطق» ، دون أن يصبح فى وسعه التعرض لدراسة المشكلة الفينومينولوجية الخاصة بالتواصل بين الذوات ... كما أنه لم يكن ينطوى على أية دراسة سيكولوجية للغة » (٥١) .

يقول فوكوه :

---

(٤٧) زكريا ابراهيم : « مشكلة البنية » ، ص ١٤٨ .
(٤٨) أنشأها دالامبير وديدرو (١٧٥١ — ١٧٧٢) .
(٤٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٠٦ .
(٥٠) نفس الموضع .
(٥١) زكريا ابراهيم : « مشكلة البنية » ، ص ١٤٥ .

وإن فلاسفة البور روايال قد أتوا بعلم للنحو ليس سوى تكملة أو امتداد طبيعى لمنطقهم . فالمنطق وعلم النحو عندهم يشتركان فى تحليل الرموز »(٥٢) .

علم التاريخ الطبيعى L'Histoire naturelle:

كان فوكوه يحرص على أن يبين أن هناك «وحدة نسقية» مشتركة هى التى تجمع بين مختلف العلوم الكلاسيكية . فكما أن علوم اللغة كانت تهتم بالنظام الداخلى للكلمات وتنظر إلى الزمان على أنه نمط داخلى للتحليل دون أن يكون له أية قوة تاريخية دافعة ، كذلك كان الحال بالنسبة لعلوم الحياة فهناك وجود لكائنات حية تظهر من خلال شبكة معرفية كونها علم التاريخ الطبيعى ، غير أنه لم يكن هناك قوة تاريخية دافعة تسمح بتطور الكائن الحى ، وآية ذلك «أن تاريخ الكائن الحى إن هو إلا تاريخ هذا الكائن ذاته داخل شبكة معرفية تربطه بالعالم » (٥٣).

يقول فوكو » :- .

«إن التطورية l'évolutionnisme لا وجود لها فى الفكر الكلاسيكى . والسبب فى ذلك أن هذا الفكر لم يتصور الزمان كمبدأ تطور للتنظيم الداخلى organisation interne للكائنات الحية ، بل إنه يعتبره مبدأ لثورة ممكنة فى المجال المكانى الخارجى الذى تتواجد فيه هذه الكائنات» (٥٤).

---

(٥٢) «الكلمات والأشياء » ، ص ٩٠ .

(٥٣) نفس المرجع ، ص ١٤١ .

(٥٤) نفس المرجع ، ص ١٦٣ .

وهنا يمكننا أن نلاحظ أن مقال الطبيعة le discours de la nature لا ينفصل عن مجال اللغة والامتثال ، وهو ليس سوى اتجاه أساسي للمعرفة الكلاسيكية يرد معرفة الكائنات إلى امكانية تمثلها في نسق من الأسماء(٥٥)، ويفترض فيما يفترض وجود التصنيف classification وتحليل العناصر المتطابقة والمتغايرة . كما يمكننا أن نلاحظ كذلك أن مجال الامتثال هو الأصل في الكلام والتصنيف معاً l'origine du "parler" et du "classer" ،وأن عنصر الاتصال الموجود في الطبيعة يواكبه في حالة الامتثال اتصال الشعور la continuité de la conscience. ولذا فان اللغة تفترض اتصالا أساسياً وموضوعياً كما أن علم التاريخ الطبيعي في اعداده لقائمة الأنواع والأجناس والفصائل classes يكون لغة يتوقف ظهورها على هذا الاتصال (٥٦).

إن علم التاريخ الطبيعي ليس سوى علم المرئي المنظم وفقاً لبناءات الواقع la science du visible structuré . وهو يهدف إلى البحث عن خصائص مميزة للكائنات دون التعرض لخصائص الحياة . أما أنه لا يتعرض لخصائص الحياة ، فذلك ما يؤكده فوكوه على الرغم مما يدعيه البعض من إمكانية التحدث عما كانت عليه «علوم الحياة» أو «علوم الانسان» في العصر الكلاسيكي ، إذ يقرر فوكوه بأن الانسان والحياة لم يكونا مجالا تلقائياً لاستثارة فضول المعرفة في ذلك العصر (٥٧) .

وإذا كانت « تكسينوميا » العصر الكلاسيكي تعرف العضو l'organe استناداً إلى بنائه sa structure ووظيفته sa fonction ، وإذا كان هذا

---

(٥٥) نفس المرجع ، ص ١٧٠ .
(٥٦) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٧٣ .
(٥٧) نفس المرجع ، ص ٨٦ .

التعريف يفترض أولا التصنيف إلى أنواع وأجناس ثم يهدف إلى رد كل عضو إلى مكانه فى التصنيف وإلى مجال استخدامه ، فإن «ابستميه» العصر الحديث سيعلق أهمية كبرى على الوظيفة. ولقد كان هذا إيذاناً بظهور تحول لا يرد «المشاكلة» أو «التشابه» ressemblance إلى التطابق بل إلى التمثيل analogie ، ومثال هذا الأخير وظيفة الخياشيم للتنفس فى الماء والرئة للتنفس فى الهواء(٥٨). ونلاحظ هنا أن اللغة لم تعد تكفى للإحاطة بالمتغيرات ، وأن المشاهدة أصبحت قاصرة ، لأن التصنيف يعتمد على جانب غير مرئى ، كما نلاحظ أن هذا التحول قد أحل البيولوجيا محل علم التاريخ الطبيعى .

وقد بينت الدراسات فى علم البيولوجيا أنه إذا كانت الوظائف لدى الأنواع المختلفة تمثل اتصالا continuité ، وإذا كان هذا هو الحال كذلك بالنسبة للأعضاء من حيث اكتمالها أو قصورها لدى الكائنات ، فإن هذا الاتصال إنما ينفتح على مجال لعدم الاتصال . ومثال ذلك عدم وجود صور وسطى للحياة بين الفقريات واللافقريات يمكنها أن تضمن الانتقال أو الاتصال بين فئتيها .

وعلى كل حال ، فإن الأفكار البيولوجية الجديدة قد قضت على فكرة الاتصال الكلاسيكية بين الكائن وبين الطبيعة : كما ظهر عدم الاتصال على مستوى الكائنات الحية (٥٩).

علم الإقتصاد :

يرى فوكوه أنه من المتعذر أن نتحدث عن علم للاقتصاد فى العصر

---

(٥٨) نفس المرجع ، ص ١٧٧ .

(٥٩) «الكلمات والأشياء» ص ٢٨٤ .

الكلاسيكي ، وذلك لعدم ظهور «مفهوم الانتاج» production خلال تلك الحقبة المعرفية (٦٠).

صحيح أنه قد وجدت مفاهيم «للقيمة» valeurs و « الثمن » prix و «الفائدة» intérêt «والتجارة» commerce ، غير أن هذه المفاهيم يمكن على الأحرى أن تكون علماً «للثروة» richesse وليس «للاقتصاد» .

ويرى الفيزيوقراطيون physiocrates أنه لكي يكون هناك «قيمة» valeur ، و «ثروة» ينبغي أن يكون هناك تبادل échange ينشأ عن الفائض من السلع التي يحتاج اليها آخرون (٦١) . وعلى سبيل المثال فإن الثمار التي نقطفها والتي نغتذى عليها ما هي الا متاع تقدمه لنا الطبيعة . وهذا المتاع لكي يصبح ثروة لابد وأن تكون الثمار وفيرة بدرجة تفوق حاجتنا إليها ، ولا بد أن يكون هناك أغيار لا يتوفرون عليها فيطلبونها منا . يقول كيناى Quesnay :

> «إن الهواء الذي نستنشقه والماء الذي نغترفه من الأنهار وأيضاً كل الإمكانيات الطبيعية الوفيرة والتي يشترك في التمتع بها سائر البشر ، لايمكن أن نسميها ثروات لأنها لا تخضع للتبادل» (٦٢) .

ويظهر مما تقدم أن كيناى واتباعه يحللون الثروات ابتداء من ظهور

---

(٦٠) «الكلمات والأشياء» ، ص ١٧٧ .

(٦١) نفس المرجع ، ص ٢٠٤ . والمذهب الفيزيوقراطي يتزعمه كيناى Quesnay ، (١٦٩٤ - ١٧٧٤) . والفيزيوقراطيون يعتبرون الزراعة مصدراً أوحداً للثروة .

(62) Quesnay, article "hommes" (in Daire, Les Physiocrates, (٦٢) P. 41.)

ذكره فوكوه ، نفس المصدر ، ص ٢٠٥ .

التبادل ، أى ابتداء من أشياء ليس لها قيمة ثم تصبح ذات قيمة عندما يمكن مقايضتها بثمن نقلها أو جمعها أو ماتستنفده من جهد فى تحولاتها المختلفة. غير أن فوكوه يلاحظ أن الفيزيوقراطيين وهم يبدأون تحليلهم بالشىء الذى تشير إليه القيمة ، والذى كان موجوداً قبل دخوله ضمن نسق الثروة ، إنما يقومون بما يماثل عمل النحويين عندما يشرع أولئك فى تحليل أصول الكلمات وما يطرأ على هذه الأصول من تجريدات جعلت منها «أسماء» و«صفات» لغوية. كما يلاحظ فوكوه أيضاً أن الفيزيوقراطى الذى يربط الشىء بالقيمة يماثل النحوى الذى يربط الصوت بالشىء (٦٣) . ولا عجب فى ذلك على الإطلاق ، فتحليل الثروات يخضع لما يخضع له التاريخ الطبيعى والنحو العام من «وحدة نسقية».

إن القيمة فى «تحليل الثروات» تحتل نفس المكان الذى يحتله البناء structure والوظيفة فى التاريخ الطبيعى . (والبناء فى علم التاريخ الطبيعى هو انتماء الأعضاء أو الكائنات إلى كل منظم من أنواع وأجناس). كما أن تصنيف السلع حسب قيمتها وثمنها يماثل تصنيف الكائنات الطبيعية حسب وظائفها وحسب أوصافها . والقيمة هى بداية التبادل ، وهى أيضاً بداية أى نشاط اقتصادى . فإذا كانت أ ، ب لهما نفس القيمة ، فإن هذا يعنى أن قيمة «أ» التى يمتلكها «الآخر» بالنسبة لاحتياجى اليها هى تماماً كقيمة «ب» التى أمتلكها أنا والتى يحتاج هو إليها .

وهنا يلاحظ فوكوه كذلك أن القيمة تتماثل مع الوظيفة الحملية la fonction attributive ، وهى الوظيفة التى يحققها «الفعل» فى علم النحو العام خصوصاً وأن الفعل حينما يظهر القضية فإن ذلك يكون بمثابة العتبة الأولى التى تبدأ منها اللغة (٦٤).

---

(٦٣) «الكلمات والاشياء» ، ص ٢١٥ .

(٦٤) نفس المرجع ، ص ٢١٤ .

وقد ارتبط مفهوم «القيمة» في العصر الكلاسيكي بمفهوم «العمل» عند آدم سميث . فكان يحلل العمل على اعتبار أن له القدرة على إقامة مقياس ثابت بين قيم الأشياء ، فافترض أن كمية العمل الضرورية لإنتاج شيء ينبغي أن تكون مساوية لكمية العمل التي يمكن لهذا الشيء أن يقايض بها في عملية التبادل (٦٥). وهنا نلاحظ عند سميث مماثلة أو «مطابقة» identité بين العمل كنشاط إنتاجي وبين العمل كسلعة يمكن أن تباع وتشترى .

وهنا نصل إلى ختام هذا الجزء عن العصر الكلاسيكي . وقد شغلنا به حيزاً كبيراً في هذا الفصل حتى يتناسب مع كم الموضوعات والتصورات الكلاسيكية التي ناقشها ميشيل فوكوه وتعرض لها بالدراسة والتحليل . وإذا أردنا أن نلخص في كلمات قليلة أهم ما استهدفته الدراسة في هذه المرحلة ، فإننا نستعير نصاً ورد في كتاب «أركيولوجيا المعرفة» وفيه يقول فوكوه :

> «لم يكن هدفنا أن نبين أن الناس في العصر الكلاسيكي يهتمون بوجه خاص «بالنظام» l'ordre أكثر من اهتمامهم بالتاريخ ، وبالتصنيف classification أكثر من الصيرورة ، وبالرموز signes أكثر من المؤثرات العلية ، بل لقد كان هدفنا هو أن نظهر مجموعاً محدداً من التكوينات المقالية التي يربطها عدد من العلاقات التي يمكن وصفها» (٦٦).

«إبستميه» العصر الحديث : l'Epistémé moderne

رأينا في العصر الكلاسيكي أن الطبيعة لا ترى إلا لأنه يمكن التعبير عنها بالقول

---

(٦٥) نفس المرجع ، ص ٢٦٥ . وآدم سميث هو اقتصادي اسكتلندي (١٧٢٣ — ١٧٩٠).

(٦٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٠٦.

La nature est visible parce qu'elleest dicible. فالرؤية واللغة والعقل كانت تجمعها هوية واحدة أو أنها كانت تتطابق إلى حد كبير. غير أنه فى أواخر القرن الثامن عشر لا حظنا انتقالا ملموساً من التمثل représentation إلى التأويل interprétation وخضعت الأشياء لقوانين الصيرورة بدلا من خضوعها لقواعد التصنيف؛ وحلت دراسة الوظائف fonctions (فى علم البيولوجيا) محل دراسة الصفات caractères (فى علم التاريخ الطبيعى)؛ وبدأ التساؤل عن الإنتاج production يحل محل التساؤل عن الثروة richesse، وظهر علم فقه اللغة philologie على يدجريم Grimm وشليجل Schlegel وراسك Rask وبوب Bopp (٦٧)، وأولئك لا يعترفون بتصور اللغة على أنها نسق للتمثلات يمكن أن يتولد عنه تمثلات جديدة، بل إن اللغة قد تحولت على أيديهم إلى كيان مستقل عن الانسان يبدو وكأنه مجرد وساطة ضرورية une médiation nécessaire تضمن إمكانية المعرفة.

ولما كان فى استقلال اللغة عودة إلى التفسير وظهور النقد l'exégèse، فقد نظر فوكوه إلى كتاب «رأس المال» لكارل ماركس على أنه مجرد نقد وتفسير جديد «للقيمة»، كما نظر إلى كل أعمال فرويد على أنها شرح لعبارات غامضة تكتنف أقوالنا الظاهرة. وعلى الرغم من أن فوكوه يعتبر أعمال نيتشه علامة كبرى على الفصل بين الانسان واللغة فى القرن التاسع عشر، إلا أنها فى نظره مجرد شرح وتأويل لبعض الكتابات الإغريقية.

(وكان نيتشة قد توصل فى أبحاثه اللغوية إلى فصل الكوجيتو واستبعاد

---

(٦٧) = جريم Grimm مؤسس علم فقه اللغة بألمانيا (١٧٨٥ – ١٨٦٣).
= بوب Bopp عالم لغة ألمانى، مؤلف علم النحو المقارن (١٧٩١–١٨٦٧).
= راسك Rask عالم لغة داغاركى، أول من درس اللغة الايسلندية l'islandais، وأثبت القرابة بين هذه اللغة وبين اللغة السلافية والاغريقية واللاتينية (١٧٨٧ – ١٨٣٢).
= شليجل Schlegel عالم لغة، وناقد أدبى ألمانى (١٧٦٧–١٨٤٥).

الذات ؛ وهو لهذا اتهم باللاشيئية الهدامة le nihilisme destructeur . ويرى فوكوه أن نيتشه لم يفعل سوى الكشف عن اللاشيئية المستترة فى لغة العصر الكلاسيكى . وعلى سبيل المثال لاحظ نيتشه أن إفراط ديكارت فى الحذر كثيراً ما ترتب عليه نتائج عكسية . فهو يصادف الشيطان الماكر ويحدده دون أن يستطيع الاعتراف به أو إبطال سطوته . وكان نيتشة يعرف اللاشيئية بأنها : عدم وجود الهدف أو تعذر الإجابة عن (لماذا ؟) . وطبقاً لهذا التعريف فإنه يتساءل عن هدف ديكارت من عدم التسليم بوجود الشيطان الماكر أو عدم إبطال سطوته رغم الاعتراف به وتحديده ؟ . وغياب الهدف هنا يعنى الوقوع فى اللاشيئية حسب التعريف السابق .

وعلى هذا ، فإن نيتشة ، فى حقيقته التاريخية ، لم يأت إلا بنفى النفى la négation de la négation أى أنه دحض لا شيئية العصر الكلاسيكى) .

ومهما يكن من شىء ، فإن القارىء لكتابات فوكوه سيدرك العلاقة الخاصة التى تربطه بالفيلسوف نيتشه ، إذ لا شك أن البحث فى «جذور الأخلاق» la généalogie de la morale عند نيتشة عائل إلى حد كبير تساؤلات فوكوه عن «أنساق المعرفة» . فقد كان نيتشة يتعرض لمسألة قيمة القيم وأيضاً للظروف الاجتماعية والأوساط الثقافية التى سمحت بتكوينها .

خصائص الحقبة المنطوقية الحديثة :

يرى فوكوه أن الاتجاه المعرفى الجديد فى القرن التاسع عشر قد ارتبط بإحياء النزعات الانسانية وأيضاً بظهور أنواع جديدة من «اليوتوبيا» يسميها فوكوه «يوتوبيا الأفول» les utopies d'achèvement . وإذا كانت يوتوبيا العصر الكلاسيكى تتضمن نظرة مثالية ، وتفترض تواجد الأشياء فى لوحة

منتظمة لا تنفصل فيها عن الامتثالات ، فإن يوتوبيا القرن التاسع عشر إنما تتصل بأفول الزمان : فالمعرفة لم تعد تنتظمها جداول أو لوحات ، بل هي تتبع نمط التسلسل l'enchainement والصيرورة (٦٨) .

ومن ثم ، فقد كانت السمة الأولى التي تميز بها مطلع القرن التاسع عشر هي : — تناهي الوجود البشري la finitude de l'homme (في علاقته الوثيقة بالعمل والحياة واللغة) . ذلك أن التمثل قد فقد قدرته على تأسيس الراوابط التي يمكنها أن تربط بين عناصره المختلفة ، أي أنه عجز عن تحقيق وظيفته دون الرجوع إلى ملابسات خارجية فحدث القطع coupure. فالإنسان لا يمكنه أن يفكر في ذاته se penser إلا وهو مقود dominé بالعمل والحياة واللغة ، أي أنه يفكر ابتداء مما لديه من معرفة مسبقة عن الإنتاج وعن الكلمات التي يستخدمها وعن الكائن الحي الموجود بداخله(٦٩). وعلى ذلك ، فإن المعرفة الوضعية « المتنهية » le savoir positif (fini) إنما تؤسس اعتماداً على كائن لا يمكن أن ينفصل عن المعرفة الوضعية ، أي أنه كائن متناهي (Un être fini) .

حقيقة أن الإنسان قد حاول أن يتجاوز حدوده بأن يفسر ذاته ابتداء من ميتافيزيقا الحياة أو العمل أو اللغة ، غير أن هذه الميتافيزيقا قد تصدت لنا حالة التناهي التي يعيشها الإنسان . ففلسفة الحياة تتهم الميتافيزيقا بأنها ستار من الوهم voile d'illusion ، وفلسفة العمل تعتبرها تفكيراً أيديولوجياً مسبباً للاغتراب aliénation . أما فلسفة اللغة فإنها تشير

---

(٦٨) «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٧٤ . وربما كانت يوتوبيا الأفول هنا تشير إلى النظرة المتشائمة التي ظهرت في أعمال ريكاردو وماركس ونيتشة وشوبنهور .

(٦٩) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٧ .

اليها باعتبارها عرضاً ثقافياً (٧٠) . ولا شك أن هذا الفشل قد مهد الطريق أمام الأنثروبولوجيا أى مجموع الأبحاث المسماة «بالعلوم الانسانية» .

أما السمة الثانية للاستعداد المعرفي الحديث فهي : الازدواجية التجريبية — الترانسندنتالية « le redoublement de l'empirique dans le transcendantal. »

بمعنى أن الإنسان يستخرج من الانسان (التجريبي) معرفة بذلك الانسان (الترانسندنتالى) الذى هو شرط لإمكانية كل معرفة ! ولو شئنا أن نعبر عن هذه الثنائية بلغة أخرى ، لكان فى وسعنا أن نقول أن الإنسان قد أصبح لأول مرة — فى تاريخ الفكر البشرى — «موضوعاً» و «ذاتاً» (معاً) لكل تأملاته»(٧١). أى موضوع مدروس وذات دارسة فى نفس الوقت .

يقول فوكوه :

«منذ مائة وخمسين عاماً ونحن نصطدم بألفاظ مثل الملك الخاضع أو المشاهد المنظور» Souverain soumis, Spectateur regardé (٧٢).

وهو بذلك يقصد التقابل بين الانسان باعتباره موضوع معرفة أمبيريقية وموضوع معرفة متجاوزة فى نفس الوقت .

وترى الباحثة Jeanne PARAIN-VIAL أن فوكوه هنا ينتقد مذهب «الفينومينولوجيا» عند هسرل فى محاولته للهرب من الوضعية إلى الترانسندنتالية ، وهى محاولة فاشلة لأنها تبدأ من تحليل المعاش le vécu (٧٣).

---

(٧٠) نفس المرجع ، ص ٣٢٨ .
(٧١) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ص ١٥٢ — ١٥٣ .
(٧٢) «الكلمات والأشياء » ، ص ٣٢٣ .
(٧٣) Jeanne PARAIN -VIAL : Op. Cit., P. 184.

ـ السمة الثالثة هي ظهور فكرة الغير متعقل l'impensé . وهذه الفكرة تتضمن الاشارة إلى انسان لم يعد ينظر إليه من خلال شفافية الكوجيتو الكلاسيكى ، بل إنسان يكتنفه غموض opacité يحاول الشعور دائماً أن ينفذ اليه . إنه انسان يجهل ذاته ، وهذا الجهل بالذات يسير موازياً للرغبة فى متابعتها والامساك بها .

يقول فوكوه :

«إن الإنسانلم يكن ليتمكن من أن يرسم لذاته حدودها كصورة خارجية للاستعداد المعرفى (الحديث) l'épistémé moderne دون أن يكتشف جانباً مظلماً فى داخله ، متغلغلا فيه وخارجاً عنه ، ينقاد له ويحتويه فى نفس الوقت . هو لا وعى أو لا فكر impensée (أو سمة ماشئت) . وهو لا يقطن فى الانسان كطبيعة منطوية على ذاتها أو كنتيجة لتراكم تاريخى . إنه هو (الآخر) بالنسبة إلى الانسان» (٧٤).

ويرى فوكوه أن النظرة الأركيولوجية إنما تعتبر الانسان واللافكر متعاصرين (٧٥) . وهذا يعنى أنه يستبعد أى دور للتاريخ ، لأنه يعتبر اللافكر جزءاً من الطبيعة الانسانية .

ويعلق فرانسوا فال François WAHL على سمة «الاستعداد المعرفى الحديث» ويرى أن «الغير متعقل» يمكن أن يقال عن اللاشعور l'inconscient على اعتبار

---

(٧٤) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٣٧ .
(٧٥) نفس الموضع .

أنه توأم الانسان jumeau de l'homme أو ظله son ombre .وهو غريب عنه وقريب منه فى نفس الوقت (٧٦) .

إن الأهمية الفريدة لهذا الازدواج تكمن فى أنها تغذى الفكرة العامة المسيطرة على الفكر الحديث وهى «فكرة الغيرية» Altérité التى ينبغى التوصل اليها داخل ذواتنا . ويرى فوكوه أن الموضوعية الوضعية l'objectivisme positiviste قداقتصرت على معالجة هذه الفكرةالعامةمعالجة سطحية . أما النظرة الأركيولوجية فإنها ترد لهذه الفكرة حجمها الحقيقى على مستوى المعاش au plan du vécu وذلك ابتداء منمقال يعبر الذات ويتخطاها فى نفس الوقت ، وابتداء من تصور جديد لفكر بدون كوجيتو une pensée sans cogito ، وتاريخ بدون ذاكرة (٧٧) .

وقد لاحظ فرانسوا فال أن «الغير متعقل» عند فوكوه يذكرنا بالشيء فى ذاته l'en-soi عند هيجل ، والاغتراب aliénation عند ماركس ، والمتضمن l'implicite عند هسرل .

ـ أما عن السمة الرابعة والأخيرة فهى تتلخص فى أن إنسان«الابستميه» الجديد لا يكتشف ذاته إلا متصلة بنسق تاريخى متكامل . فالانسان يحتل مكاناً فى «التطور» البيولوجى كما أن له دوراً فى «تطور» الثقافات ، وتاريخه يختلط بتاريخ الأشياء . «غير أننا من الممكن ـ بالرجوع إلى تاريخ الانسان ـ أن نرتب خبرته بالأشياء وأيضاً كل ما يعرفه بخصوصها ، فينتج عن ذلك أنه : إذا كانت كل بداية للانسان ظهرت فى زمن الأشياء ،

---

(٧٦) (76) F. WAHL : Op. Cit., P. 364.

(٧٧) (77) Ibid., P. 365.

فإن الزمن الفردى أو الثقافى للانسان le temps individuel ou culturel de l'homme إنما يسمح بتعريف اللحظة التى ظهر فيها وجه الحقيقة لأول مرة بالنسبة لهذه الأشياء » (٧٨) .

وعلى ضوء هذه السمات العامة للحقبة المنطوقية الحديثة يمكننا أن نفهم ظهور علوم مثل الطب النفسى والطب الإكلينيكى والبيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة والعلوم الانسانية .

أما الطب النفسى والطب الاكلينيكى ، فسيختص بهما الفصلان الرابع والخامس .

وأما البيولوجيا والاقتصاد وفقه اللغة والعلوم الانسانية فسيختص بها القسم الأخير من الكتاب .

ونبدأ بالطب النفسى .

(٧٨) «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٤٤ .

الفصل الرابع

ظهور الطب النفسى

١ — ظاهرة الجنون فى عصر النهضة .

٢ — العصر الكلاسيكى :

— العزل الكبير .

— الحساسية تجاه الجنون فى العصر الكلاسيكى .

— العزل والاغتراب .

— الارتداد إلى الجنون اختيار حر .

— الجنون ارتداد إلى الطبيعة الحيوانية .

— الجنون كرض فى العصر الكلاسيكى .

— أطباء العصر الكلاسيكى .

٣ — ظهور الطب النفسى :

— الطب النفسى الوضعى .

— الجنون والمرض العقلى .

٤ — الاغتراب والفكر المعاصر .

٥ — نتائج الدراسة .

ظهور الطب النفسي

ذكرنا في «موضع سابق أن «أركيولوجيا المعرفة» قد أرست دعائم منهج جديد في دراسة الظواهر البشرية .

وكانت الابستمولوجيا في مطلع القرن العشرين قد تفتحت على شكل «دراسة ثقافية للتاريخ» باعتبار أن التاريخ هو نمط الوجود البشري وأسلوب وعيه بوجوده . وكان يظن أن مفتاح كل مشكلة «البشرية» إنما يكمن في فلسفة تكشف «معنى » التاريخ (١). غير أن هذه الدراسة كانت تتطرق لمسائل ميتافيزيقية ، وتدخل بالتالي عنصر الذاتية ، فابتعدت تماماً عن الموضوعية . ولذا فإن المطلب الابستمولوجي الذي تتوخاه الأركيولوجيا الجديدة إنما يقتصر على مجرد «دراسة تاريخية للثقافة» تبرز «وجود اللغة» على أشلاء «اختفاء الذات» ، وتهتم بالكشف عن شروط ظهور أنماط المقال داخل حقب منطوقية متغايرة .

ولقد كان ظهور «علم الطب النفسي » في أوائل القرن التاسع عشر هو نقطة الانطلاق التي انبثق عنها دراسة ظاهرة «الجنون» عند فوكوه كما يقرر هو نفسه(٢). ويرى فوكوه أن هذا العلم لم يكن له نفس المضمون أو نفس التنظيم الداخلي أو نفس الوظيفة العملية لما كان يطلق عليه في القرن الثامن عشر : «علم الأمراض العصبية » أو «أمراض الرأس » (٣) . وهذا يعني أن فوكوه لم يلاحظ وجود أي اتصال أو استمرار بين ما كتب في هذا الموضوع في القرن الثامن عشر وما كتب عنه في القرن التاسع عشر . ولما كانت «الأركيولوجيا»

---

(١) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢٣ .
(٢) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة » ، ص ٢٣٣ .
(٣) نفس الموضع .

تهدف إلى دراسة شروط عدم التجانس المعرفي ، لذا ظهر كتاب «تاريخ الجنون في العصر الكلاسيكي» ، وهو يضم جميع الممارسات المقالية التي تلتف حول موضوع «الجنون» ، والتي بدأت منذ القرن السادس عشر واستمرت حتى ظهور علم الطب النفسي في القرن التاسع عشر . وقد بينت هذه الدراسة أن «الجنون» folie لم يكن له نفس المفهوم في القرن السادس عشر وفي العصر الكلاسيكي وفي العصر الحديث ، وذلك لأنه قد تعرض لنفس حالات القطع التي تعرضت لها بقية عناصر الثقافة في تلك الحقب المتطوقية .

أولا : عصر النهضة :

يرى فوكوه أن «الجنون» قد دخل عالم المقال في عصر النهضة مع ظهور كتابات كل من برانت Brant وإراسم Erasme (٤) . ففي هذه الكتابات نجد اهتماماً بتلك الخبرة المأساوية (الجنون) ، كما نجد مواجهة بينها وبين الوعي الناقد la conscience critique . ويرى فوكوه أيضاً أنه بفضل التفكير الديني المسيحي في ذلك العصر لم يعد هناك وجود للجنون إلا بالقياس إلى العقل . فقد كان العقل هو المجال الذي يتحدد بداخله معنى الجنون . والدليل على ذلك ما لاحظه شارون Pierre CHARRON في القرن السادس عشر من «وجود تقارب كبير بين الحكمة والجنون ، تشهد عليه

---

(٤) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ص ٣٩ — ٤٠ .

Michel Foucault : "Histoire de la folie à l'âge classique", (Plon, 1961), PP. 39 — 40.

«برانت» هو شاعر فرنسي ، ولد في ستراسبورج (١٤٥٨ — ١٥٢١) .

«إراسم» مفكر فرنسي ، صاحب نزعة انسانية (١٤٦٩—١٥٣٦).

أفعال الخبل من البشر (٥) . وأيضاً ما قرره إراسم Erasme من أن «المدخل إلى الحكمة لابد وأن يمر بالجنون» (٦) .

وكان مونتني Montaigne فيلسوف عصر النهضة قد قام بزيارة للشاعر الايطالي الشهير تاس Tasse ،وكان هذا الأخير بهذى ، فخرج مونتني بتساؤلات عن مدى اقتراب العقل من الجنون ، يقول مونتني :

«إن تاس من أنبغ الشعراء الايطاليين وأكثرهم موهبة ، فما السبب الذى جعله يتردى إلى هذه الحالة ؟ أليس وضوح العقل عنده ، وما لديه من قدرات تنظيمية خاصة هو الذى تسبب فى غيابه العقل ؟... أليست هذه القدرات النفسية النادرة هى التى تركته بلانفس ؟ »(٧).

ونلاحظ هنا أننا بصدد الكشف عن جنون حال بالعقل une folie immanente à la rasion . فحقيقة الجنون إنما تكون شيئاً واحداً أو وحدة متكاملة مع انتصار العقل وسيادته المطلقة .

يقول فوكوه :

---

(٥) Pierre CHARRON : "De la sagesse" (livre 1er chap. XV, éd. Amaury Duval, 1827, t. I), P. 130.

ذكره فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٥ .

— وشارون هو أخلاقى فرنسى ، ولد فى باريس (١٥٤١–١٦٠٣) . وهو صاحب «رسالة فى الحكمة» تعبير مجرد ترديد لأفكار مونتنى .

(٦) ذكره فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٥ .

(٧) Montaigne, "Essais" (liv. II, chap. XII, éd. Garnier, t. II), P. 256.

ذكره فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٦ .

— مونتنى هو فيلسوف أخلاقى فرنسى (١٥٣٣ – ١٥٩٢) .

«وإذا جاء الجنون ليتوج مجهود العقل فذلك لأنه
يكون جزءاً من هذا المجهود (٨).

وقد ظهر إلى جانب هذه النظرة للجنون باعتباره جزءاً من طبيعة العقل ذاته ، اتجاه فكرى متشائم يربط بين الجنون وبين عالم آخر فائق للطبيعة . وقد تزعم هذا الاتجاه جيروم بوش Jérôme Bosch وأستاش ديشامب Eustache deschamps وكلاهما يرى أن ظاهرة الجنون مثيرة للقلق وانتشارها يبشر بتناهي الوجود البشرى ويهدد بالفناء (٩) .

وعلى الرغم من أن «الجنون» فى عصر النهضة كان إما مسبباً للقلق أو مهدداً بالفناء ، إلا أنه كظاهرة بشرية ، كان مألوفاً لدى مجتمعات عصر النهضة وأيضاً فى الكتابات الأدبية عند أمثال سرفانتيس Cervantes وشكسبير Shakespeare. وهذا ما يعبر عنه فوكوه بقوله : «إن عصر النهضة قد حرر صوت الجنون» (١٠).

ثانياً : العصر الكلاسيكى :

إذا كان عصر النهضة قد حرر صوت الجنون ، فإن العصر الكلاسيكى قد ارتد به إلى الصمت .

العزل الكبير : Le grand renfermement

شهد القرن السابع عشر بيوتاً واسعة للعزل internement . ففى سنة

---

(٨) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٦ .
(٩) المرجع السابق . ص ص ٢٩-٣٢ .
- جيروم بوش ، رسام هولندى (١٤٠٠-١٥١٦) .
- ايستاش دى شامب ، شاعر فرنسى (١٣٤٦ - ١٤٠٦).
(١٠) نفس المرجع ، ص ٥٦ .
= سرفانتيس ، شاعر اسبانى (١٥٤٧-١٦١٦) ، وهو صاحب رواية دون كيشوت الشهيرة .
- شكسبير ، من أكبر شعراء انجلترا (١٥٦٤ - ١٦١٦) .

١٦٥٦ صدر فى فرنسا مرسوم ملكي بتأسيس «المستشفى العام» فى باريس . وكان يدخل هذا المستشفى كل من يتقدم من تلقاء نفسه أو من كانت ترسلة السلطات الملكية أو القضائية . أما المسئولون عن هذا المستشفى ، فقد كانت لهم سلطات إدارية وبوليسية وقضائية تمتد إلى خارجها ، كما كان لهم سلطة توقيع جزاءات على جميع فقراء باريس خارج أو داخل المستشفى . ويظهر إذن أن هذا المستشفى لم يكن مؤسسة علاجية فقط ،لأنه كان يقرر ويصدر أحكاماً وينفذها دون المرور بالمحاكم . وباختصار لقد كان هذا المستشفى بمثابة تنظيم للقمع ، كما كانت فكرة انشائه أقرب لتحقيق أهداف ملكية وبورجوازية منها لتحقيق أى هدف علاجي .

وفى عهد الحكم المطلق أيضاً صدر مرسوم ملكي آخر سنة ١٦٧٦ يقضى بانشاء مستشفى عام فى كل مدينة من مدن المملكة الفرنسية . ويبين فوكوه أن «بيوت العزل» لم تكن قاصرة على فرنسا ، بل كانت ظاهرة عامة فى أوروبا ارتبطت بالحكم المطلق وبمناهضة حركة الإصلاح الديني la contre-Réforme . وهو يذكر أمثلة «للبيوت» التى ظهرت فى ألمانيا والجلترا وهولندا وايطاليا واسبانيا . كما يذكر تواريخ إنشائها فى القرن السابع عشر والثامن عشر (١١).

ولكى يبين فوكوه خطورة «بيوت العزل» هذه ، يذكر أنه بعد سنوات قليلة من إنشاء المستشفى العام بباريس ، امتلأ بأكثر من ستة آلاف شخصاً أى ما يقرب من ١٪ من سكان العاصمة وفى هذا المستشفى كانت السلطات تقوم بعزل المجانين إلى جانب المتسولين والعاطلين والمعاقبين والمحكوم عليهم

---

(١١) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ص ٦٠ —٦٥ .

تعسفياً بالسجن ، ولم يعرف إلى الآن سبب جمعهم سوياً (١٢) .

ولقد ارتبط «الجنون» بأرض العزل إذن منذ منتصف القرن السابع عشر وعلى مدى قرن ونصف . يقول اسكيرول Esquirol :

«رأيت هؤلاء المخبولين عراة تغطيهم أسمال بالية ، وينامون على القش الرطب . وكانوا محرومين من استنشاق الهواء النقي ، ومحرومين أيضاً من ضروريات الحياة ، كما كانوا يستسلمون لحراس غلاظ القلب»(١٣).

كيف يمكن أن نفسر انتشار ظاهرة العزل الكبير ؟ . لقد كان المؤرخ العادى يفسر انتشار هذه الظاهرة فى جميع أرجاء أوروبا طوال العصر الكلاسيكى تفسيراً غامضاً ، ويصرح بأنها كانت نتيجة حساسية عامة سبقت الثورات Sensibilité pré-révolutonnaire (١٤).

ويرى فوكوه أن انتشار العزل بهذه السرعة وبأكثر مما كان عليه عزل المصابين بالبرص la lèpre فى العصور الوسطى لا يمكن أن يفسر هذا التفسير الساذج . ذلك أن عزل المصابين بالبرص لم يكن يحمل سوى المعنى الطبى . أما العزل الذى مارسه العصر الكلاسيكى ، فقد كان يحمل معنى سياسياً واقتصادياً واجتماعياً ودينياً وأخلاقيا . هذا بالاضافة إلى القول «بحساسية عامة» لابد وأن يفترض أن هذه الحساسية قد تكونت لا شعورياً على مدى سنوات

---

(١٢) نفس المرجع ، ص ٥٩ .

(١٣) Esquirol, Des établissements consacrés aux aliénés en France (1818) in Des maladies mentales, Paris, 1838, t. II, 134.

ذكره فوكو ، نفس المرجع ، ص ٦٠

– اسكيرول هو طبيب فرنسى ولد فى تولوز (١٧٧٢ – ١٨٤٠).

(١٤) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٦٦ .

عديدة فى الثقافة الأوروبية ، ثم أطلت علينا فجأة فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، فجمعت هذا الخليط الغريب من البشر وراء نفس الأسوار التى عزلت المصابين بالبرص (١٥).

يقول فوكوه :

«إن ما يبدو أمامنا على أنه حساسية غير محددة المعالم sensibilité indifférenciée كان لدى الكلاسيكيين بمثابة إدراك واضح المعالم une perception clairement articulée (١٦).

ينبغى علينا إذن أن نسأل عن نمط الإدراك هذا لكى نعرف صورة الحساسية تجاه الجنون فى عصر تعودنا أن نسميه عصر العقل . ولنعلم مقدماً أن جميع من شملهم العزل فى العصر الكلاسيكى كانت توجه لهم تهمة واحده هى الجنون .

الحساسية تجاه الجنون فى العصر الكلاسيكى :

إذا أردنا التنقيب عن هذه الحساسية فى العصر الكلاسيكى ينبغى أن نلجأ أولا إلى عالم المقال . ولقد كانت «التأملات الديكارتية » باعتبارها «مقال العقل » تنظر إلى «مقال الجنون » على أنه يختلف عنها فى الطبيعة تماماً.

يقول ديكارت فى التأمل الأول :

«كيف أستطيع أن أنكر أن هاتين اليدين يداى وهذا الجسم جسمى ؛ اللهم إلا إذا أصبحت مثيلا لبعض المخبولين الذين اختلت أذهانهم وغشى عليها

---

(١٥) نفس المرجع.

(١٦) فوكوه : «تاريخ الجنون » ، ص ٧٦ .

بسبب الأبخرة السوداء التى تصعد من المرة (أو الصفراء) ، فما ينفكون يؤكدون أنهم ملوك ، فى حين أنهم فقراء جداً ، وأنهم يلبسون ثياباً موشاة بالذهب والأرجوان ، فى حين أنهم فى غاية العرى ، أو يتخيلون أنهم جراراً أو لهم أجساماً من زجاج ! ألا إنهم مجانين ، ولن أكون أنا أقل منهم إسرافاً وخبلا إذا اقتديت بهم ونسجت على منوالهم »(١٧).

ومن هذا النص يتضح أن مسيرة الشك الديكارتى قد أدت بالفيلسوف إلى مواجهة مع «الجنون» إلى جانب خداع الحواس والحلم والشيطان الماكر وغير ذلك من أسباب الخطأ .

أما الحواس ، فعلى الرغم من أنها خادعة . إلا أنها تترك رغماً عنها بقية من حقيقة un résidu de vérité : «لا نستطيع أن نشك فيها شكاً يقبله العقل ... مثال ذلك أنى ها هنا جالس قرب النار ، لابس عباءة المنزل ، وهذه الورقة بين يدى » (١٨).

وأما الحلم فإنه من الممكن أن يفعل ما يفعله المصورون ، فهؤلاء يمكنهم أن يبذلوا «ما أوتوا من مهارة فى تمثيل بنات البحر والتيوس الآدمية فى أشكال هى غاية فى الغرابة والبعد عن المألوف» (١٩) . غير أن الحلم لا يمكنه أن يخلق أو يكون أشياء غاية فى البساطة والعمومية هى التى تضمن

---

(١٧) ديكارت : «التأملات فى الفلسفة الأولى» ، ترجمة الدكتور عثمان أمين ، ص ٧١ .

(١٨) نفس الموضع .

(١٩) نفس المرجع السابق ، ص ٧٣ .

إمكانية الصور الخيالية » مثل الطبيعة الجسمانية على العموم وامتدادها » .
كما أنه لا يمكنه أن يشك فى هذه الطبائع البسيطة .

أما بالنسبة للجنون . فالأمر على عكس ذلك تماماً ، لأن المخاطر التى تهدد المسيرة إلى اليقين إذا زالت فليس ذلك لأن شيئاً مالا يمكن أن يكون زيفا بل لأنى «أنا الذى أفكر لا يمكن أن أكون مجنوناً» moi qui pense, je ne peut pas être fou. فعندما أعتقد أن لى جسداً ، هل أكون متأكداً من امتلاكى لحقيقة أكثر ثباتاً ممن يتخيلون أن لهم جسداً من زجاج ؟ . نعم بالتأكيد وذلك «لأنهم مجانين ، ولن أكون أنا أقل منهم إسرافاً وخبلا إذا اقتديت بهم ونسجت على منوالهم » :

ويمكننا بناء على ما تقدم أن نؤكد على الحقائق التالية :

أولا : إن استخدام العقل يستبعد خطر الجنون . ويترتب على ذلك أن الذى انحرف إلى الجنون إنما ينحرف باختياره أو لأن له طبيعة أخرى تختلف عن طبيعة الانسان الذى يفكر . وهذه النظرة هى التى سادت طوال العصر الكلاسيكى كما سيأتى بيانه ، وربما كانت هى المبرر لتوقيع عقوبة العزل أو السجن لكل من أتهم بالجنون .

ثانياً : إن «الجنون يتضمن ذاته » (٢٠) La folie s'implique elle-même.
وهو بالتالى يفترق تماماً عن العقل . فسيرة الشك الديكارتى تشهد بأن القرن السابع عشر يستبعد وجود العقل إلى جانب الجنون على الرغم من أن عصر النهضة كان يقرب بينهما كما سبق أن رأينا فى تعليق مونتنى على حالة الشاعر

---

(٢٠) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٨ .

الايطالى تاس Tasse والذى يفيد «بأن العقل يقترب كثيراً من الجنون عندما يكون قد توصل إلى أسمى انجازاته» .

ثالثاً : أن الجنون لا يمكن اعتباره سبباً مؤدياً إلى الشك ، لأن العقل ليس معرضاً إلا لخطورة الوقوع فى الخطأ أو الوهم فقط .

وقد ضمن فوكوه هذه النقاط فى عبارة موجزة يقول فيها :

«إن الشك الديكارتى إنما يقضى على مباهج الحواس ،
كما يتجاوز صور الأحلام ، وهو مقود فى ذلك دائماً
ببريق الأشياء الحقيقية . غير أنه يستبعد الجنون باسم
الذات التى تشك والتى لم يعد بامكانها الارتداد إلى الجنون
إلا إذا كان بإمكانها أن تتوقف عن التفكير أو عن الوجود»(٢١).

لقد كانت ممارسة العزل فى العصر الكلاسيكى هى تعبير عن ظهور موقف جديد حيال البؤس بوجه عام ، وكان هذا الموقف الجديد ينبثق عن حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا بزعامة مارتن لوثر Luther(١٤٨٣–١٥٤٦)، وكالفن Calvin (١٥٠٩ – ١٥٦٤) . ففى عالم لوثر وكالفن نجد أنه لا ارتباط بين الفاقة والثراء ، وليس هناك حق للفقير على الغنى ، فكلاهما تمتد إليه يد الرعاية الإلهية إن بالزيادة أو بالنقصان . فالله يثيب ويعاقب ، والفقر لون من ألوان العقاب . وقد أدت حركة الإصلاح الدينى فى النهاية إلى علمانية الأعمال une laicisation des oeuvres. وهذا يعنى أن أعمال الخير لا علاقة لها بالتقرب إلى الله ، وعلى الدولة أن تطلع برعاية الفقراء والعجزة . ومن الممكن صياغة الحساسية الجديدة حيال البؤس على النحو التالى : على الإنسان

---

(٢١) نفس الموضع .

أن يؤدى واجباته حيال المجتمع ، أما البؤس فقد جاء نتيجة لعدم النظام وهو عقبة كؤود أمام النظام . ولم تقتصر هذه المفاهيم على الكنيسة البروتستنتية بل تعدتها تدريجياً إلى العالم الكاثوليكى (٢٢).

كانت هذه هى أولى الحلقات التى ستحكم الحصار حول الجنون فى العصر الكلاسيكى . فإذا كان العصر الوسيط قد أضفى جانباً من القداسة على المجانين ، فذلك لأنهم يشتركون مع البؤساء فيما لديهم من قوى غامضة. أما فى العصر الكلاسيكى ، فقد ظهر المجنون على قاعدة بوليسية تختص بحفظ النظام داخل المدينة شأنه فى ذلك شأن البؤساء والضالين الذين يضمهم المستشفى العام (٢٣).

ولقد كانت الأزمة الاقتصادية التى أصابت العالم الغربى كله فى القرن السابع عشر من الأسباب التى حتمت العزل . فهو يضمن امتصاص العاطلين وحماية المجتمع من الاضطراب والثورات، خصوصاً إذا علمنا أنه فى الوقت الذى كان فيه سكان باريس أقل من مائة ألف نسمة ، كان عدد المتسولين فيها أكثر من ثلاثين ألفاً (٢٤).

ويرى فوكوه أن أهم ما نجحت «بيوت العزل» فى تحقيقه هو أنها قد حولت وجوها ألفها المجتمع إلى أشكال غريبة لم يعد يعترف بها إنسان ، وحالت بالتالى بين الانسان وبين جزء منه ، ثم ابتعدت بهذا الجزء إلى آفاق بعيدة. لقد كان هذا العزل هو خالق الاغتراب Ce geste a été créateur d'aliénation

---

(٢٢) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ص ٦٨-٦٩ .
(٢٣) نفس المرجع ، ص ٧٤ .
(٢٤) نفس المرجع ، ص ص ٧٦ — ٧٩ .

وعلى هذا ، فإن من يؤرخ لمسألة العزل هذه إنما يقوم بدراسة أركيولوجية للاغتراب .

العزل والاغتراب :

يرى فوكوه أن العزل l'internement الذى عرف بدوره السلبى وهو استبعاد فريق من الناس exclusion . له أيضاً دور ايجابى هو التنظيم organisation . ذلك أنه قد أوجد تقارباً بين فئات من الأشخاص والقيم لم يكن للثقافات السابقة أن تدرك بينها أى تشابه . ثم جعل هذه الفئات تنزلق تدريجياً نحو الجنون ، ممهداً بذلك لتجربتنا نحن . وهى التجربة التى تتكامل فيها هذه الفئات فى نطاق انتسابها إلى الاغتراب العقلى l'aliénation mentale ولكى يتم هذا التقارب كان لابد من إعادة تقييم لعالم الأخلاق ، وتحديد جديد لقيم الخير والشر — المستحب منها والمستهجن ، ثم إقامة معايير جديدة للتكامل الاجتماعى . ولم يكن العزل شيئاً آخر سوى التعبير عن كل هذا التغير الذى ميز ثقافة العصر الكلاسيكى (٢٥).

وسنبدأ فى هذا الجزء بذكر أمثلة لتلك الفئات التى طبق عليها العزل .

ذكر فوكوه أن المصابين بأمراض سرية كانو يقبلون فى المستشفى العام بعد المرور ببعض الاجراءات . وذكر أن أهم هذه الاجراءات هى أن يسددوا ما عليهم من دين أولا للاخلاق العامة ، أى أن يمروا بطريق العقوبة والتوبة بأن يضربوا بالسياط قبل أن يتقرر قبولهم.

ولاحظ فوكوه أن علاج الأمراض السرية باستخدام معدن الزئبق كان

---

(٢٥) ميشيل فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٩٦ .

يعني استخدام علاج ضد المرض وضد الصحة في نفس الوقت.إذ لا مانع من علاج المرض، غير أنه لابد من انهاك الصحة التي تمهد لارتكاب الخطيئة(٢٦).

لقد وضع المصابون بالجنون إلى جانب المصابين بأمراض سرية قراب مائة وخمسين عاماً داخل «بيوت العزل».وربما ظهر أثر ذلك فيما بعد كما يلي :

نلاحظ أولا أن الفكر الحديث لا يعدم القرابة بين الفئتين ، إذ أنه قد خصص لهما نفس المصير ونفس العقاب .

ونلاحظ أيضاً أن الفكرة التي تتضمن علاج الجسد وعقابه في نفس الوقت ربما كانت أساساً لفهم العلاج الذي طبق على الجنون في القرن التاسع عشر .

ونلاحظ كذلك أن وضع الجنون إلى جانب الخطيئة قد يكون هو السبب في الجمع بين العته la déraison وبين الاستذناب la culpabilité، أو النظر إلى المجنون على أنه مذنب. وهي صفة تلحق بالمجنون حتى أيامنا هذه ويعتبرها الطبيب حقيقة طبيعية .

وهكذا خلقت روابط غامضة لم تمحها السنون رغم مرور أكثر من مائة عام على ظهور «الطب العقلي الوضعي» "La psychiatrie dite "positive".

ويرى فوكوه أن ماينبغي أن نبحث عنه بعمق إنما هو دهاء العقل الطبي الذي يعالج ويعاقب في نفس الوقت ، خصوصاً وأنه قد سمح بهذا الخلط بين العلاج والعقاب في عصر سمي «بعصر العقل» . غير أن فوكوه قد وجد تفسيراً لذلك في عبارة لأحد المشاهير من قساوسة العصر الكلاسيكي هو سان

---

(٢٦) نفس المرجع ، ص ص ٩٧-٩٩ .

فانسن دى بول St. Vincent de Paul (١٥٨١ — ١٦٦٠) .تقول العبارة «إن العقوبة الدنيوية تعفى الانسان من عقاب الآخرة» (٢٧).

ونلاحظ بهذا الصدد أنه إذا كانت « القرابة » بين الطب والأخلاق هى فكرة قديمة قدم الطب الاغريقى، فإن القرن السابع عشر مقترنا بمنطق العقل المسيحى قد طبع هذه الفكرة فى مؤسساته بطابع هو أبعد ما يكون عن الإغريق لأنه يعتمد على القسر والعنف .

ومن الفئات التى كان يطبق عليها العزل أيضاً عند الكلاسيكيين جميع الأشخاص الذين لا يحافظون على روابطهم الأسرية . فقد شهد العصر الكلاسيكى بأن حياة الأسرة هى الفيصل بين العقل والجنون . ذلك لأن فى الأسرة وبالأسرة يوجد العقل ، وبدونها يتعرض الانسان للإصابة بالجنون . ألم تقل مدام جوردان لزوجها (فى إحدى مسرحيات موليير) : «إنك يازوجى مصاب بالجنون بسبب اتباعك للأهواء» (٢٨) ؟ ألم يصرح بلزاك فى إحدى رواياته بأن الماركيز ديسبارت La Marquise d'Espart طلبت توقيع عقوبة «العزل» على زوجها بسبب شواهد تدل على أن له علاقات ضد مصالح الأسرة ؟ «ألم يفقد هذا الزوج عقله فى نظر القانون ؟ »(٢٩).

ويرى فوكوه أنه فى بداية القرن الثامن عشر شهدت «بيوت العزل» فى فرنسا حالة سيدة فى السادسة عشرة من عمرها تسمى مدام بودوان Mme-Beaudoin

(٢٧) نفس المرجع ، ص ١٠١ .

(٢٨) (28) Molière : "Le Bourgeois Gentilhomme".

— موليير مؤلف مسرحى فرنسى (١٦٢٢ — ١٦٧٣).

(٢٩) (29) Balzac, "L'interdiction". La Comédie humaine, éd. Conard, t. VII. PP. 135.

— بلزاك مؤلف روائى فرنسى ، ولد فى مدينة تور (١٧٩٩ — ١٨٥٠).

اتهمت بأنها لم تعد تحب زوجها ، وكانت تعلن تمردها على أي قانون يجبرها على أن تعيش معه ، «فكل انسان حر في أن يعطي قلبه وجسده لمن يشاء ، والجريمة الحقيقية هي أن يعطي أحدهما دون الآخر ». ورغم أن المحقق المختص قد أبدى دهشته لقوة الحجة التي ترددها المرأة ، إلا أن هذا لم يكن كافياً لتخليصها من العزل ضمن سائر الخبل» (٣٠) ومن هذه الحالة يتبين لنا أن العصر الكلاسيكي وهو «عصر العقل» يمكنه أن يتصور حالة جنون لا يكون فيها العقل مضطرباً ! .

وفي نهاية القرن الثامن عشر، صدر مرسوم ملكي في فرنسا (سنة ١٧٨٤)، يعتبر الصراع بين الفرد وأسرته من الشئون الخاصة . وابتداء من هذا التاريخ وطوال القرن التاسع عشر أعتبر هذا الصراع مسألة سيكولوجية ، بعد أن كان طوال فترة «العزل» من الأمور التي تهدد النظام العام l' ordre public والأخلاق العامة .

ونلاحظ مما تقدم أن العصر الكلاسيكي قد قام بثورة أخلاقية عندما أدخل ضمن مفهوم «الجنون» مجموعة خبرات كانت لمدة طويلة منفصلة عن بعضها البعض مثل الأمراض السرية والدعارة والخيانة الزوجية والجنسية المثلية. ذلك أن الأمراض السرية كان ينظر اليها في بداية عصر النهضة كما ينظر إلى الطاعون أو الجوع أوغير ذلك من الكوارث التي تعتبر عقاباً عاماً أرسلته السماء لا يهدف إلى مجازاة أي خروج معين على الأخلاق (٣١) ، أما الجنسية المثلية ، فقد أعطتها «النهضة» حرية التعبير ثم اكتنفها الصمت ودخلت ضمن الممنوعات في العصر الكلاسيكي (٣٢).

---

(٣٠) راجع : ميشيل فوكوه : «تاريخ الجنون» : ص‌ص ١٥١ – ١٥٢ .
(٣١) نفس المرجع ، ص ٦٨ .
(٣٢) نفس المرجع ، ص‌ص ١٠٢ – ١٠٣ .

ولقد ترتب على هذه الثورة الأخلاقية فى مجال الجنس وما تبع ذلك من تطبيق «للعزل» وانزلاق نحو «الجنون» أن نسجت روابط جديدة بين الحب والجنون مازلنا نلمس أثرها حتى اليوم . بل إن فوكوه لا يبالغ عندما يقرر بأن «معرفتنا العلمية والطبية للجنون إنما ترسو على قاعدة سابقة من الخبرة الأخلاقية للجنون » (٣٣).

لقد حكم العصر الكلاسيكى بالعزل أيضاً على الفئات التى كانت تستهين بالديانة وبالمقدسات . ويرى فوكوه أن العصر الكلاسيكى لم يكن يميز فعلا بين هذه الفئات وبين جميع الفئات الأخرى التى سبق ذكرها ، فكلها تستوجب «العزل» وكلها متهمة بالجنون .

ففى سنة ١٧٠٤ حبس قسيس يسمى بارجيديه Bargedé له من العمر سبعون عاماً . وجاء فى التقرير المصاحب لقرار الحبس : «يعزل مثل بقية المجانين ، وذلك لأن شغله الوحيد كان ينحصر فى اقراض النقود مقابل فوائد كبيرة مما لا يتناسب مع مكانة رجل الدين » . وهنا نلاحظ أن بارجيديه إنسان خبل insensé لا لأنه فقد استخدام العقل ، بل لأنه يمارس الربا l' usure الذى يتناقض مع تعاليم الكنيسة (٣٤) .

وعثر فوكوه فى «أرشيف » سجن الباستيل على حالة «الكونت» المسمى دوسلن Doucelin . وكان دوسلن قد وضع فى سجن الباستيل لادعائه بأنه الوارث الشرعى للعرش . كما كان يؤكد بأن القديسة مريم العذراء تظهر له مرة كل ثمانية أيام ، وأن الله يحدثه من حين لآخر وجها لوجه . وقد جاء بالتقرير المرافق للسجين ما يلى :

(٣٣) نفس المرجع ، ص ١٠٦ .
(٣٤) نفس المرجع ، ص ١٥١ .

، نرى أن يحبس هذا السجين فى المستشفى طوال حياته لأنه من الخبل الذين لا يرجى لهم شفاء ، أو أن ينسى داخل سجن الباستيل باعتباره من المجرمين الخطرين؛ وربما كان الحل الثانى هو الأكثر ملاءمة لهذه الحالة»(٣٥).

ويتبين لنا من المثالين السابقين أن إدراك العصر الكلاسيكي يسجل تطابقاً بين الجنون والخطيئة أو الجريمة .

الارتداد إلى الجنون اختيار حر :

ويرى فوكوه أن العصر الكلاسيكي فى رفضه للجنون بأشكاله إنما يكشف عن ضمير أخلاقى معين Une conscience éthique . كما يرى أن عدم الاهتمام بالتمييز الدقيق بين الخطيئة والجنون إنما يشير إلى منطقة أكثر عمقاً داخل هذا الضمير ، تكاد تجعل الفصل بين (العقل والجنون) قائماً على أساس من الارادة والمسئولية الشخصية للفرد . وإذا كان العصر الكلاسيكي لم يعبر عن ذلك صراحة أثناء ممارسة العزل وتبريره ، إلا أنه من الممكن الكشف عن طبيعة هذا الضمير من خلال التفكير الفلسفى فى ذلك العصر .

ولقد رأينا فى موضع سابق (٣٦) أن مسيرة الشك الديكارتى نحو اليقين لم تتأثر اطلاقاً بالجنون . والسبب فى ذلك هو أنه كان حاضراً دائماً ومستبعداً دائماً فى نفس الوقت بفضل ارادة الشك ذاتها . فهناك اغراء مستمر بالنوم والاستسلام للخزعبلات يهدد العقل. غير أن هذا الاغراء تستبعده الارادة التى ترنو نحو اكتشاف الحقيقة (٣٧) كما رأينا فى نفس الموضع أيضا أن الشك

---

(٣٥) نفس المرجع ، ص ١٥٢ .
(٣٦) ص ص ١١٩ — ١٢٢ .
(٣٧) التأمل الديكارتى الأول ، الفترة الأخيرة .

المنهجى الديكارتى هو شك ارادى ، يتضمن وجود الذات المفكرة ، ويستبعد بالتالى الانزلاق فى الجنون .

ونجد عند سبينوزا أن الحرية هى ضرورة من ضرورات العقل ، تفترض مجالا للاختيار يمتد عبر التفكير ، وهى فى النهاية ليست سوى مبادأة العقل ذاته . والعقل لايتعارض مع الأخلاق باعتبارها مجموعة قوانين أخلاقية ، لأن هذه الأخيرة اختيار ضد «الجنون» (٣٨) . الحرية إذن هى «حرية الحكيم الذى يحسن استخدام العقل La «liberté du sage» . فالانسان الحر هو الذى يعيش تحت قيادة العقل بعد أن يتخلص من الأحكام السابقة والانفعالات العمياء وكل ما هو غير انسانى فى الانسان » (٣٩). وهذا يعنى أن الاستخدام الكامل للعقل لا يكون إلا بالاستبعاد الكلى للجنون .

غير أن الإنسان من الممكن أن يتردى فى الجنون بفعل الحرية . فالجنون هو البديل المضاد لا ختيار يمكن الانسان من الممارسة الحرة لطبيعته العقلية ، ولهذا فقد نظر إلى الجنون نظرة غير انسانية . والتردى فى الجنون هنا لايشير اطلاقاً إلى اختلال فى العقل بقدر ما يشير إلى منطقة تكشف عن الوجه الحقيقى للانسان بفعل الحرية (٤٠).

ويتضح مما تقدم أن العقل فى العصر الكلاسيكى ينبثق عن مجال الأخلاق la raison prend naissance dans l' espace de l'éthique . ومن ثم فإن الاغتراب العقلى يستوجب العقاب .

---

(٣٨) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٥٨ .

(39) André VERGEZ : "La Philosophie en 60 chapitres," (٣٩)
(Fernand Nathan, Paris 1965), P. 151.

(٤٠) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٥٨.

الجنون ارتداد إلى الطبيعة الحيوانية :

والجنون يجرد الانسان من إنسانيته ، ويجعله على علاقة مباشرة بالجانب الحيوانى فيه . وقد أورد فوكوه من نصوص العصر الكلاسيكى ما يؤيد هذه النظرة (٤١).

وإذا كان ظهور الدوافع الحيوانية سافرة (فى العصر الحديث) دليلا على الاصابة بالمرض العقلى، فإن ظهورها فى العصر الكلاسيكى كان علامةعلىأن المجنون ليس مريضاً.فهذه الدوافع الحيوانية تكسبه صلابة،وتحميهمن كل مايسبب المرض للانسان العادى . فهو محصن ضد الجوع والألم والحر والبرد ، وليس هناك ما يدعو للاشفاق عليه أو حمايته . ويترتب على ذلك أن الجنون لا يمكن أن يدخل ضمن اختصاص علم الطب ، كما أنه لا يخضع لمجال التقويم والاصلاح ، لأننا بصدد ثورة حيوانية جامحة لا تستجيب إلا للمعاملة الخشنة. وقد أورد فوكوه بياناً تفصيلياً لمؤسسات دينية وتربوية كانت تمارس معاملة خشنة ضد المجانين فى العصر الكلاسيكى لأنها ظنت أن هذه المعاملة هى العلاج الأوحد (٤٢) . وهى لا تخلص المجنون من طغيان حيوانيته بل تخلصه مما تبقى من إنسانيته وذلك باستبعاد أى معاملة إنسانية لم تعد تليق به ! فالاصابة بالجنون إنما «تضع حداً للحياة الانسانية» (٤٣) .

إن «العزل الكبير» لم يتم فى فترة توقف فيها العلاج الطبى أو تخلفت عنها الأفكار الانسانية Les idées humanitaires ، إلا أن «الجنون» كانيدرك على

---

(٤٢) نفس المرجع ، ص ص ١٦٧ – ١٦٨ .
(٤٣) نفس المرجع ، ص ١٧٢ .

أنه نفى للعقل في عصر اتصف بأنه عصر العقل . هو إذن لاوجود يقضى «بالعزل» (٤٤).

لقد كان «العزل»يكشف عن ماهية الجنون باعتباره «لا وجود»non-être ، وذلك برده إلى حقيقته أي إلى «العدم» néant . ولما كان العزل لايهدف إلا للاصلاح ، فإن هذا الإصلاح لا يكون إلا بالقضاء على هذا الجانب السلبي للوجود أو تأكيده بالموت . ولم يكن تمنى الموت بالنسبة للمعزولين دليلا على الإنحراف أو إنعدام الإنسانية أو مبالغة في الوحشية ، بل على الأحرى كان دليلا على التناسق بين الفكر والتطبيق في ذلك العصر . فقد احتوت سجلات «بيوت العزل» على عبارات مثل : «إن صحته تتدهور تدريجياً وتحتشم أن يموت قريباً» (٤٥).

الجنون كمرض في العصر الكلاسيكي :

إن ظهور الجنون كمرض في العصر الكلاسيكي حقيقة لا يمكن إنكارها. أما ما يشكل صعوبة أمام الباحث ، فهو وجود خبرة أخرى في العصر الكلا سيكي تتعامل مع الجنون بالعزل والعقاب والعنف . ويرى فوكوه أنه على الرغم من أن تواجد الخبرتين معا جنباً إلى جنب من شأنه أن يحيط المسألة بالغموض أمام الباحث غير المدقق ، إلا أن هذه المعاصرة هي التي تساعدنا في فهم نمط الادراك الذي تميز به ذلك العصر (٤٦).

شهد العصر الكلاسيكي إذن ظهور الجنون كمرض ، غير أن ممارسة

---

(٤٤) نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .
(٤٥) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٢٦٨
(٤٦) نفس المرجع ، ص ١٣١ .

العزل كانت مستقلة عن الطب ! صحيح أن المستشفى العام كان مزوداً بطبيب ولم يكن ذلك لشعور المسئولين أنهم يحبسون فيه المرضى ، بل لخوفهم من انتشار «حمى السجون» «fièvre des prisons» بين نزلائه (٤٧) . وليس في ذلك ما يدعو للدهشة ، إذ لم يكن هناك أدنى فرق بين قلاع السجون وقصور الاستشفاء .

ففي بداية القرن الثامن عشر ، أقتيد المدعو كلود ريمي Claude Rémy إلى قصر بيستر Bicêtre (وهو بيت العزل المخصص للرجال) بقرار من البرلمان . وجاء في القرار ما يلي : «يحكم عليه بالعزل والحبس مدى الحياة بقصر بيستر ويعامل معاملة الخبل» (٤٨) .

ويرى فوكوه أن العصر الكلاسيكي الذي فصل الكلمات عن الأشياء إنما يفصل أيضاً بين النظر والتطبيق . فلم توجد اكتشافات مناسبة في فن العلاج تتمشى مع الاكتشافات التي تمت في ميدان «الفسيولوجيا» على يد هارف وديكارت وويليس Willis (٤٩) . بل إن ثنائية الفكر والمادة التي قال بها ديكارت لم يتبعها في مجال الطب ثنائية مماثلة بين الروح والجسد أو بين الجانب السيكولوجي والجانب العضوي . وعندما استفاد الطب بهذه الثنائية بعد مضي قرن ونصف من الزمان ، لم يكن ذلك وفاء لذكرى ديكارت ، بل نتيجة لظهور تقييم جديد للخطيئة (٥٠) .

---

(٤٧) نفس المرجع ، ص ١٢٨ .
و«حمى السجون» هو مرض ظن أنه ينتشر بين نزلاء السجون والأماكن المزدحمة .

(٤٨) نفس المرجع ، ص ١٢٩ .

(٤٩) نفس المرجع ، ص ٣١٦ .

(٥٠) نفس المرجع ، ص ٣٣٧ . ونلاحظ أن تقييم الخطيئة لم يظهر إلا مع ظهور علم النفس . فعلم النفس لم ينشأ إلا لكي يحدد المقياس العام الذي يمكننا من الحكم على ما يصدر عن الأفراد من أفعال . راجع أيضاً : «تاريخ الجنون» ، ص ٤٩٩ .

ومع ذلك فإن فوكوه لا يتفق مع الرأى القائل بأن الجنون كمرض لم تتضح معالمه إلا فى وضعية القرن التاسع عشر .

ففى العصور الوسطى وعصر النهضة لم يكن الجنون مدركاً إلا أنه كان معترفاً به على مسرح الواقع الاجتماعى . إذ كانت «سفينة المجانين» فى العصور الوسطى بمثابة فكرة خيالية تحمل الخطر فى صورته العامة وتذهب به إلى عرض البحار (٥١).

ويذكر فوكوه أيضاً أن العصور الوسطى قد جعلت للمجنون أدواراً يقوم بها فى مشهد الحياة المألوفة وذلك قبل وجود الطب الذى يحدد معالمه(٥٢). وبعد انتهاء العصر الوسيط مباشرة تولته رعاية نزعة إنسانية طبية ظهرت تحت تأثير التيارات الثقافية الآتية من المشرق العربى . ويقول فوكوه عن هذه التيارات الثقافية :

> ويبدو أن العالم العربى قد أنشأ مبكراً مستشفيات حقيقية مخصصة للمجانين . فقد أنشأت مستشفى للمجانين فى مدينة فاس ابتداء من القرن السابع الميلادى ، وفى مدينة بغداد فى أواخر القرن السابع . وفى القاهرة فى غضون القرن التالى مباشرة ، وكان العلاج فى هذه المستشفيات يقوم على استخدام الموسيقى والرقص ومشاهدة المسرحيات والاستماع إلى أحسن القصص .

---

(٥١) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١١٨ .

(٥٢) كانت تعلق علامة الصليب على رؤوس الحبل حتى لا يتعرض لهم أحد بسوء . وكان الحمقى يدخلون قصور الملوك دون أن يوقفهم الحراس ، كما كان الحكام يستبشرون بقدومهم .

كما كان هناك أطباء متخصصون هم الذين يشرفون على العلاج ويقررون إيقافه عندما يتحققون من نجاحه. ولم يكن من قبيل المصادفة أن ظهرت في أسبانيا أولى مستشفيات الخبل في أوروبا وذلك في أوائل القرن الخامس عشر... وقد اشتهرت في أسبانيا مستشفى سراقسطة Saragosse التي أنشأت سنة ١٤٢٥ ، ومستشفى إشبيليه Séville سنة ١٤٣٦ ، ومستشفى طليطلة Tolède سنة ١٤٨٣، ومستشفى بلد الوليد Valladolid سنة ١٤٨٩ »(٥٣).

أما مستشفى «سراقسطة» ، فقد حاز إعجاب بينيل Pinel — فيما يرويه فوكوه — بعد مرور أربعة قرون على إنشائه . وذلك لحسن تنظيمه وإتقان إدارته .

يقول بينيل :

«كانت أبوابه مفتوحة على مصراعيها للمرضى من جميع البلاد وجميع الحكومات وجميع الملل كما يتبين من العبارة المنقوشة على المدخل : Urbis et Orbis (وتعني : لسكان المدينة وللعالم) . وكانت حدائقه الغناء تكبح جماح النفوس وتردها عن الضلال بفضل تتابع الفصول وظهور الثمار والانتقال من الحصاد إلى جمع الكروم أو قطف الزيتون » (٥٤).

---

(٥٣) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ص ١٣٣ — ١٣٤ .

(٥٤) ذكر فوكوه هذا النص ص ١٣٤ من «تاريخ الجنون» . أما بينيل فهو الذي ارتبط إسمه بتحرير المجانين من بيوت العزل في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر . وكان من أوائل الأطباء في تخصص الطب العقلي .

وإلى جانب هذه الصورة المشرقة لما كانت عليه «البيمارستانات» فى العالم العربى وفى اسبانيا بتأثير الثقافة العربية . يضع فوكوه أمام أعيننا صورة قاتمة لما كان عليه التعامل مع «الخبل» فى العصر الكلاسيكى. يقول نقلا عن أحد الكتاب فى القرن التاسع عشر :

«كان حراس الخبل يقودونهم للتنزه بعد العشاء فى فناء المنزل وكانوا يتعاملون معهم بالعصا تماماً كما يعامل قطيع من الغنم . وإذا انحرف أحدهم عن «القطيع» ، أو تباطأ فى السير ، فإنه كان يعاقب بطريقة جائرة لدرجةأن البعض كان يصاب بعاهة مستديمة أو يموت بسبب الضربات الشديدة على الرأس »(٥٥).

ويرى فوكوه أن هذا «العزل» الذى اتخذ صورة «غير انسانية» لم يكن بسبب خلل فى الإدارة. فالمؤسسات لم تكن وحدها المسئولة عن هذه الصورة البشعة ، بل إن مسئولية ذلك إنما تقع على عاتق الاحساس بالجنون la conscience de la folie أو إدراكه . فهذا الإحساس لم يكن بوسعه أن ينظر إلى «البيمارستان» باعتباره مكاناً للاستشفاء ، بل باعتباره — على أحسن تقدير — بيتاً للاصلاح .

وإذا كان عصر النهضة قد اعترف «بالجنون» دون أن يدركه (٥٦) ، فإن العصر الكلاسيكى إنما يدركه ، ويظهره «بالعزل» .

أما عن التغير الذى حدث منذ نهاية عصر النهضة وحتى منتصف العصر

---

(٥٥) ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ١٣٦ .
(٥٦) أنظر ص ١٨٠ .

الكلاسيكي فإنه لم يكن تطوراً في المؤسسات بقدر ما كان تغيراً في الإحساس بالجنون ، ذلك أن تطور المؤسسات ليس سوى مظهر لتغير هذا الاحساس أو الوعي .

وهنا يحق لنا أن نتساءل : لماذا لم يتغير هذا الإحساس لصالح المرضى رغم تواجد المؤسسات العلاجية في دولة مجاورة هي اسبانيا ؟ وهل اتصف العصر الكلاسيكي بتخلف المعرفة الطبية بالنسبة للعصر الذي سبقه ؟ .

وفي الاجابة عن التساؤل الأول نقول أن خصائص «الابستميه» أو الاستعدا د المعرفي السائد في العصر الكلاسيكي لم تكن تسمح بأن يتسلل اليها أي مفاهيم جديدة أو غريبة على النسق الثقافي السائد . فهذا النسق يتحدد «بعلم كلي للنظام» ، ويفصل التمثلات عن واقع الأشياء ، ويفشل في الربط بين النظر والعمل (٥٧) .

ويجيب فوكوعن التساؤل الثاني ويرى أن ما شهده العصر الكلاسيكي من عدم اكتراث بالجنون لم يشهده أي عصر غيره ، كما يرى أن هذا العصر هو عصر التمزق الشديد الذي وصل إلى الأعماق(٥٨) . غير أن هذا لا يعني اطلاقا أن القرن السادس عشر كان متقدما على العصر الكلاسيكي فيما يختص بمعرفة الجنون. فالنصوص الطبية الكثيرة التي وردت الينا من العصر الكلاسيكي كافية لإثبات العكس(٥٩) . لأن هذه النصوص تشير إلى تطور في المفاهيم العلمية كما تشير إلى أن الوعي الطبي بالجنون ، حتى وإن اعترف باستحالة الشفاء ، فإنه مع ذلك كان من الممكن أن يقضي على الأعراض

---

(٥٧) راجع خصائص «أبستميه العصر الكلاسيكي» ، الفصل السابق .
(٥٨) فوكو : «تاريخ الجنون» ، ص ١٩٠ .
(٥٩) نفس المرجع ، ص ١٣٨ .

أو — على الأقل — يتحكم في الأسباب (٦٠) . وقد جاء عجز هذا «الوعي» من جراء سلب جميع سلطاته ، فالحكم «بالعزل» كان ينبثق عن تصور سياسي وقضائي واقتصادي كما كانت تحتمه ضرورات إجتماعية . فلم يكن الطبيب هو الذي يحدد من المجنون ؟ وما درجة جنونه ؟ وما إذا كانت حالته تستلزم العزل أولا ؟ بل كان يتم ذلك كله بقرار من القاضي أو المحكمة أو أسرة الفرد أورجال الدين أوالجيران بما يقدمونه من الناس للقاضي(٦١). وهذا يعني أن الحكم بالجنون كان ينبثق عن حساسية إجتماعية sensibilité sociale مثله في ذلك كمثل الجريمة أو الفضيحة أو العار . ولم يكن غريباً أن تساءل الناس (ساخرين) في بداية القرن التاسع عشر عما إذا كان بقدرة الطبيب أن يتعرف على حالات الجنون أو أن يشخص طبيعتها (٦٢) .

أطباء العصر الكلاسيكي :

لما كان الفرد المغترب عقلياً لا يتقيد أمام المجتمع بأي التزام ، لذا فقد كان هناك ما يبرر عزله قانوناً . ومن هنا فقد عملت الخبرة الطبية في العصر الكلاسيكي على تبرير هذا العزل ، إيذاناً بظهور طب للأمراض العقلية يعتمد على أساس من الخبرة القانونية للاغتراب .

ففي القرن السابع عشر وتحت ضغط المفاهيم القانونية التي تستهدف تحديد شخص المجنون ، ظهرت البناءات الأولى للطب النفسي عند أطباء قانونيين من أمثال «زاكياس» Zacchias . وقدقام هذا الأخير بعمل تصنيف لمستويات الضعف العقلي كانت تسبقا (أو تمهيداً) للتصنيفات الحديثة التي جاءت بعد ذلك .

---

(٦٠) نفس المرجع ، ص ١٩١ .
(٦١) نفس المرجع ، ص ١٤٣ .
(٦٢) نفس الموضع .

أما القرن الثامن عشر فقد كانت مهمته أن يبحث عن الإلتقاء بين المفهوم القانونى وبين الحساسية الاجتماعية .أى بين «ذات عاجزة قانوناً» وبين « إنسان يعكر صفو الجماعة » (٦٣).

وقام فوكوه باستعراض جميع المحاولات التى قام بها أطباء القرن الثامن عشر لتحقيق هذه المهمة . وقد لا يتسع المقام هنا للإحاطة بكل ما جاء عنها فى كتاب «تاريخ الجنون فى العصر الكلاسيكى» ، وسنكتفى بالاشارة إلى أهم المناقشات التى دارت فى هذا العصر وتطرقت لموضوع الجنون .

كان الكثير من الأطباء يبحث عن مصدر الجنون فى اضطرابات الحس ، وكانوا فى ذلك متأثرين بأفكار الفيلسوف لوك . ولا يوافق سوفاج Sauvages ، وهو من أطباء القرن الثامن عشر على هذا الاتجاه ويقول : «إن أحول العين لو رأى الشىء الواحد مزدوجاً فإنه ليس مجنوناً . أما المجنون فهو من رأى الأشياء مزدوجة واعتقد أنها كذلك » (٦٤) . الجنون عند سوفاج إذن هو اضطراب فى النفس وليس فى الحس .

وكان فولتير يتفق مع سوفاج فى هذا الرأى ، وإن كان يعتقد أن اضطراب النفس يعنى وجود خلل بالمخ . فنسبة المخ إلى النفس هى تماماً كنسبة العين إلى البصر .

يقول فولتير :

«إننا نسمى جنوناً ذلك المرض الذى يصيب أعضاء

---

(٦٣) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ١٤٦ .

(64) Boissier de SAUVAGES, "Nosologie méthodique", tra. Gouvion, Lyon, 1772, t. VII, PP. 130, 141.

ذكره فوكوه ، ص ص ٢٢٨ من «تاريخ الجنون» .

المخ والذى يمنع الإنسان من أن يفكر أو يعمل مثل الآخرين » (٦٥).

ويلاحظ فوكوه أن ما كتبه فولتير فى هذا الموضوع إنما يتعدى مناقشات الأطباء فى عصره ، والتى كانت تقتصر على علاقة الحواس بالمخ . ففى نص لفولتير نجد محاورة شيقة بين أحد المجانين وأحد الأصحاء (٦٦) ، يقول النص فى حديث موجه إلى المجنون :

«إعلم ياصديقى أنه على الرغم من أنك فقدت الحس المشترك le sens commun ، فإن روحك تظل شفافة وطاهرة وخالدة مثل أرواحنا ، ولا تختلف عنها إلا فى فى حيز الاقامة . فالنوافذ عندك مغلقة ، والهواء لايتجدد ، وروحك مهددة بالاختناق » .

أما المجنون ، فإنه يعلم أن الأمر على عكس ذلك تماماً بما لديه من رؤية ثاقبة تنبثق من أعماقه فيقول :

«إنكم يا أصدقائى تفكرون فى الأمر على طريقتكم. أما أنا ، فلدى نوافذ مفتوحة مثل نوافذكم ، خصوصاً وأنى أرى نفس الأشياء التى ترونها وأسمع نفس الكلمات. ومن الضرورى إذن أن تكون روحى قد أساءت استخدام الحواس أو أن تكون من نوع ردىء . وباختصار ، فإما

(65) Voltaire : "Dictionnaire philosophique", article folie, éd. Benda, P. 285.

ذكره فوكوه ، ص ٢٢٦ من «تاريخ الجنون» .

(66) Ibid, P. 286.

ذكره فوكوه ، ص ٢٢٨ فى «تاريخ الجنون» .

أن تكون روحي مجنونة بذاتها وإما أن لا يكون لها
وجود على الاطلاق » .

ونلاحظ من هذا النص أن ما جاء على لسان المجنون من أن «روحه قد أساءت استخدام الحواس» أو أن« روحه مجنونة بذاتها» ، أو أنها «قد لا تكون موجودة اطلاقاً» ، إنما يثير تساؤلات عن علاقة الروح بالجسد وعن استقلالها عنه أو إندماجها فيه ؛ وعما يمكن أن يكشفه البحث فى الجنون من طبيعتها المادية ، وكلها تساؤلات لم تلق اهتماماً لدى الباحثين إلا فى القرن التاسع عشر عندما ظهر الطب النفسى الروحى والطب النفسى المادى . ويؤكد فوكوه على أن جميع النصوص التى تطرقت إلى موضوع الجنون فى العصر الكلاسيكى ، لم تعتبره مرضاً من أمراض النفس بل شيئاً آخر تماماً يخص النفس والجسم مجتمعين (٦٧). ولذا فمن العبث أن نحاول التمييز فى العصر الكلاسيكى بين طرائق العلاج «الفيزيقى» وبين التطبيب النفسى «médications psychologiques» ، وذلك لسبب بسيط هو أن علم النفس لم يكن قد عرف بعد . أما ظهور هذا التميز فيما بعد ، فإنه يبدأ فى الوقت الذى سينظر فيه إلى الجنون باعتباره مجرد مرض ، والمرض يعالج علاجاً جسمياً ، أما الاغتراب déraison فإنه سيدخل فى نطاق علم النفس .

ومن المناقشات الهامة التى تناولت موضوع الجنون فى القرن الثامن عشر ، مايتصل منها بعلاقته بالبيئة . فإذا كان القرن السابع عشر قد اكتشف الجنون فى فقدان الحقيقة la perte de la vérité ، وهى إمكانية سلبية possibilité négative ، تتصل بالقدرة على اليقظة ، ولا تتعلق بالطبيعة بل بالحرية (أى حرية الارادة) ،

---

(٦٧) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٢٣١ .

فإن القرن الثامن عشر يشهد بأن الجنون لم يعد يسكن فى الإنسان بل فى البيئة ، أى عندما تتغير علاقة الإنسان بالمحسوس أو بالزمان أو بالآخرين (٦٨). ولما كان فى «العودة إلى الطبيعة» ضمان لمستقبل أفضل حسب الأفكار السائدة فى القرن الثامن عشر ، فإن فى الابتعاد عنها اقتراب من خطر الجنون . لأن «الجنون هو الطبيعة المفقودة ، وهو اختلال الرغبات ، وضياع لميزان الوقت ، وهجر للملموس من الأشياء» . وإذا كان الجنون فى القرن السابع عشر يتسبب فى الارتداد إلى الطبيعة الحيوانية ، فإن سبب الجنون فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر هو البعد عن هذه الطبيعة (٦٩) . وهنا يظهر التقدم الحضارى وكأنه سلاح ذو حدين أحدهما يؤدى إلى الجنون . فهذا التقدم يعنى تعدد الاختراعات والأدوات البديلة التى تتوسط بين الانسان والطبيعة ، كما أنه يغرى بزيادة الاطلاع والدراسة وحياة المكتب والتفكير المجرد ، وفى كل هذا إهمال لمطالب الجسد ، إذ «كلما كان العلم مجرداً أو معقداً ، كلما كثرت مخاطر التردى فى الجنون بسببه» (٧٠).

ونلاحظ أن فوكوه ربما كان متعاطفاً مع هذه الأفكار . فهو يورد

---

(٦٨) نفس المرجع ، ص ٣٩١ .

(٦٩) نفس المرجع ، ص ص ٣٩٣ – ٣٩٤ .

ربما ظهر من يعترض بأن هناك «قطيعة» داخل «ابستميه» العصر الكلاسيكى بين تصور القرن السابع عشر وتصور القرن الثامن عشر لطبيعة وأسباب الجنون . وهذا الاعتراض غير صحيح . فالتناقض الظاهر بين تصورين هو تقابل بين أطراف مشتقة أركيولوجيا داخل الابستميه الواحد الذى يتحدد بداخله التفكير فى مجال حر للاختيار .

(70) Tissot (S. — A.) . "Avis aux gens de lettres sur leur santé," (Lausanne, 1767), P. 24.

ذكره فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٣٨٩ .

نصوصاً تبين أن البدائيين لا يعرفون المرض العقلي لأنهم يعيشون مع الطبيعة ولم تفسدهم الحضارة . ويلجأ في ذلك لشهادة بعض الانثروبولوجيين من أمثال راش Rush وهمبولت Humboldt. (٧١).

ومهما كان من شيء ، فإن هذا التفكير عن الجنون وعلاقته بالبيئة في القرن الثامن عشر يعتبر إرهاصاً للأفكار الرائدة عن الإنسان والتي ستظهر فيما بعد. فالقرن الثامن عشر يقدم تصوراً للاغتراب يسمح بتعريف البيئة على أنها نفي للانسان négativité de l' homme وعلى أنها القبلي الملموس لكل جنون ممكن (٧٢) .l'a priori concret de toute folie possible.

ويرى فوكو أننا هنا أمام مبدأ فلسفي هيجلي يختلط بفكرة بيولوجية عامة. أما المبدأ الهيجلي ، فهو الذي يرى في تعدد البدائل المتوسطة بين الإنسان والطبيعة خطراً يهدد بالاغتراب.

(l' aliénation est dans le mouvement des médiations)

وأما الفكرة البيولوجية ، فقد عبر عنها بيشا Bichat بقوله : «إن كل ما يحيط بالكائنات الحية إنما يهدف إلى تحطيمها» (٧٣) tout ce qui entoure les êtres vivants tend à les détruire. فكما أن موت الانسان يأتي من خارجه ، كذلك الجنون أيضاً والاغتراب.

ثالثاً : ظهور الطب النفسي في العصر الحديث :

إذا كان العقل في العصر الكلاسيكي يتحدد في مجال حر للاختيار ، فإن

---

(٧١) راجع : فوكو : «تاريخ الجنون» ، ص ص ٣٩٣ – ٣٩٤ .

(٧٢) فوكو ، «تاريخ الجنون» ، ص ٣٩٧ .

(٧٣) نفس المرجع ، ص ٣٩٦ .

– بيشا هو من علماء التشريح والفسيولوجيا الفرنسيين (١٧٧١ – ١٨٠٢) وسيرد الحديث عنه في الفصل القادم .

الحدود بين العقل والجنون فى القرن التاسع عشر إنما تقام على أرض وضعية Positif ، وإذا كان العصر الكلاسيكي فى رفضه للجنون يستند إلى ضمير أخلاقى معين ، فإننا نجد أن عصر بينيل Pinel قد غير العلاقة الأساسية بين الأخلاق والعقل ، وأصبح العقل هو الذى يقود الأخلاق ، كما أصبح الجنون قصوراً لا إرادياً يصيب العقل من الخارج . وعندئذ فقط اكتشفت الحالة المفزعة التى عاش عليها المجانين لسنوات طويلة داخل بيوت العزل ، فقد عومل «الابرياء» معاملة «المذنبين» . وهذا التغير لا يعنى أن «الجنون» قد حصل أخيراً على مرتبة انسانية ، كما أنه لا يعنى أن «الباثولوجيا» العقلية قد خرجت به لأول مرة من عهد سابق تميز بالبربرية ؛ بل إن هذا يعنى بكل بساطة أن الإنسان قد غير من علاقته القديمة بالجنون ، فلم يعد يدركه إلا منعكساً على سطحه هو ، وفى عرض إنسانى هو المرض (٧٤). غير أن هذا الإدراك الجديد لم يتكون طفرة واحدة من تلقاء ذاته : بل كان لتكوينه شروط قدمت له ، وسياق حتم ظهوره . فقد صدر فى سنة ١٧٨٥ مرسوم ملكى — فى فرنسا — يأمر بادخال الرعاية الطبية فى بيوت العزل . وصدر فى نفس السنة قرار من «الجمعية الوطنية» يطالب بالتحقق من حالة «المعزولين» ، وأن يذكر فى «ملف» كل منهم ما إذا كان خبلا أم لا (٧٥) . وهنا يظهر العلم القانونى للخبل على أنه شرط أساسى لكل «عزل» . كما تظهر الملامح الأولى لعلم جديد سوف يزعم لنفسه القدرة على علاج المجنون ككائن أنسانى وهو «الطب النفسى» بقيادة بينيل Pinel .

---

(٧٤) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ص ١٥٨ ، ١٥٩ .
(٧٥) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ١٨٩ .

وإذا زعم البعض أن الجنون لم يصبح موضوعاً للدراسة العلمية الجادة على يد الطب النفسي إلا بعد أن تخلص من شوائب دينية وخلقية علقت به منذ العصور الوسطى ، فإن ميشيل فوكوه يؤكد لم أن الجنون لم يصبح موضوعاً objet إلا بعد أن حكم عليه بالعزل قراب مائة وخمسين عاماً ظل طوالها صامتاً . فالعزل يظهر الجنون ويعزله في نفس الوقت (٧٦) . وإذا كان العصر الوضعي l'âge positiviste (بدايات القرن التاسع عشر) يدعي بأنه هو الذي حرر المجانين من هذه السجون المظلمة التي لاتنفذ إليها عين الإنسانية ، فإن فوكوه يرى أن هذا الإدعاء لا أساس له أيضاً (٧٧).

إن الاحساس بحقيقة الجنون la conscience de la folie لم يتطور داخل نطاق حركة إنسانية قربته بالتدريج من الواقع الإنساني «للمجنون» ، كما أنه لم يتطور تحت تأثير حاجة علمية besoin scientifique جعلت الجنون يتحدث عن ذاته بطريقة موضوعية. بل إن هذا التغير قد انبثق داخل مجال واقعي هو «العزل» . وكان العزل قد تعرض لأزمات عنيفة هي التي كان لها الفضل في إظهار وتكوين ذلك الاحساس الجديد الذي كان معاصراً للثورة الفرنسية .

وربما نندهش ، إذا علمنا أن النظرة الجديدة للجنون كانت ذات طابع سياسي بالدرجة الأولى (٧٨).

فقد شهد القرن الثامن عشر مناقشات عديدة تخص موضوع «العزل» .

---

(٧٦) نفس المرجع ، ص ١١٩ .
(٧٧) نفس المرجع ، ص ٤١٦ .
(٧٨) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٤١٨ .

ولم تكن تهدف هذه المناقشات إلى تحرير المجانين أو علاجهم بل كانت تنصب على الجمع بين فئتي المجنون وغير المجنون نتيجة لاحتجاج الكثيرين من أعضاء الفئة الثانية . وقد كان من بين المحتجين من يقول : «حجزت ضمن مجانين كان بعضهم هائجاً مما جعلني معرضاً للاهانات في كل لحظة» (٧٩). وقال أحد رجال الدين شاكياً (٨٠) «إن هذا هو الشهر التاسع الذي حجزت فيه ضمن عشرين مجنوناً هائجاً ، وفي ظروف مثيرة للرعب حقاً» .

وقد تضاعفت هذه الإحتجاجات في السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، وصار الجنون مثيراً لرعب أي إنسان يحكم عليه بالحجز . كما اعترف ميرابو ، أشهر خطباء الثورة الفرنسية ، بأن الجنون كان أداة في يد السلطة ورمزاً لعنادها ، تستخدمه في مواجهة كل من أريد عقابه (٨١).

ويذكر فوكوه أنه إذا كان عام ١٧٧٠ يمثل بداية لإعادة النظر في «مسألة العزل» . فإن هذا التاريخ كان يتوافق في التوقيت مع ذروة الأزمات الاقتصادية في انجلترا وفرنسا . وقد رأى الاقتصاديون في ذلك الوقت أن «العزل» خطأ اقتصادي . فالسكان هم أحد عناصر الثروة ، والثراء يرتبط بالعمل الذي يقوم به الانسان . كما نبه هؤلاء الاقتصاديون إلى أن رعاية الدولة لفرد لايعمل يكون على حساب الأفراد العاملين . والرعاية الوحيدة التي يمكن للدولة أن توفرها للأفراد هي إزالة العوائق التي تحد من حريتهم وبالتالي من إنتاجهم (٨٢) .

---

(٧٩) نفس الموضع .
(٨٠) هو الأب مونتيريف L'abbé de Moutérif ذكره فوكو ، نفس المرجع ص ٤١٩ .
(٨١) فوكوه «تاريخ الجنون» ، ص ٤١٩ .
(٨٢) نفس المرجع ، ص ٤٢٢ .

وبالاضافة إلى موجات الاحتجاج ونصائح الاقتصاديين ، فقد جاء «اعلان حقوق الانسان»(٨٣) ليقضى تماماً على بيوت العزل . فهو ينص على عدم جواز القبض أو السجن إلا بعد المحاكمة وثبوت الاتهام . وقد انبثق عن هذا «الاعلان» مرسوم خاص بتاريخ ١٦ مارس سنة ١٧٩٠ ، يصدر أمراً بما يلي : «في خلال ستة أسابيع من تاريخه يفرج عن كل مسجون في بيوت العزل ما لم يكن متهما في إحدى الجرائم وما لم يكن محجوزاً بسبب الجنون» (٨٤).

وهنا يتضح أنه في الوقت الذى انهار فيه نظام العزل تماماً يظل المجنون حبيساً مثله في ذلك كمثل المحكوم عليهم من المجرمين . وقد كان هذا التغير الجديد هو الذى أدى إلى ظهور تساؤلات جديدة طرحها الأطباء والمفكرون من أمثال تينون Tenon وكاباني Cabanis (٨٥) . إذ رأى هؤلاء الأطباء أن العزل المثالى هو الذى يوفر حرية الحركة للمجنون ، وذلك بأن يسمح له بالخروج من عزلته إلى الهواء الطلق في حدائق خاصة معدة لذلك . وهم يجمعون على ما للحرية من قيمة أساسية في العلاج وذلك لاعتقادهم بأن قيود الجسد إنما تطلق العنان لجموح الخيال ، وأن هذا الأخير هو مكمن الخطأ والمسئول عن كل أمراض النفس . فالحرية كمبدأ في العلاج تجعل الخيال يصطدم دائماً بالواقع الملموس . وقد استخدم هذا المبدأ في العلاج النفسى فيما بعد عندما أطلق حرية الحوار والمحادثة .

---

(٨٣) صدر هذا الإعلان في أعقاب الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩وهو غير «الإعلان العالمي لحقوق الإنسان» الذى سيصدر عن الأمم المتحدة فيما بعد سنة ١٩٤٨ .

(٨٤) فوكوه ، «تاريخ الجنون» ، ص ٤٤٢ .

(٨٥) سيأتى ذكر هما في الفصل القادم .

ويظهر مما تقدم أن العزل قد أصبح مكاناً للعلاج يستهدف الشفاء بعد أن كان سجناً حتى الموت . كما يظهر أن هذا التحول لم يحدث بسبب الاستخدام المتطور للطب بل بسبب إعادة التنظيم الداخلي لبيوت العزل ذاتها . فالقيم الجديدة التي دخلت بيوت العزل هي التي سهلت دخول الطب إلى هذه البيوت ، وحولتها بالتالي إلى بيمارستانات .

بينيل (٨٦) وتوك : (أو الطب النفسي الوضعي)

لقد ارتبطت أسماء بينيل وتوك بظهور البيمارستانات الحديثة . إذ كانا يمارسان العلاج انطلاقاً من فكرة أساسية وهي أن الجنون ليس ارتداداً إلى طبيعة أخرى مخالفة لطبيعة الانسان كما أنه ليس فقداً تاماً للعقل . فالشفاء عند بينيل إنما يكشف عن وجود فضائل إنسانية نقية ومبادىء ثابتة لدى الخبل . يقول :

> «لم يكن ليتسنى لي أن أرى أزواجاً مثاليين ، وآباء وأمهات يتفانون في محبة أبنائهم ، وأفراداً يحرصون على الإخلاص في عملهم ، ما لم أكن قد عايشت هذا العدد من الخبل بعد أن وصلوا إلى دور النقاهة» (٨٧) .

---

(٨٦) بينيل هو طبيب فرنسي ، ولد في مقاطعة وتارن ، بفرنسا (١٧٤٥ — ١٨٢٦)، وكان يعمل في مستشفى بيستر Bicêtre في الفترة التي ساد فيها الارهاب بعد الثورة الفرنسية . ويرجع له الفضل في حماية عدد كبير من الارستقراطيين ورجال الدين من المقصلة بحجة إصابتهم بالخبل .

(87) P. Pinel, "Traité médico-philosophique" , Paris (1801)

ذكره فوكو ، «تاريخ الجنون» ، ص ٥١٣ .

أما صمويل توك فكان يستشهد بحالة سيدة أصيبت بالخبل . وكانت إذا ارتفعت درجة حرارتها لا تهذى كما يحدث للأصحاء بل كانت تتذكر أحداث طفولتها وتسلك سلوكا عاقلا طوال إصابتها بنوبة الحمى . وهذا يعنى أن الجنون لا يذهب العقل تماما . وكان توك لذلك يفضل استخدام الكلمة الفرنسية aliéné بدلا من الكلمة الانجليزية insane .

ويذكر فوكوه أن هذه الفكرة الأساسية فى العلاج عند بينيل وتوك قد عبر عنها الفيلسوف هيجل فيما بعد بقوله :

> «إن العلاج الحق ينبغى أن يقوم على أساس أن الجنون ليس فقداً تاماً للعقل . لا من ناحية الذكاء ولا من ناحية الإرادة والمسئولية ، بل هو مجرد اضطراب فى النفس وتناقض فى العقل يحدث مثيله فى الجسم. فالمرض الجسمى ليس فقداً تاماً للصحة بل هو تناقض يكتنفها . إن هذا العلاج الانسانى — أى العاقل— للجنون ، إنما يفترض وجود العقل لدى المريض ويعتبره نقطة انطلاق أساسية (٨٨) .

ويتضح مما تقدم أن البيمارستان الحديث كان بمثابة الموقظ للطبيعة المنسية كما كان معبراً للعودة إلى المجتمع . ويتضح أيضاً أن النظرة الوضعية قد رأت حقيقة الجنون فى العقل البشرى ذاته على عكس التصور الكلاسيكى الذى كان يرى فى خبرة الجنون دحضاً لكل حقيقة بشرية .

وإذا تساءلنا عن مكانة الطبيب فى البيمارستان الحديث ، فإننا نلاحظ أنها لاتستمد من كثرة المعلومات الطبية أو الاسعافات التى يمكن أن يؤديها الطبيب بل من دوره الذى يماثل دور «الحكيم» sage لما له من وظيفة قضائية وأخلاقية. ولذا كان الفيلسوف كنط يعتقد بأن الدور الرئيسى فى المارستان ينبغى أن

---

(٨٨) (88) Hegel Encyclopédie des sciences philosophiques P. 408. ذكره فوكوه ، وتاريخ الجنون ، ص ٥٠١ .

يقوم به «فيلسوف» (٨٩).

غير أن علم الأمراض العقلية – كما شهدته البيمارستانات في القرن التاسع عشر – لم يتجاوز مجال الملاحظة والتصنيف إلى لغة الحوار . فهو لم يكن حواراً بحق إلا في الوقت الذي سيقوم فيه التحليل النفسي بطرد «النظرة الوضعية» (وهي أساسية في مارستان القرن التاسع عشر) ، على أن يستبدل بها قوة اللغة .

ويرى فوكوه أن اكتشافات فرويد قد أزاحت الستار عن فهم أوربي خاطيء لموضوع الجنون . فقد فهم الجنون قبل فرويد على أنه « كلام ممنوع » أو « لغة مستبعدة » . أما فرويد ، فهو لم ينظر إلى هذا «الكلام الممنوع » على أنه فلتات لسان أو أخطاء لغوية أو تصريح بالكفر أو بأي معنى لا يحتمل ، بل إنه ينظر إليه على أنه كلام متقوقع حول ذاته qui s' enveloppe sur elle même ، ويعني شيئاً آخر غير معناه الظاهر ، وهذا الشيء هو قانون أوحد أو لغة خفية ésotérique. وما الكلام الظاهر الا غلاف لهذه اللغة منبثق عنها ومتضمن فيها . ويلاحظ فوكوه أن فهم فرويد على هذا النحو يكفي لحماية أبحاثه ضد كل التفسيرات التي تتخذ صبغة سيكولوجية والتي سادت في النصف الأخير من هذا القرن .» فالتحليل النفسي ليس «علم نفس» ، بل هو تجربة للاغتراب une expérience de la déraison يعمل علم النفس الحديث على طمسها » (٩٠) . أو «هو حوار مع خبرة الاغتراب التي ردت إلى الصمت على يد الوضعية» (٩١) . ويترتب على هذا الفهم الجديد أن الجنون يظهر لا كلغز محير يختبيء معناه بل كنمط مؤجل لأي معنى . وهنا يلاحظ فوكوه تقارباً بين الجنون وبين الأدب المعاصر ! .

---

(٨٩) فوكوه ، «تاريخ الجنون » ، ص ٥٢٤ .

(٩٠) فوكوه : «تاريخ الجنون » ، ص ٣٦٠ .

نلاحظ أيضاً أن التحليل النفسي هو محاولة لدراسة «اللاشعور »(خارج «الإنسان» نفسه)، وهو بالتالي يستبعد أي تفسير سيكولوجي .

راجع زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية » ، ص ١٥٨ .

(٩١) نفس المرجع .

ففي نهاية القرن التاسع عشر — أي مع اكتشاف التحليل النفسي ، نجد أن الأدب قد أصبح كلاماً يحمل بين طياته مبدأ فهمه ، أي أنه يفترض تحت كل جملة من جملة أو تحت كل كلمة من كلماته وجود قوة قادرة على تغيير المعاني والقيم داخل اللغة التي ينتمي اليها . وهذا يعني أنه أصبح لغة مرفوضة langage exclu لأنه يتمرد على الضوابط اللغوية المعروفة وقوانينها ، أو أنه لغة أخرى أو نفي للغة un non-langage ، وهذا هو نفسه تعريف الجنون منذ فرويد (٩٢) .

ويقول فوكوه أنه منذ روسل Raymond Roussel (١٨٧٧—١٩٣٣) ، وأرتوه Antonin Artaud (١٨٩٦—١٩٤٨) ، وهما من الأدباء الفرنسيين ، بدأنا نشعر بأن لغة الأدب لا تعرف بما تقوله ولا بالبناءات التي تجعلها دالة ، إذ أن لها كينونة مستقلة ، وهذه الكينونة هي ما ينبغي البحث عنه والتساؤل بصدده (٩٣) .

إن كينونة الأدب منذ أن ظهرت ملامحها عند مالا رمية تتصف بالتضمن الذاتي l'auto-implication وتكمن في نفس المنطقة التي شغلها الجنون منذ فرويد (٩٤).

ويرى فوكوه أنه بهذا يكون قد قرب بين جملتين متناقضتين كلاهما يشير إلى نفس المصدر وهما : أنا أكتب «j' écris» وأنا أهذى «je délire» (٩٥).

---

(٩٢) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٨٠ .

(٩٣) نفس المرجع ، ص ٥٨١ .

(٩٤) نفس الموضع .

ومالا رميه ، شاعر فرنسي ولد في باريس (١٨٤٢ — ١٨٩٨) . وهو إمام الحركة الرمزية ، وعنده أن موسيقى الكلمات أكثر أهمية من معناها .

(٩٥) نفس الموضع .

الجنون والمرض العقلى :

يرى فوكوه أن الجنون والمرض العقلى لا ينتميان إلى نفس الوحدة الأنثر وبولوجية la même unité anthropologique على الرغم من أنهما احتلا نفس المكان فى مجال «اللغات المرفوضة» منذ القرن السابع عشر . وهو يرى أن المرض العقلى فى طريقه إلى الاختفاء بسبب تقدم العلاج (٩٦) .

ويحدد فوكوه تاريخ الفصل بين الجنون بمعنى الاغتراب وبين الجنون بمعناه الباثولوجى (أو المرض العقلى) وذلك بأول أغسطس سنة ١٨٠٨ ، وقد كان هذا هو تاريخ الرسالة التى كتبها روايه كولار Royer-Collard (أول من حاول أن يؤسس علماً وضعياً للجنون بمعناه الباثولوجى) إلى فوشيه Fouché وهو وزير البوليس فى عهد نابليون بونابرت ، يطلب طرد الماركيز دى ساد من بيت أراد أن يؤسس به بيمارستانا . وكان دى ساد Sade هو الكاتب الوحيد الذى اتصف بالجرأة وصاغ نظرية فى «الاغتراب» . وقد اتهمه كولار بأنه يزاول أعمالا غير أخلاقية لا تدخل ضمن الجنون الذى يقوم هو على علاجه بالمستشفى (٩٧).

ويرى فوكوه أن التقابل بين الرجلين كان من الصدف الغريبة إذ أن أحدهما هو أول من قام بصياغة نظرية الاغتراب ، والثانى يحاول أن يجعل الجنون قاصراً على الإصابة الباثولوجية فقط . كما كان هذا التقابل هو بداية تحطيم الوحدة المتضمنة فى الجنون بمعناه الكلاسيكى والتى كانت تشتمل على أنماط مختلفة ومتباعدة .

---

(٩٦) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٨٢ .
(٩٧) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ص ١٢٢ — ١٢٣ .

وإذا كان دى ساد هو أول من فصل الجنون عن المرض العقلى ، فإن شخصية الـ Neveu de Rameau هى آخر الشخصيات الغريبة التى جمعت بين الاثنين كما أنها هى أيضاً التى تبشر بلحظة الانفصال بينهما (٩٨) . ولقد كان ظهور هذه الشخصية وأو النص» الذى كتبه ديدرو » (١٧١٣-١٧٨٤) فى صيغة حوار بين فيلسوف وبين مجنون بمثابة عودة لما كانت عليه شخصية المجنون فى العصور الوسطى . شخصية مرحة ، تضحك الآخرين ، وتعيش مع العقلاء على هامش الحياة ، غير أنها تتكامل معهم . وقد جاء فى هذا النص أن المجانين يخرجون على هذا الاتساق الممل والذى أدخلته علينا التربية واصطلح عليه أفراد المجتمع . كما أنهم يخرجون على ما درجنا عليه من سلوك . فإذا ظهر أحدهم ضمن جماعة ، فإنه بمثابة حبة من «خمير» تتكاثر فترد إلى كل فرد جزءاً من ذاتيته الطبيعية .إنه يثير تعاطف البعض كما يثير استهجان البعض الآخر . وهو من الممكن أن ينطق بالحقائق ويجعلنا نعرف الخيرين ، كما يكشف النقاب عن الأوغاد » (٩٩).

وهذه العبارة تكشف عما سيكون عليه معنى الجنون فى العالم الحديث . فكل ما يبتعد به عن العقل أو عن الحقيقة أو عن الحكمة إنما يقربه من صفاء الكائن .

عاد الجنون إلى الظهور إذن فى مجالى الأدب واللغة بعد غيبة طالت أكثر من قرن من الزمان .

---

(٩٨) نفس المرجع ، ص ٣٦٤ .

(٩٩) Diderot ,"Le Neveu de Rameau"PP. 426—427 (99)

ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٣٦٦ .

وتسمح له بالتعبير عن ذاته ، وبأن يفصح عن علاقته الأساسية بالحقيقة فى الأعمال الأدبية . ولم يكن — فيما يقوله يبتعد كثيراً عما تتضمنه الصور المضطربة للأحلام من حقائق إنسانية قديمة أو حديثة ، تقترب من الذاتية ، وإن كانت تعتزل الفرد تماماً لأنها تنبثق عن النظام الأبدى للأشياء(١٠٠) .

ويلاحظ فوكوه أن صور الجنون التى تحررت فى نهاية القرن الثامن عشر لا تتطابق تماماً مع تلك التى أراد القرن السابع عشر أن يطمسها . فإذا كان هنالك فى عصر النهضة من ربط بين الجنون وبين عالم فائق للطبيعة ، فإن الصور المحررة تحتل مكاناً فى أعماق البشر وفى رغباتهم وتخيلهم . فهى تظهر التناقض الغريب فى شهوات البشر : بين القسوة والتعطش للعذاب ، وبين السيادة والعبودية ، وبين الرغبة والقتل ... الخ (١٠١) . وإذا كان المشاهد للمجنون فى العصر الكلاسيكى يمكنه أن يقرر بنفسه — من الخارج — مدى بعد المسافة التى تفصل حقيقة الإنسان عن حيوانيته ، فإن الجنون فى القرن التاسع عشر كان ينظر اليه نظرة حياد واهتمام : حياد لأننا من الممكن أن نكتشف فيه الحقائق العميقة فى الإنسان ، واهتمام لأن فى اعترافنا به اعترافاً بأنفسنا . فنحن نسمع فى أنفسنا نفس الأصوات ونفس القوى ونفس الأضواء الغريبة les mêmes étranges lumières (١٠٢) .

إن السادية le sadisme ليست مجرد اصطلاح أطلق مؤخراً على ممارسة قديمة هى الحب Eros ، إنها حدث ثقافى مكثف un fait culturel massif

---

(١٠٠) فوكوه ، « تاريخ الجنون » ، ص ٥٤٩ .
(١٠١) نفس المرجع ، ص ٣٨٢ .
(١٠٢) نفس المرجع ، ص ٥٣٧ .

مظهرا في نهاية القرن الثامن عشر، ويشير إلى حدوث انقلاب خطير في عالم الخيال لدى الغربيين، فقد أصبح [illegible] حوار بين الحب والموت [illegible] (١٠٣).

ويرى فوكوه أنه ليس من قبيل المصادفة أن تظهر «السادية» — وهي الظاهرة التي تحمل اسم فرد — من العزل وفي العزل internement. وليس من قبيل المصادفة كذلك أن تمتلئ كتابات «ساد» بصور العزل واصطلاحاته دون أن تكون هذه الصور وتلك الاصطلاحات هي الأرض المشتركة والمادة المفضلة لكثير من الأدباء المعاصرين لساد (١٠٤). إلا أن ما أضافت قلاع العزل إلى دورها الاجتماعي وظيفة ثقافية متعارضة تماما: ففي اللحظة التي استطاعت فيها هذه القلاع أن تفرق بين العقل واللاعقل على سطح المجتمع، فإنها احتفظت في الأعماق بصور تختلط بعضها بعضا، فأصبحت بمثابة ذاكرة صامتة. وبعبارة أخرى يقول أن القوة التي استبعدها النظام السائد في العصر الكلاسيكي [illegible] رغم مرور الزمان [illegible] في القرن التاسع عشر [illegible] الاغتراب والفكر المعاصر.

لاحظ فوكوه أن «الاغتراب» هو الصفة الرئيسية للفكر المعاصر. وإذا كان «الجنون الباثولوجي» يسير «محاذيا للطبيعة وفقا للمسار العادي للتاريخ، ويرتبط دائما بالحضارة ومثالبها» (١٠٥)، فإن الاغتراب إنما يتمثل في الخبرة [illegible]

(١٠٣) نفس المرجع، ص ٣٨١.
(١٠٤) نفس الموضع.
(١٠٥) فوكوه: «تاريخ الجنون»، ص ٣٨.

التي ترتد إلى جذور عميقة في الزمان ، أي تسير في اتجاه معاكس لاتجاه الزمان ، وتظهر بوضوح عند أمثال هولدرلن Hölderlin الشاعر الألماني (١٧٧٠ — ١٨٤٣) ، ودي نيرفال Nerval (١٨٠٨ — ١٨٥٥) ، والفيلسوف نيتشة (١٨٤٤ — ١٩٠٠) .

وإذا كان الجنون في العصر الكلاسيكي قد فهم على أنه «لا وجود» ، فإنه في العصر الحديث لا يزال يحتفظ بطبيعة تجعله في غير متناول النظرة الموضوعية . إذ عندما نواصل البحث عن ماهيته الدفينة ، فإننا لا نضع أيدينا إلا على لغة العقل وقد طبقت على منطق الهذيان logique du délire . وهذه اللغة التي تهدف إلى كشف طبيعته إنما تتجاوزه إلى شيء آخر هو الطبيعة الإنسانية ذاتها . فالانسان وهو في كامل عقله يمكنه أن يرى — من خلال الجنون — حقيقته الملموسة والموضوعية . وهذه الحقيقة تتناقض مباشرة مع الحقيقة الأخلاقية والاجتماعية (١٠٦).

ويلاحظ فوكوه أن تناقض علم النفس الوضعي في القرن التاسع عشر إنما يرجع إلى أنه يبدأ — منهجياً — من لحظة نفي un moment de négativité. فعلم نفس الشخصية يبدأ من تحليل ازدواج الشخصية ، وعلم نفس الذاكرة يبدأ من أمراض فقدان الذاكرة ، وعلم نفس اللغة يبدأ بأمراض النطق ، وعلم نفس الذكاء يبدأ بالضعف العقلي . وكأن حقيقة الإنسان لا تتكشف إلا لحظة اختفائها ، أو كأنها لا تظهر إلا بعد أن تصبح شيئاً آخر مخالفاً لذاتها (١٠٧).

وحيث أن علم النفس لا يمكنه أن يتكلم إلا لغة الاغتراب ، فإنه لا يصلح

---

(١٠٦) نفس المرجع ، ص ٥٤٥ .
(١٠٧) نفس الموضع .

إلا لنقد الإنسان أو لنقد ذاته ، وهو دائماً بطبيعته فى مفترق الطرق : فهو يعمق سلبية الإنسان إلى أقصى حد ، فيلتقى الحب بالموت والنهار بالليل مما يدفعنا إلى التفلسف . وهو بهذا ، وبنفيه للوجود en niant l'être إنما يكون جزءاً من جدل الإنسان الحديث الذى يبحث عن حقيقته . وهذا يعنى أنه لن يرقى إلى مستوى المعارف الحقيقية (١٠٨).

ويتضح مما تقدم أنه إذا كان المشروع الديكارتى le projet de Descartes يتلخص فى تحمل الشك مؤقتاً حتى ظهور الحقيقة فى الفكرة المتميزة ، فإنه لم يعد من الضرورى فى الفكر المعاصر أن تعبر مواطن الظن من هذيان وحلم ووهم حتى نصل إلى الحقيقة . كما أنه لم يعد من الضرورى أن نتغلب على مخاطر الجنون . فقد ظهرت إمكانية فهم العالم فى هذيان يجمع un délire qui totalise وفى وهم يتساوى مع الحقيقة une illusion équivalent à la vérité (١٠٩) .

وهنا يتضح للهذيان معنى جديد بعد أن كان يعرف فى إطار الخطأ . كما تظل القرابة بينه وبين الحلم قائمة . وهما لا يسبحان الآن فى ليل بهيم ، بل يسبحان فى هذا الوضوح clarté الذى يتجلى فى المواجهة المباشرة بين الموجود l'être وبين ما يكمن تحت سراب الظواهر من ترتيب ونظام . ولقد كانت هذه المواجهة المأساوية هى الملامح التى بشرت بمجىء فرويد ونيتشه (١١٠) .

---

(١٠٨) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٤٩ .

(١٠٩) نفس المرجع ، ص ٣٦٩ .

(١١٠) نفس الموضع .

وإذا كان من الممكن أن نتعرف على الاغتراب فى «تلك اللحظة التى تتجاوز كل تعبير ، وهى اللحظة التى يخرج فيها الفرد عن ذاته كى يتصل بالأعماق الدفينة فى العالم ، فإن هذا يعنى أن حقيقة العالم إنما تلتمس داخل فراغ مطلق un vide absolu يتقابل الانسان فيه مع حقيقته » (١١١).

ولم يكن خروج الفرد عن ذاته وتقابله مع حقيقته إلا «هربا للأنا من الأغيار» (١١٢). " Expulsion de l' autre hors de la raison» " .
وهذا الهرب هو الخبرة الحقيقية للمعرفة ، وهو أيضاً تعبير عن الخبرة الحقيقية للجنون . «فالجنون ليس مجرد «موضوع» معرفة فحسب؛ بل هو «أداة» أو «وسيلة» معرفة كذلك» (١١٣) .

وفى ختام هذه الدراسة عن الجنون يؤكد فوكوه صراحة على أن حقيقة الإنسان لاتتكشف إلا مع خطر الجنون (١١٤). La vérité de l' homme ne s' ouvre que dans le désastre de la folie . فمن ظلام الجنون ينبثق ضياء الحقيقة . ألم يصيح نيتشه قائلا : « أنا الحقيقة » عندما أصابه الجنون سنة ١٨٨٧ ؟ (١١٥) .

«إن الانسان المعاصر لا أمل له فى الكشف عن حقيقته إلا من خلال «لغز» الجنون الذى هو ذاته وغير ذاته فى نفس الوقت . وإذا كان بيمارستان بينيل قد

(١١١) فوكوه : «تاريخ الجنون » ، ص ٣٧٠ .
(112) F. WAHL : "Le structuralisme en philosophie" Op cit., P. 367.
(١١٣) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية » ، ص ١٣٠ .
(١١٤) فوكوه : «تاريخ الجنون» ، ص ٥٤٨ .
(١١٥) نفس المرجع ، ص ٥٨١ .

حرر المجنون من أغلاله اللاإنسانية فهو إنما يقيدمه الإنسان وحقيقته» (١١٦).

وإذا تساءلنا عن أهم النتائج التي تمخضت عنها هذه الدراسة ومدى نجاحها في مسايرة المنهج الذي وضعه فوكوه فإننا نلاحظ ما يلي :—

أولا : أثبت فوكوه أن التعرف على الجنون ظاهرة ثقافية تتغير حسب متغيرات العصر أو على الأحرى حسب مايرتضيه لنا الاستعداد المعرفي السائد «الابستميه». وإذا كان الطب النفسي في القرن التاسع عشر — وربما حتى وقتنا هذا — يعتقد أنه يتخذ إجراءاته بالنسبة للإنسان العادي l'homme normal ، فإن «الإنسان العادي» هو مجرد اختراع . وإذا كان لابد من تحديد مكانه ، فإن ذلك لا يكون بالنسبة للمجال الطبيعي l'espace naturel بل بالنسبة للمجال الاجتماعي . وبناء على ذلك ، فإن المجنون لا يعترف بجنونه لأنه انحرف نحو حافة «العادية» normalité بسبب مرض أصابه ، بل لأن ثقافتنا وضعته في نقطة الإلتقاء بين القرار الاجتماعي بالعزل وبين المعرفة القانونية التي تحدد القدرات . وهنا نلاحظ أن هذا التأليف synthèse بين الجانب الاجتماعي وبين المعرفة القانونية للقدرة هما بمثابة القبلي الملموس l'a priori concret لعلم الطب النفسي (١١٧).

ثانياً : إن ما جعل هذا العلم ممكناً في زمانه هو نسق من العلاقات بين مفاهيم عديدة : منها مايتصل باستقبال المرضى أوعزلهم ، ومنها ما يتصل بقوانين الاستبعاد exclusion وقواعد التشريع ، ومنها ما يتصل بمعايير

---

(١١٦) نفس المرجع ، ص ٤٤٨ .

(١١٧) نفس المرجع ، ص ١٤٧.

العمل في المجتمع الصناعي والأخلاق البورجوازية . وباختصار نقول أن ما جعل هذا العلم ممكناً هو كل ماتميز به تكوين المنطوقات داخل هذه الممارسة المقالية .

ثالثاً : بين فوكوه أن هذه الممارسة المقالية لا يقتصر ظهورها فقط على هذا العلم ، بل اننا نجدها كذلك في نصوص قانونية وتعبيرات أدبية وقرارات سياسية وتصريحات يومية وآراء خاصة ، وحتى في التفكير الفلسفي ذاته .

رابعاً : قدم فوكوه وصفاً لتاريخ « الجنون» نفسه — لا تاريخ «الطب النفسي». وقد كانت هذه المحاولة هي الأولى من نوعها لأنها تبحث فيا يلتف حول فكرة الجنون من عناصر متغايرة يتكون منها البناء الثقافي في الحقب المنطوقية المختلفة . وأثبت فوكوه أن تاريخ الجنون بصفة عامة لايمكنه بأي حال أن يكون تبريراً أو علماً مساعداً لباثولوجيا الأمراض العقلية.فهذا الأخير هو بمثابة ظاهرة ثقافية تخص العالم الغربي ابتداء من القرن التاسع عشر. ولم يكن امتداداً لأي علم آخر سبقه يمكن أن يقارن به .

خامساً : لم يقم فوكوه بعمل هذا التاريخ على مستوى تتابع الاكتشافات أو على مستوى تاريخ الأفكار بل بتتبع البناءات الأساسية للخبرة les structures de l'expérience .

سادساً : إذا كان علم النفس الباثولوجي قد اكتشف «الشعور بالذنب مختلطاً مع المرض العقلي ، فقد أثبت فوكوه أن هذا الشعور قد أدخل بواسطة العمل التحضيري الذى قام به العصر الكلاسيكي . وهذا يشير إلى أن الأركيولوجيا تبحث فيا وراء المعطيات الفينومينولوجية عن «أساسات سفلية» تكون على مستوى غير المتعقل l' impensé -

ويظهر لنا من هذه النتائج أن ميشيل فوكوه كان موفقاً فى تطبيق أساسيات منهجه على دراسة الجنون . ولم يكن المهم فى هذا الصدد هو «كل تلك الوقائع العديدة» التى استطاع فوكوه أن يكشف النقاب عنها (خلال قرون ثلاثة ، امتدت من العصر الوسيط حتى القرن الثامن عشر) ، بل المهم هو المنهج البنيوى (البنائى) الدقيق الذى اصطنعه فوكوه فى دراسته لتلك الكثرة الهائلة من الوقائع (١١٨).

وسنرى فى الفصل القادم تطبيقاً للمنهج البنائى الأركيولوجى على قطاع آخر من الظواهر البشرية يتصل بالمرض وطرائق العلاج الإكلينيكى .

---

(١١٨) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣١ .

الفصل الخامس

مولد العيادة ونشأة علم الطب

١ — الطب والفلسفة .

٢ — طب الأجناس espèces .

٣ — الطب والسياسة .

٤ — تعثر ظهور العيادة .

٥ — تغير نمط الإدراك .

٦ — معنى النظرة الطبية .

٧ — البناء اللغوى للعلامات .

٨ — إدراك الحالات .

٩ — نشأة الطب الحديث .

١٠ — الحياة الباثولوجية وفلسفة المذهب الحيوى .

١١ — الطب الحديث بعد «بيشا» Bichat .

مولد العيادة ونشأة علم الطب

الطب والفلسفة :

إن كتاب ميشيل فوكوه الموسوم باسم «مولد العيادة» Naissance de la clinique ليس إلا محاولة لتطبيق المنهج الأركيولوجي في مجال سبق أن طرقه علم تاريخ الأفكار هو مجال الطب والاكلينيكي» . وتنصب الدراسة في هذا المؤلف على فحص مناهج الملاحظة الطبية خلال فترة زمنية لا تزيد عن نصف قرن (أواخر القرن الثامن عشر وبدايات القرن التاسع عشر). وهذه الفترة يقول عنها فوكوه أنها عتبة زمنية لا تمحى UN ineffacable seuil chronologique : إذ لأول مرة منذ آلاف السنين يتخلص الأطباء من النظريات ومن الخزعبلات ، ويواجهون موضوع بحثهم اعتماداً على النظرة الخاصة . فما كان غير مرئي invisible ينفتح فجأة أمام الرؤية الواضحة وذلك بسبب تغير مستوى الرؤية وبفضل الحدود الجديدة بين المرئي وغير المرئي (١).

غير أن هذا لا يعني أن المعرفة الطبية لم تتكون على سرير المريض إلا في نهاية القرن الثامن عشر، إذ أن هذه المعرفة العيادية كانت دائماً بمثابة المنبع الأول والمحك الثابت على مر العصور. أما الذي اتصف بالتغير فهو على الأحرى تلك الشبكة la grille التي تمر من خلالها المعرفة الطبية، أو التي تقدم المعرفة في شكل عناصر مقالية قابلة للتحليل. وهذا التغير لم يكن يشمل فقط أسماء الأمراض وتصنيف الأعراض ، بل كان يضم كذلك قواعد الادراك الأساسية التي كانت تطبق في ملاحظة المرضى وأيضاً المجال أو الموضع الذي تنصب عليه الملاحظة ، وعلى الجملة فقد كان يضم كل ما يمكن أن نسميه نسق النظرة الطبية Système du regard médical.

---

(١) (I) M. FOUCAULT: "Naissance de la clinique", (P. U.F. 1963), P. 199.

ففى فجر البشرية كان الطب يكمن فى العلاقة المباشرة بين آلام المريض وبين ما يخفف هذه الآلام . وهذه العلاقة يحددها الإحساس وتحتمها الغريزة قبل أى تجربة ، كما يقيمها الفرد بنفسه ولنفسه قبل أن تتخذ بعداً إجتماعياً . فإحساس المريض يعلمه أن يتحرك فى الوضع الذى يخفف آلامه . وهنا تنتقل الخبرة الإكلينيكية من إنسان لآخر ومن الآباء للأبناء قبل أن تتحول إلى معرفة . ويرى فوكوه أن هذا الوقت كان هو العصر الذهبى للمعرفة الطبية . أما الإضمحلال ، فقد بدأ مع الكتابة l' écriture والأسرار les secrets : أى مع انتقال المعرفة الطبية إلى «المتخصصين» . كما جاء هذا الاضمحلال بسبب الفصل بين النظرة regard والقول parole ، أو بين الرؤية والمعرفة le voir et le savoir (٢).

وباختصار ، يمكن القول بأن تاريخ هذا الاضمحلال إنما يبدأ مع أبقراط Hippocrate أكبر أطباء الإغريق فى العصور القديمة (٤٦٠ق .م — ٣٧٧ ق. م).

وعلى الرغم من أن الطب الاغريقى فى القرن الخامس لم يكن سوى تقنين codification للخبرة الاكلينيكية العامة والمباشرة ، وهو بالتالى يتصف ببساطتها ونقائها ، إلا أنه بسبب هذا التقنين ذاته شهدت الخبرة الطبية بعداً جديداً يتلخص فى وجود معرفة عمياء لأنها ابتعدت عن النظرة un savoir aveugle, puisqu'il est sans regard .

ويلاحظ فوكوه أن هذه المعرفة العمياء ربما سمحت بتسلل الميتافيزيقا إلى الطب . وهو يستشهد بعبارة للباحث «مسكاتى MOSCATI» يقول فيها إن الفلسفة قد تسللت فعلا إلى الطب كما انعدمت الملاحظة بعد أن تحول

---

(٢) فوكوه ، «مولد العيادة» ، ص ٥٤ .

الطب إلى نسق على يد أبقراط (٣) .

ولقد كان هذا كله بداية لتعدد الفرق المتعارضة والمتناقضة ، كما سمح بظهور تاريخ طويل للأنساق.ويرى فوكوه أنه ,,تاريخ يلغي ذاته لأنه لايحتفظ للزمان إلا بآثاره المدمرة ,,(٤).ويكمن تحت هذا التاريخ المدمر تاريخ آخر أكثر وفاء للزمن لأنه أكثر قرباً من حقيقته الأزلية ،وتنضوى تحته حياة بلا ضجيج يعيشها الفن العلاجي la clinique (٥)

إن الفن العلاجي يظل قريبا من الأشياء . وهو يعطي للطب حركته التاريخية الحقيقية . كما يعمل — بما يضيفه من خبرة على محو الأنساق وعلى تأكيد حقيقته . وهكذا يظهر استمرار خصب يضمن للباثولوجيا طبيعة متصلة Uniformité ininterrompue في مختلف العصور (٦) .

طب الأجناس :

لما كان العصر الكلاسيكي هو «عصر الأنساق» أو «الحقبة» التي فصلت الكليات عن الأشياء ، لذا فقد استهدفه فوكوه لكي يكشف عما اشتهر به من طب يفصل بين المرض وبين مكان الألم في الجسم وهوما سمي بالطب التصنيفي la médecine classificatrice أو طب الأجناس la médecine des espèces.

ويرى فوكوه أن هذا الطب كان ينظر الى الأمراض في تصنيف هرمي

---

(3) P. MOSCATI",: "De l'emploi des systèmes dans la médecine pratique" (trad. fr., Strasbourg, an VII), PP. 4—5.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥٥ .

(٤) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥٥.

(٥) نفس الموضع .

(٦) " " "

يشتمل على أنواع وأجناس قبل أن ينظر إليها فى الجسد . وهو يستشهد بالقول المشهور الذى كان يردده حكماء ذلك العصر : «لا تعالجوا أى مرض دون أن تتأكدوا من جنسه» (٧) . والطب التصنيفى لا يتعرض لأسباب أو لعلل . لأنه يتناول مجالا متجانسا espace homogène يخلو من أى تسلسل : فالالتهاب الموضعى ليس سوى المجموع المتجاور لعناصره وهى الاحمرار والورم والحرارة والالم ، دون أن يؤخذ فى الاعتبار ما بين هذه العناصر من علاقات حتمية متبادلة .

يقول أحد أطباء القرن الثامن عشر وهو Th. Sydenham :

> «ينبغى على من يكتب تاريخ الأمراض أن يلاحظ باتنباه الظواهر الواضحة والطبيعية للأمراض بقدر ما يبدو لها من أهمية . وهو فى هذا ينبغى أن يقلـــد الرسامين الذين عندما يقومون بعمل صورة لشخص أو لشئ ، فانهم يكونون على حرص زائد فى بيان مختلف الرموز وأيضا أدق الأشياء الطبيعية التى يجدونها على وجه الشخص أو الشئ الذى يرسمونه» (٨) .

ويقوم الطب التصنيفى أيضا على اعتبار أن نظام المرض ليس سوى انعكاس لنظام العالم بما يحتويه من موجودات .

(7) GILIBERT, "L'anarchie médicinale", (Neuchâtel, 1772), t.I, P. 198.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٢ .

(8) Th. Sydenham : "Médecine pratique", (trad. JAULT, Paris, 1784), P. 88.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٤ .

يقول سيدنهام : «إن من يلاحظ باهتمام بداية ظهور الحمى ، وما
يصاحبها من أعراض . سيكون لديه من الأسباب ما
يؤكد أن هذا المرض هو جنسي espèce ، يقال
عنه ما يقال عن جنس النبات ، لأن جنس النبات
ينمو و يتفتح ثم يذبل دائما على نفس الوتيرة» (٩) .

ويظهر مما تقدم أن المرض ليس تصورا ضد الطبيعة Contre-nature .
إن من يقف ضد الطبيعة حتى إنما هو المريض نفسه وذلك لأنه يشوه طبيعة المرض . فالمريض يضيف إلى «ما هية المرض» سنه وظروف معيشته ومجموعة من الأحداث هي كالأعراض بالنسبة للماهية . والطبيب عليه أن يقوم إذن بعملية تجريد إذا أراد أن يعرف حقيقة المرض ، أى يقوم «باستبعاد الأعراض المصاحبة التي تنتج عن ظروف المريض أو سنه أو حالته المزاجية» (١٠) .

غير أن الطبيب هو الآخر إنما يقف ضد الطبيعة إذا كان يجهل طبيعة المرض أو إذا أخطأ التوقيت الملائم للعلاج ، فيأتى المرض على غير عادته ويتعذر علاجه . أما فى حالة انتشار المرض فإن على الطبيب أن يتريث وذلك لأن «بدايات المرض إنما تهدف إلى إظهار مرتبته sa classe وجنسه son genre ونوعه Son espèce » . وأما إذا انتشرت الأعراض وقويت، فيكفى أن نقلل من شدتها وشدة آلامها (١١) .

لابد إذن من حياد (أو محايدة) المريض والطبيب حتى يتضح المرض فى

---

(9) Ibid., P. 124—125.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥ .

(١٠) نفس الموضع — ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٦ .

(١١) «مولد العيادة» ، ص ٧ .

صورته الملموسة داخل لوحة ثابتة un tableau immobile وآنية simultané وخالية من الأسرار . وهذا هو ما يبرر ... معرفة الطبية العقلانية ، كما يبرر الاتجاه نحو التقليل من دور ... (١٢) .

وتأتى غرابة هذه النظرة الطبية من أنها تدور في حلزون لا نهاية له une spirale infinie ، «فهى تتعرف (على طبيعة المرض أولا) لكى تعرف» (١٣) . Il doit reconnaitre pour connaitre وهى تتقهقر إذا تقدمت ، وذلك لأنها لا تتوصل الى حقيقة المرض الا إذا تركته يطغى ، كما أنها تهرب أمامه حتى يتسنى لمظاهره أن تكتمل وحتى تستقر طبيعته (١٤) .

كما تأتى غرابة هذه النظرة الطبية أيضا من أنها تعتبر أعضاء الجسم بمثابة الدعامة القوية للمرض وإن لم تكن الشرط الضرورى لوجوده . فقد جاء فى «دائرة معارف القرن الثامن عشر» أن الاصابة بالتشنج يمكن أن تنتقل إلى أسفل البطن وعندئذ قد يتسبب عنها سوء الهضم ، كما يمكنها أن تنتقل إلى الصدر ويتسبب عنها اختناق . أما اذا انتقلت إلى الرأس ، فقد تسبب التردى فى غيبوبة تامة (١٥) . وهذا يعنى انتفاء وجود أمراض تصيب أعضاء محددة لأن المرض له ما هية مفارقة للأعضاء .

والعصر الكلاسيكى يتصور المرض على أن له طبيعة فطرية nature «sauvage» هى طبيعته الحقيقية وهى التى تحدد مساره الحر بعيدا عن تدخل الطب .

---

(١٢) نفس المرجع ، ص ٨ .
(١٣) نفس الموضع .
(١٤) نفس الموضع .
(١٥) «مولد العيادة» ، ص ص ٨-٩.

غير أنه : كلما تعقد المجال الاجتماعي الذي ينشأ فيه المرض ، كلما تجرد هذا الأخير عن طبيعته . فالشعوب لم يكن لديها من الأمراض إلا ما كان بسيطا وضروريا وذلك قبل أن تعرف المدنية . فلم يكن لديها مثلا هذا العديد من الأمراض العصبية المتنوعة والمعقدة (١٦) . وكلما تعددت أسباب الحضارة والمدنية ، وتعقدت الحياة الاجتماعية ، كلما تقهقر معدل الصحة (١٧) .

وكان العصر الكلاسيكي يرى في المستشفى مكانا مستحدثا ومصطنعا ، ففيه يفقد المرض صورته الأساسية ، ويواجه بمضاعفات يسميها الأطباء حمى السجون أو المستشفيات fièvre des prisons ou des hôpitaux ومن أعراضها ضعف العضلات وجفاف الحلق (١٨) . وبوجه عام فان اختلاط المرضى داخل المستشفى كان من شأنه أن يغير من طبيعة المرض ويجعل التعرف عليه صعبا . يقول ديبون Dupont : «لا وجود لمرض خالص داخل المستشفى» (١٩) . Aucune maladie d'hôpital n'est pure

أي أن المستشفى ، بالاضافة الى تغييره لطبيعة المرض ومساره ، فانه قد يضيف إلى المريض أمراضا جديدة تستلزم وجود الطبيب الحذر الذي يتجنب

---

(16) Tissot, " Traité des nerfs et de leurs maladies", (Paris, 1778-1780), t. II, pp. 432-444.

(ذكره فوكوه : ميلاد العيادة ، ص ١٥).

(17) Tissot "Essai sur la santé des gens du monde", (Lausanne, .1770). PP. 8—12.

(ذكره فوكوه ، نفس المرجع) .

(18) Tenon, "Mémoires sur les hôpitaux " (Paris, 1788), P. 451.

(ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ١٦) .

(19) Dupont De NEMOURS, "Idées sur les secours à donner" (Paris 17 86), PP. 24—25.

(ذكره فوكوه ، نفس الموضع) .

الانسياق وراء تلك الأمراض الزائفة .

إن المكان الطبيعي للمرض هو المكان الطبيعي للحياة، أي داخل الأسرة، فالرعاية التلقائية والرغبة المشتركة في الشفاء لا تتوفران الا داخل الأسرة . وبداخلها تتضامن جميع الظروف لمساعدة الطبيعة التي تكافح ضد المرض ومساعدة المرض ليتخذ مساره على طبيعته .

واذا كان طبيب المستشفى لا يرى سوى أمراض زائفة ومتغيرة ، فإن المعالج بالمنزل إنما يكتسب في فترة وجيزة خبرة حقيقية ترتكز على المظاهر الطبيعية لجميع أجناس الأمراض (٢٠) .

ويتضح مما تقدم أن طب الأجناس يفترض مجالا حرا libre spatialisation خاليا من الضغوط الاستشفائية des contraintes hospitalières وبالتالي يسمح للمرض بأن يظهر ماهيته الحقيقية ، وأن يصل الى نهاية مساره الطبيعي : فإما الموت الذي لا مفر منه وإما الشفاء الذي يمكن تحقيقه اذا لم نتدخل في المسار الطبيعي للمرض (٢١) .

ويلاحظ فوكوه أن تحليلات الاقتصاديين في القرن الثامن عشر إنما تلتقي مع أفكار الطب التصنيفي في الخطوط العريضة . فهذه التحليلات الاقتصادية لم تكن تحبذ إنشاء دور الاستشفاء وترى أنه من الخطأ (اقتصاديا) أن ترتكز الرعاية الاجتماعية على رأس مال ثابت تنشأ به مستشفيات أو بيوت للعزل (على نحو ما بينا في الفصل السابق) ، لأن في هذا تشجيعا للفقراء على الكف عن السعي ويعود بالتالي على الأمة بالفقر . لذا ، فإن في العمل على

---

(٢٠) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٦ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ١٧ .

تشغيل الفقراء بجدة لهم ورعاية دون أن يؤثر ذلك على اقتصاد الدولة .

ان المريض لا يقدر على العمل . غير أنه إذا وضع فى المستشفى فإنه يشكل عبئا مضاعفاً على المجتمع لأن الرعاية التى يلقاها تفيده هو فقط ، بينما الأسرة التى كان يرعاها تتعرض بدورها للبؤس والمرض . أما اذا ترك المرض فى المجال الذى ظهر فيه ، فانه لا يمكن أن يتضاعف ، وسيخبو كما ظهر من ناحية ، ومن ناحية أخرى ، فإن العون المادى الذى يخصص لـه داخل المنزل سيعوض الفقر الذى يحدثه . يقول ديبون :

«إن اللحم الذى أستخدم فى صنع حساء المريض سيأكله أطفاله ، كما أن الوقود المستخدم فى تدفئة شرابه سيدفئ أطفاله فى نفس الوقت» (٢٢) .

وقد لوحظ أن الطب الذى يعتمد على النظرة الفردية ، والمساعدة العائلية ، والرعاية فى المنزل ، كان عليه أن يرتكز على تأييد وإشراف المجتمع بأسره . وهنا ندخل فى صورة جديدة ربما لم تكن معروفة طوال القرن الثامن عشر وهى المجال المقنن إجتماعيا للمرض Spatialisation institutionnelle de la maladie. وبفضل هذه الصورة الجديدة سيختفى طب الأجناس .

الطب والسياسة :

فى أواخر القرن الثامن عشر تكفلت الدولة بتعيين أطباء فى الأقاليم المختلفة وبدأت تتدخل فى المسائل المتصلة بصحة الجمهور . كما تدخل رجال

---

(22) Dupont de NEMOURS, op. cit., pp. 14 — 30.
ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٨ .

الشرطة لمنع انتقال المواد الغذائية الملوثة من مكان إلى آخر . وكان الأمر يتطلب أحيانا طبع بيانات وإرشادات للوقاية من الأمراض كانت تقرأ على الناس فى صلواتهم فى الكنائس وفى المناسبات المختلفة . ومن هنا ظهرت الحاجة الى تكوين وعى طبى على مستوى الدولة مكلف بمداومة الإعـلام والمتابعة والضغط .

لقد بدأ العمل الأول للطبيب وكأنه عمل سياسى بالدرجة الأولى . فكافحة الأمراض ينبغى أن تبدأ بإعلان الحرب على الحكومات الفاسدة ، والإنسان لا يشفى نهائيا من أمراضه إلا إذا تحرر أولا . ويتساءل لانتينا LANTHENAS فى كتابه المرسوم باسم «تأثير الحرية على الصحة»(٢٣) :

> «من الذى يكشف المستبدين ويعريهم أمام الملاء أكثر من الأطباء الذين يتخذون من الانسان موضوعاً أوحداً لدراساتهم ؟ ومن غير الأطباء يمر يوميا على الفقير والغنى والحاكم والمحكوم ، فيتأمل بؤس البشرية ، ويدرك أن المصدر الأول لهذا البؤس هو الاستبداد والعبودية ؟» .

إن الاعتقاد السائد فى أعقاب الثورة الفرنسية بوجه عام كان يرتكز على أن المجتمع الحر تتقلص فيه الفوارق بين الطبقات كما يسود فيه الوفاق . ويصبح عمل الطبيب قاصرا على إعطاء المواطن والمشرع بعض النصائح التى تفيد توازن الصحة والجسد . وهنا تنعدم الحاجة الى المستشفيات ، وتنمحى

---

(23) LANTHENAS, "De l'influence de la liberté sur la santé. (par is, 1792), p. 8.

ذكره فوكوه : نفس المرجع ، ص ٣٣ .

من الأذهان صورة الطبيب ، ويبقى فى الذاكرة ذلك العهد البائد الذى ساد فيه الملوك وأصحاب الثروة ، وعاشوا على حساب العبيد والفقراء والمرضى (٢٤) .

وقد ظهرت ثمرة هذه المعتقدات فى التشريع ذاته . فنى سنة ١٧٩٣ أى بعد عام واحد من ظهور كتاب «لانتينا» سالف الذكر ، وافقت الهيئات التشريعية فى فرنسا على إلغاء المستشفيات وإلغاء الملاجئ (٢٥) . فالمرض هو حادث فردى ينبغى أن تتولاه الأسرة أما الفقر فهو ظاهرة إقتصادية ينبغى أن تتصدى لها الرعاية الاجتماعية l' assistance .

وفى المناقشات البرلمانية التى دارت فى فرنسا فى تلك الفترة ، نجد أحد الخطباء هو بارير Barère يصدر صيغته المشهورة «لا صدقات ولا مستشفيات» «plus d' aumônes, plus d'hopitaux» (٢٦) .

وعلى الرغم من كل ذلك ، فإن فكرة إلغاء المستشفيات التى أيدهـا التشريع والتى كانت مرتبطة باتجاه أيديولوجى يرمى إلى الحفاظ على كرامة الانسان وتخليصه من شقاء المرض والفقر ، نقول إن هذه الفكرة لم يكتب لها أن تتحقق لأن ظروف العصر لم تكن تسمح بإلغاء المستشفيات أو الملاجئ . وسيأتى إيضاح ذلك فيما بعد .

تعثر ظهور «العيادة»

إذا كانت العيادة هى مؤسسة علاجية وتعليمية يتطابق فيها المرئى والمنطوق

---

(٢٤) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٣٤ .
(٢٥) نفس المرجع ، ص ٤٣ .
(٢٦) نفس الموضع .

أو الرؤية والكلام ، وإذا كانت هذه العيادة لا تتحدث عن مرض إلا إذا كان مرئيا ومنطوقا فى نفس الوقت ، فإن عيادة القرن الثامن عشر قد تعثر ظهورها أو تعذر بسبب غياب أنموذج متناسق وموحد لتكوين الموضوعات objets والمدركات perceptions والتصورات الطبية concepts médicaux (٢٧) .

واذا كان ظهور العيادة فيا بعد قد ارتبط فى أذهان كثيرين بظهور «الليبرالية» العلمية والسياسية والاقتصادية ، فإن ميشيل فوكوه يبين على العكس أن هذه الأيديولوجيا هى التى ظلت لسنوات عديدة عقبة كؤود أمام تنظيم الطب الاكلينيكى وتقدمه (٢٨) .

فى أعقاب الثورة الفرنسية كان بوكييه Bouquier عضو لجنـــة التعليم العام بفرنسا يفرق بين «المعارف الضرورية للمواطن» والتى بدونها لا يمكن أن يصبح مواطنا حرا ، وبين «المعارف الضرورية للمجتمع» . ورأى بوكييه أن الدولة عليها أن تيسر لكل مواطن الحصول على النوع الأول من المعارف تماما كما توفر له الحرية . أما النوع الثانى من المعارف ، وهو العلوم العملية ، فإن الدولة لا يمكنها أن تنظمها أو أن تتدخل فى الاشراف عليها (٢٩) .

وفى سنة ١٧٩٠ كتب جالو J.-P. GALLOT فى مقال عن «تطوير الفن العلاجى» إن دراسة الطب ينبغى أن تستمر سبع سنوات ، وأن تتضمن دراسة الرياضيات والهندسة والفيزياء والكيمياء وكل ما له علاقة أساسية

---

(٢٧) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٥١ .
(٢٨) نفس المرجع ، ص ٥٢ .
(٢٩) نفس المرجع ، ص ٥٥ .

بالعلم الطبي . ولم يشر المقال إلى أى اهتمام بالجانب التطبيقى أو البحث الاكلينيكى (٣٠).

وفى نفس السنة قدم كانتن Cantin مشروعا إلى الجمعية الوطنية الفرنسية يطالب فيه بالفصل التام بين العلم النظرى و «الاكلينيكى» على أن يبعث بالأطباء — بعد الانتهاء من العلم النظرى — إلى المستشفيات فى الأقاليم الى جانب الأطباء المهارسين ، فيتم تدريبهم على علاج الكثير من الأمراض (٣١) .

ويرى فوكوه أن هذا الفكر الاصلاحى الذى أعقب الثورة الفرنسية كان غريبا . فقد امتد إشراف الدولة إلى التعليم النظرى فقط . أما الجانب العملى الذى يخضع لفكرة المنفعة الاجتماعية فإنه ظل تماما تحت تصرف المبادأة الخاصة . وفى حين أن التعليم النظرى كان مفتوحا للشعب فى الجامعة ، فإن التعليم داخل المستشفيات كان خاصا Prive وخاضعا لظروف المنافسة ومدفوع الأجر . وهنا لا نجد تطابقا بين اكتساب المعرفة النظرية وبين قواعد تكوين الادراك . فقد ظهر مجال مغلق للمعرفة الملقنة ومجال مغلق على الحقائق التى تكتشف . كما ظهر مكان للحقائق التى تحكم نظرة الطبيب ومكان آخر للخبرات الحرة التى يحتكرها الأستاذ فى المستشفى (٣٢) .

ويظهر مما تقدم عدم وجود بناء يوحد بين صور الخبرة التى تدعمها الملاحظة الفردية والمهارسة اليومية للأمراض وبين صور التدريس التى تقوم على تلقين المعلومات النظرية .

---

(٣٠) نفس المرجع ، ص ٤٦ .
(٣١) نفس المرجع ، ص ٤٧ .
(٣٢) نفس المرجع ، ص ٤٨ .

وهكذا نجد أن النظرة الحرة — فى مجتمع أراد أن يتحرر من المرض — كانت معول هدم تعذر بسببه ظهور العياده (٣٣) .

وإذا أردنا أن نلخص أسباب تأخر الفن العلاجى فى القرن الثامن عشر ، فإننا نجملها فيما يلى : (٣٤)

أولا : كان البحث الطبى ينحصر فى تكوين مجال متناسق لتصنيف الأمراض قبل أن يكون مقرا للتقابل بين طبيب ومريض .

ثانياً : كانت الأمراض المختلفة كالنص اللغوى المتناسق ، والمريض هو ما يقرأ من خلاله النص .

ثالثاً : كان دور «الباحث الطبيب» فى العيادة هو أن يعمل ما من شأنه أن يكشف عن اسم المرض . وذلك لأن التسمية هى الخطوة الأولى التى تمكن من استنتاج الأسباب والتكهنات . وبمعنى آخر ، فان النظرة regard التى تفحص جسماً يتألم لا تصل إلى الحقيقة إلا بالمرور على «اللحظة الدوجماتيقية» للإسم ، وهو الذى ينضوى تحته حقيقة مزدوجة هى المرض أولا ثم استنتاج أسبابه وسبل الخلاص منه ثانيا . ونلاحظ أن النظرة هنا ليس لديها القدرة على التحليل والتأليف ، بل هى معرفة استنباطية .

رابعاً : كان الفن العلاجى يتخذ اتجاها أوحد ، هو الذى يهبط من أعلى الى أسفل ، أى من صورة جاهزة للمعرفة الى حالات مرضية جزئية . ولهذا كانت المؤسسات العلاجية عاجزة عن احداث أى تغير فى

---

(٣٣) فوكو : «مولد العياده» ، ص ٥١ .

(٣٤) نفس المرجع ، ص ص ٥٨ — ٦٢.

المعرفة الطبية كما أنها لم تخترع أى جديد فى المقال أو فى الممارسات .

غير أن السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر قد شهدت بناء جديدا للعيادة لا يعتمد فقط على المعرفة المقولة le savoir dit بل ينسحب اهتمامه الى الخبرة الطبية برمتها .

تغير نمط الادراك :

إن التغير الذى أدى إلى ظهور «الابستميه الحديث» l' Epistémè moderne فى القرن التاسع عشر قد حدث عندما حدث تغير فى نمط الادراك أو «عندما بدأ المقال يمر بأعين مفتوحة».

يقول فوكوه :

> «إن العين ، لعلاقتها بالضوء ، إنما تتواصل مع الحاضر فقط . وهى تسمح للإنسان بأن يعود إلى طفولته (أى يكثر من الاعتماد على معطيات الحس) ، وأن يكشف الميلاد الأبدى للحقيقة. وهذه هى السذاجة الواضحة للنظرة ، ومنها أشتقت هاتان الخبرتان الأسطوريتان عن «متفرج غريب فى بلد مجهول» ، و «أعمى منذ الميلاد تكشفت عيناه للضوء» . ومن هاتين الخبرتين تأسست دعامة الفلسفة فى القرن الثامن عشر» (٣٥).

ويكشف فوكوه فى هذا النص عن الاتجاه العام السائد فى نهاية القرن الثامن عشر والذى اتصف بميل نحو البعد عن الانساق وتركيز على أهمية النظرة

---

(٣٥) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٦٤ .
ولعله يقصد هنا الفلسفات الحسية وفلسفة كونديالك على وجه الخصوص .

الفاحصة . غير أن لحظة «القطع» لا تتأثر فقط بالأحداث «المقالية» ، بل إن للأحداث غير المقالية دوراً لا يمكن الاستهانة به .

ففي سنة ١٧٩٣ ذهب كثير من الأطباء مع الجيوش الفرنسية المدافعة عن الجمهورية ، وحدث بالتالي عجز كبير في عدد الأطباء الممارسين . وبذلك اتسع المجال للممارسين غير المعتمدين والمشعوذين الذين شكلوا خطراً كبيراً على المرضى . ولم يكن أمام الهيئات الخاصة وحكام الأقاليم إلا أن يقوموا باستدعاء أطباء العهد الملكي لكي يمارسوا العلاج بالمستشفيات . وبدأ بذلك أول تنظيم لمجال طبي يسميه فوكوه مجالا مختلطاً mixte لأن المستشفى في ممارستها اليومية إنما تتواصل مع صورة تربوية عامة (هي العيادة) (٣٦). فقد كان عليها أن تستقبل من الشباب من لديهم الاستعداد لأن يتعلموا الطب بالممارسة .

ونلاحظ هنا أن الأمر يتصل باتجاه جديد للأشياء والمعرفة : وهو اتجاه تنكشف فيه المعرفة بذاتها — وعلى وتيرة واحدة — أمام النظرة الفاحصة المجربة ، وأيضاً أمام النظرة الساذجة لطالب العلم الطبي . فبالنسبة لصاحب النظرة الأولى والثانية لا يوجد سوى لغة واحدة هي «المستشفى» ، حيث يكون فيها المرضى الممتثلون للعلاج بمثابة «وسائل تعليمية ناجحة» . وبذلك يكتمل الاتصال المباشر بين التعليم وبين المجال الملموس للخبرة ، ويتنحى «المقال الدوجماتيقي» الذى نظر اليه كخطوة أساسية في انتقال الحقيقة كي يترك مكانه لنمط جديد للادراك (٣٧) .

غير أننا ينبغي ألا ننسى أن عدم تدريس الطب بالجامعة هو الذى عجل بظهور مقال يتصف بالجده ، وذلك من خلال ممارسة تكاد تكون

---

(٣٦) نفس المرجع ، ص ٦٨ .
(٣٧) نفس الموضع .

عمياء وخاضعة لتحكم الظروف . وهى ممارسة لم تكن تكتفى بأحكام تقريرية constatations ، بل تقوم باكتشافات جديدة (٣٨).

وهذا السعى الحثيث هو الذى سمح بظهور عيادة القرن التاسع عشر .

وقبل أن ننتقل إلى الكشف عن نمط الادراك الجديد وقواعده ، نناقش تساؤلين يتصلان بهذا النمط ذاته . والتساؤل الأول يختص بمفهوم الحرية فى الطب ، أما التساؤل الثانى فهو عن السند الأخلاقى الذى يسمح باعتبار المرضى «وسائل تعليمية ناجحة» . ونبدأ بالتساؤل الأول .

يقرر فوكوه أنه ابتداء من سنة ١٧٩٥ أصبحت الفكرة العامة المسيطرة فى الطب هى التفافه حول العيادة باعتبارها مؤسسة علاجية يتطابق فيها المرئى والمنطوق . فهل كان فى هذا تقهقر إلى الوراء وعودة إلى الرجعية بعد أن كانت الفكرة المسيطرة هى «الطب الخاضع لمفهوم الحرية» ؟ .

ويجيب فوكوه عن هذا التساؤل بقوله :

«إن ظهور العيادة كان يعنى بالأحرى إعادة بناء لمبدأ «الحرية فى الطب» طبقاً لسياق تاريخى محدد يجعل الحقيقة التى تفرض على النظرة هى التى تعرف بناء النظم العلمية التى تنتمى اليها» (٣٩).

وهذا يعنى أيضاً أن المقال يمر بأعين مفتوحة — كما سبق أن ذكرنا — دون أن يكون فى ذلك أى إساءة لمبدأ الحرية .

---

(٣٨) نفس الموضع .
(٣٩) نفس الموضع .

وكتب كابانى Cabanis عن تقرير للجنة الخمسمائة سنة ١٧٩٩ بخصوص تشديد الرقابة على ممارسة مهنة الطب :

«إن كل فرد يمارس مهنة الطب دون المرور أمام لجنة
من الممتحنين ودون النجاح فى الامتحانات الخاصة ،
يعاقب بدفع غرامة أو بالسجن إذا تكرر منه ذلك»(٤٠).

وهذا يعنى أن الطب قد أصبح مهنة مغلقة une profession fermée ، ولا يعد ذلك إساءة لحرية الفرد .

أما المسألة الأخلاقية الهامة التى أثارتها فكرة «العيادة» فهى تتلخص فيما فيما يلى :

بأى حق يمكن أن يتحول مريض دفعه الفقر إلى التقدم للمستشفى طالباً العون ضد المرض والألم ، نقول . بأى حق يتحول هذا المريض إلى موضوع ملاحظة إكلينيكية ؟ ولقد التمس المساعدة ، وها نحن نستفيد بما نكتشفه فيه، فنكتسب خبرة جديدة تفيدنا فى علاج الآخرين » .

ربما كانت فكرة الغاء المستشفيات قد استهدفت تخليص الفقراء من هذه «المهانة» ، إلا أن ظروف العصر لم تكن تسمح بهذا الإلغاء — كما سبق أن قدمنا — لأن تعداد البؤساء فى مدينة باريس وحدها كان يزيد عن ستين ألفا سنة ١٧٩٥(٤١) .

وقد كان لابد للإبقاء على المستشفيات من صيغة جديدة لا تتعارض مع مبادىء الليبرالية أو ضرورة وقاية المجتمع : فبين الفقراء والأغنياء يوجد

---

(٤٠) أنظر : «مولد العيادة» ، ص ٧٩ .
(٤١) نفس المرجع ، ص ٨٣ .

نسق معين للالتزام لا يعبر بقوانين الدولة بل بعقد عرفي . ويتلخص هذا الالتزام في ضرورة تحمل الأغنياء لنفقات علاجهم ، بالاضافة إلى ماتخصصه بعضهم من هبات للمستشفيات . أما بالنسبة للفقراء ، فالتسليم بأن مرضهم لايشفى إلا بمساعدة الآخرين وذوي الخبرة يحتم عليهم أن يقدموا أنفسهم طواعية ، وأن يقبلوا بأن تتحول آلامهم إلى علم ومعرفة لصالح المجتمع بأسره(٤٢).

تلك هي الحدود التي يتبلور فيها هذا العقد العرفي بين الفقراء والأغنياء في تنظيم الخبرة الإكلينيكية . وننتقل الآن إلى القواعد الجديدة للإدراك .

معنى النظرة الطبية :

إنها ليست نظرة الملاحظ العادي بل هي نظرة طبيب يستمد قدرته ومشروعية عمله من مؤسسة اجتماعية خاصة ، كما أن لديه سلطة اتخاذ القرار .

وتتميز هذه النظرة بأنها لا ترتبط بالشبكة الضيقة للبناء la grille étroite de la structure (صورة محددة ، ظروف خاصة : عدد معين ، أو حجم خاص) ، بل عليها أن تهتم بجميع التغيرات مهما كانت طفيفة (٤٣) .

كما تتميز هذه النظرة أيضاً بأنها لا تكتفي بتقرير ماتراه ، إذ عليها أن تحسب احتمالات النجاح أو الفشل . إنها نظرة حاسبة Il est calculateur . ويرى فوكوه أن المعرفة الطبية إذا حققت نجاحاً في نهاية القرن الثامن عشر ، فإن مرد ذلك إلى الإنسان العارف الذي يتغير ويعمل على نمط جديد . فلم يتغير مفهوم المرض أولاً ثم تبع ذلك تغير النظرة إليه ، بل إن هذا التغير قد شمل

---

(٤٢) نفس المرجع ، ص ٨٥ .
(٤٣) نلاحظ أن هذه النظرة تتعارض تماما مع نظرة طب الأجناس .

علاقة المرض بالنظرة التي يستسلم لها والتي يكونها في نفس الوقت . وعلى هذا المستوى ، نلاحظ أنه لا تمييز بين نظر وعمل ، أو بين منهج ونتيجة ، بل ينبغي أن نقرأ البناءات العميقة التي تربط المجال والنظرة بما يسميه فوكوه قواعد المعرفة les codes du savoir (٤٤). ويدرس فوكوه هذه القواعد في قسمين كبيرين هما : البناء اللغوي للعلامات وإدراك الحالات .

البناء اللغوي للعلامات : La structure linguistique des signes

إن الأعراض symptômes هي الصورة التي يظهر عليها المرض ،وهي صورة ثابتة لا تتغير une figure invariable مرئية وغير مرئية في نفس الوقت visible et invisible ، حاضرة ومختفية ، كما تتميز بأنها ظواهر شفافة(٤٥).

يقول بروسونيه Broussonnet في كتابه «الصورة الأولية لنظرية الرموز» :

«إن أي تغير ملموس في الجسم السليم أو المريض يسمى ظاهرة ، ومن هنا كان لدينا ظواهر صحية وظواهر مرضية . والظواهر المرضية هي الأعراض ، والعرض ليس ظاهرة طبيعية تتصف بالسلبية لأنه دال signifiant على المرض» (٤٦).

---

(٤٤) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٨٩ .
(٤٥) نفس المرجع ، ص ٩٠ .
ونلاحظ أن المرض هنا يخلع عليه فوكوه معظم صفات المنطوق (انظر الفصل الأول).

(46) J. - L. - V. Broussonnet, «Tableau élémentaire de la séméiotique», (MontPellier, an VI), p. 60 .
ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩١ .

والعرض ليس دالا فقط ، بل هو مدلول أيضاً signifié .وهو كمدلول لايأخذ معناه إلا بفعل حدث أقدم plus ancien يعزله ويحوله إلى علامة signe (٤٧). وإذا كان العرض يقترب جداً من المرض ، فإن العلامة تبتعد عنه بمسافة معينة لأنها تظهر بطريق غير مباشر . والعلامة ليست معرفة وإن كانت تنبىء بمعرفة عتيدة . فالنبض مثلا يكشف عن القوة الغير مرئية للدورة الدموية (أي يكشف عن حالة حاضرة) . ولون الأظافر الأزرق يعني الموت (أي يشير إلى حدث مضى) . أما اضطرابات اليوم الرابع في حالة الحمى المعوية ، فإنها تعد بالشفاء (وهنا علامة على المستقبل). ومن ثم يتضح علاقة «العلامة» signe بالزمان (٤٨).

غير أن «العلامات» «لا توجد بدون» «أعراض» pas de signe sans symptômes.

وهنا ينقلنا فوكوه إلى الفيلسوف كونديلاك Condillac (٤٩) ، ويرى أن العرض في الفكر الإكلينيكي يلعب دور « لغة العمل » أو اللغة الإجرائية langage d' action التي يعتبرها كونديلاك أصل الكلام origine de la parole (٥٠).

فاللغة الإجرائية ظهرت من تلقاء ذاتها بالطبيعة أو «بالغريزة» ، وكانت بمثابة الصورة الأولى للغة la forme initiale de langage (٥١). وكذلك كان العرض ،

---

(٤٧) فوكوه : مولد العيادة ، ص ٩١ .

(٤٨) نفس المرجع ، ص ٩٠ .

(٤٩) هو فيلسوف فرنسي ولد في جرنوبل (١٧١٥ — ١٧٨٠) . وهو زعيم مدرسة حسية. عرض مذهبه الحسي في كتابه محاولة في أصل المعارف الإنسانية
Essai sur l'origine des connaissances humaines
وأيضا كتابه : في الاحساسات . Traité des sensations

(50) Condillac, «Essai sur l'origine des connaissances humaines», t. I, p. 262 .

(51) Ibid.

فهو الطبيعة الوحيدة للمرض والصورة الأولى التي يظهر عليها .

واللغة التلقائية لا يكون لها معنى بالنسبة للنظرة regard إلا إذا تدخل حدث acte أخفى كوندياك طبيعته المفردة وأدخله ضمن عمليات الاتصال الغريزية (٥٢). وكذلك أيضاً كان العرض . فهو كمدلول لايأخذ معناه إلا بفعل حدث يعزله ويحوله إلى «علامة» كما قدمنا آنفاً . وكأن الفكر الإكلينيكي ينقل إلى مجال التجريب مصطلحاً تصورياً سبق أن أخذ به كوندياك .

كيف يتحول العرض إلى عنصر دال élément signifiant ؟

أولا : يتم ذلك بعملية تجميع totalisation ، وذلك بمقارنة الأعضاء بعضها ببعض وأيضاً بمقارنة الأفراد بعضهم بعضاً ، (فالحرارة والنبض والاحرار ... الخ لا نعرف إن كانت دالة على مرض أو عادية إلا بمقارنتها لدى أفراد كثيرين) .

ثانياً : يتم ذلك أيضاً بعملية تذكر للوظائف العادية ، (فالزفير البارد لدى المريض علامة على انعدام الحرارة التي تميز الكائن الحيواني ، وربما كان هذا دليلا على قرب توقف الحياة) .

ثالثاً : يتم هذا التحول أيضاً بواسطة عملية تسجيل التتابع أو التزامن. فبالملاحظة استطعنا أن نعرف أن تقلص اللسان وارتعاش الشفة السفلى يتبعه الشعور بالحاجة إلى القيء . والظاهرتان المتقدمتان أصبحتا علامات ثابتة signes على حدوث الظاهرة الأخيرة .

ونلاحظ مما تقدم أن «العرض» يصبح «علامة» بفضل نظرة تشعر بالتمايز différence أو التزامن simultanéité أو التتابع succession (٥٣).

---

(52) Ibid., pp. 262-263 . (٥٢)

ذكره فوكوه : « مولد العيادة » ، ص ٩٢ .

(٥٣) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٣ .

ويرى فوكوه أن هذه النظرة ليست سوى تحليل كونديالك وقد طبق على التجربة فى الإدراك الطبي . ألم يقل كونديالك أنه :

«علينا أن نحلل أفكارنا وأن نعقد بينها مقارنات مختلفة حتى نكتشف ما بينها من علاقات وأيضاً ما يمكن أن يتولد عنها من أفكار جديدة» (٥٤).

إن التحليل والنظرة الإكلينيكية يتفقان فى هذه السمة العامة وهى أننا لا نحلل أو نركب إلا لكى نقوم بوضع نظام Ordonnance هو النظام الطبيعى نفسه . يقول كونديالك :

«إن هذا التحليل هو السر الحقيقى للإكتشافات لأنه يرتد بنا إلى أصل الأشياء» (٥٥).

أما بالنسبة للعيادة، فإن هذا الأصل origine هو النظام الطبيعى للأعراض وهو صورة تتابعها والتأثير المتبادل بينها . وهذا الأصل — فى النهاية — ليس شيئاً آخر سوى العلامات ذاتها لأن «العلامة signe هى العرض نفسه فى حقيقته الأصيلة» .

يقول ديمورسى ديلتر DEMORCY-DELETTRE فى كتابه «محاولة فى التحليل التطبيقى لتحسين علم الطب» ، (صدر فى باريس سنة ١٨١٠) (٥٦) :

---

(54) Condillac: «Essai sur l'origine des connaissances humaines, p. 109.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٤ .

(55) Condillac: Ibid.

(٥٦) ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٤ .

«إن جميع الأعراض يمكن أن تتحول إلى علامات signes
لدى الطبيب الذى يتمتع بثقافة مكتملة ورفيعة » .

وإذا كانت المعرفة العلمية التى يتحدث عنها كوندياك هى بمثابة ولغة منظمة حسنة الأداء langue bien faite» ، فإن هذا هو نفس المستوى الذى تنطلق منه العيادة . فقد كتب بينيل Pinel يقول :

«ينبغى أن ينظر إلى المرض على أنه كل غير منقسم
(منذ بدايته حتى نهايته) ، وهو ينتظم فى أعراض معبرة
تتابع على فترات » . (٥٧) .

ونلاحظ هنا أن بينيل إنما يقرأ كينونة المرض على مستوى الكلمات . فتواجد المرض متمثلا فى أعراض إنما يسهل الالتقاء مع قواعد التركيب للغة وصفية : وهذا يعنى أن هناك تشابها أساسياً بين بناء المرض وبين الصورة اللغوية التى تحدده خصوصاً وأن عملية الوصف هى فى حد ذاتها إمساك بالكينونة . وبعبارة أخرى ، فإن الكينونة لا تظهر فى صورة أعراض دون أن تتقدم نحو لغة ليست سوى كلام الأشياء ذاته la parole même des choses (٥٨).

وإذا كانت طبيعة المرض فى الطب التصنيفى تنفصل عن وصفه بواسطة قوائم الأجناس والأنواع ، فإننا نجد فى العيادة تطابقاً بين الرؤية والكلام والحقيقة الظاهرة للمرض . إذ لا وجود لمرض إلا لما هو مرئى visible وبالتالى منطوق énonçable أو أن المرئى والمنطوق هما كينونة المرض .

---

(57) Ph. Pinel: «La Médecine clinique», (3me éd.,Paris,1815),intro. P. VII .

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٤ .

(٥٨) «مولد العيادة» ، ص ٩٥ .

إن العيادة هى تجسيد العلاقة الأساسية عند كوندياك بين فعل الإدراك وبين اللغة . يقول كوندياك :

> «إن التحليل Analyse ليس سوى ملاحظة صفات الموضوع وفقاً لنظام التتابع dans un ordre successif وهو النظام الذى تسير عليه الطبيعة عندما تقدم موضوعاتها» (٥٩).

وهنا يتضح أن نظام الحقيقة هو هو نظام اللغة ، فكلاهما يستند إلى الزمان . كما يتضح أن البعد الزمنى إنما يحتل فى بناء هذه المعرفة الجديدة نفس الدور الذى كان يحتله المكان المنبسط الذى اقترن بقوائم الأمراض فى الطب التصنيفى (٦٠).

لقد اختفى التقابل بين الطبيعة والزمان ، كما اختفت التفرقة بين ماهية المرض وأعراضه وعلاماته ، ولم يعد هناك أنواع صامتة تنغلق عليها المعرفة الطبية ، بل انفتح المجال على لغة تتضامن فى وجودها ومعناها مع النظرة التى تحل رموزها .

إن الخبرة الإكلينيكية إنما تتشابه إذن مع الإيديولوجيا . وهى تقدم للإيديولوجيا مجالا مباشراً للتطبيق . وليس معنى هذا أن الطب قد انساق وراء أفكار كوندياك وعاد إلى احترام الشىء المدرك ، بل هو يعنى بالأحرى أن دعامة الواقع قد رسمت وفق أنموذج اللغة سواء أكان ذلك فى العيادة أم فى التحليل .

---

(٥٩) (59) Condillac, cité par Ph. Pinel, «Nosographie philosophique», (Paris, an VI), intro. P. XI.

ذكره فوكوه «مولد العيادة» ، نفس الموضع .

(٦٠) راجع أهمية البعد الزمنى فى «الإبستميه الحديثة»

يقول فوكوه :

«إن نظرة الإكلينيكى وتفكير الفيلسوف يتفقان فى امتلاك رؤية إبستمولوجية واحدة ، وذلك لأنهما يفترضان مقدما وجود نفس البناء المتطابق للموضوعية ... .
فالإدراك الاستدلالى للطبيب والتفكير الاستدلالى للفيلسوف عن الإدراك إنما يلتقيان فى تطابق تام» (٦١).

إدراك الحالات : La perception des cas

كان الاتجاه السائد فى أواخر القرن الثامن عشر هو أن الطب معرفة غير يقينية لأنه لايرى الحقيقة من خلال التفرد المحسوس l' individualité sensible بل يدرك إلى مالا نهاية أحداث مجال مفتوح (٦٢).

وفى بداية القرن التاسع عشر هجر كابانى Cabanis المفهوم القديم لعدم اليقين لصالح مفهوم آخر هو « ليبراليه » الطبيعة وعدم دقتها l'imprécise profusion de la nature.

يقول كابانى :

«ولقد أرادت الطبيعة أن تحتفظ لنفسها بدرجة معينة من الحرية الملتزمة ، أى التى لا تسمح أبداً بالخروج على النظام رغم سماحها بتنوع مقبول ... وهذه الحرية إنما تتطابق تماماً مع القدر الذى يلتزم به الفن فى التطبيق » (٦٣).

(٦١) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٦ .
(٦٢) «مولد العيادة» ، ص ٩٧ .
(63) Cabanis: «Du degré de certitude de lamédecine», (3eéd., Paris, 1819) , P. 125 .
ذكره فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٩٨ .

وقد حاول كابانى أن يبرر أدوات المعرفة الإكلينيكية بواسطة هذا المفهوم الجديد . فعدم الدقة الذى نلاحظه فى حركات الطبيعة ليس سوى فراغ تملأه الوسائل التقنية المختلفة لإدراك الحالات . وهذه الوسائل هى :

١ — حساب درجات اليقين : Le calcul des degrés de certitude

يرى جاك برنوى Jacques Bernoulli أن كل يقين يمكن أن ينظر اليه باعتباره كلاينقسم إلى أى عدد نريده من درجات الاحتمال »(٦٤).

وهذا المنهج صالح فى التشخيص وأيضاً فى العلاج . فحساب يقين الحمل عند المرأة يكون على ثمان درجات : (١) اختفاء الدورة الشهرية (٢) القرف والقيء فى الشهر الأول (٣) زيادة حجم الرحم (٤) زيادة أكبر فى حجم الرحم فى الشهر الثالث. (٥) ظهور الرحم فوق العظم العانى (٦)بروز ظاهر فى البطن (٧) الحركة التلقائية للجنين(٨) انتقال من مكان إلى آخر داخل البطن تشعر به الأم فى أول الشهر الأخير . ونلاحظ أن كل واحدة من هذه المراحل تمثل ($\frac{1}{8}$) من اليقين ، كما أن تتابع المراحل الأربعة الأولى يمثل نصف اليقين .... الخ ..

٢ — الاستفادة من تكرار الحدوث : La perception des fréquences

يقول «دوبل» F. - J. Double :

يمكننا أن نعثر على أسس القوانين العامة للطبيعة
وذلك بدراسة الظواهر المتكررة ، وبتأمل نظام

(64) J. Bernoulli: «Essai sur l'art de conjecturer en médecine», (Paris, an X) , PP. 35-37 .

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٠٣ .

علاقاتها وتتابعها المنتظم» (٦٥).

وكان طب الأجناس يمتلك الماهية أولا ، ثم يحدث بواسطتها المضمون الغنى للتجربة . أما الطب الاكلينيكى فإنه لا يعتمد على ملاحظ واحد ، بل العديد من الملاحظين الذين يرون نفس الظاهرة بطرق متعددة . وهنا تتعدد المفاهيم ، ويظهر حساب الخطأ (أوالاحتمال) والمتوسطات ، وكلها تشير إلى أن الرؤية فى المجال الطبى تتخذ بناءاً إحصائياً ، كما تشير إلى أن مجال الادراك لم يعدهو حديقة الأجناس بل مجال أحداث un domaine d'événements (٦٦).

٣ — تطبيق مبدأ التمثيل : Le principe de l' analogie

إن دراسة تركيب العناصر إنما تظهر صوراً متماثلة آنية أومتتابعة تسمح بمقارنة أعراض أو أمراض متحدة فى الهوية .

٤ — الاستفادة من الحركة المجمعة للطبيعة : Le mouvement qui associe

إن تعقد أى حالة فردية يمكن أن يخضع للتحليل وفق مبادىءالتركيب ذاتها . أى عندما نعرف مجموع العناصر التى تكونها ونمط هذا التكوين . وبهذا فإن المعرفة ستكون بمثابة استعادة الحركة المجمعة للطبيعة . وهذا يعنى أن معرفة الحياة والحياة ذاتها تخضعان لنفس قوانين الأصل . يقول كابانى :

ولقد أرادت الطبيعة أن يكون مصدر معارفنا هو نفس

---

(65) F. - J. Double: «Séméiologie générale», (Paris, 1811) t.I,P. 33.
ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٠٢ .

(٦٦) «مولد العيادة» ، ص ١٠٢ .

مصدر الحياة فلابد من مؤثرات خارجية لنعيش،
ولابد من مؤثرات خارجية لنعرف» (٦٧).

وهكذا نرى أن منطق كونديالك قد استخدم كأنموذج ابستمولوجي للعيادة . فالتحليل عند كونديالك «يرد الأفكار المركبة إلى الأفكار البسيطة التي تتكون منها كما يتتبع مراحل هذا التكوين »(٦٨) . والتحليل أيضاً «يبحث عن الحقيقة باستخدام نوع من الحساب يقوم على تركيب وإعادة تقسيم الأفكار حتى يتيسر مقارنتها بالاكتشافات الموجودة» (٦٩).

ويرى فوكوه أن هذا هو العصر الذهبي الذي كان فيه التقاء واضح ذو شفافية مباشرة بين الرؤية voir والقول dire . فقد اتفق جميع الاكلينيكيين في ذلك العصر على وجود توازن بين صور تركيب المرئي وبين قواعد تركيب المنطوق .

غير أن هذه الصورة المعممة للشفافية لا تترك للغة سوى مكان قائم . بمعنى أنها لم تهتم باللغة باعتبارها نسقاً مكوناً من عناصر مؤسسة هي أحرف الهجاء والكلمات . وهذا القصور ، وهو في حقيقته قصور في منطق كونديالك نفسه ، قد فتح المجال أمام عدد من «الأساطير الإبستمولوجية» التي استهدفت علاجه. وهذه «الأساطير » قد وجهت العيادة نحو آفاق جديدة اضطربت

---

(67) CABANIS, «Du degré de Certitude de la Médecine», op. cit., PP. 76-77.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٩.

(68) CONDILLAC, «Essai sur l'origine des connaissances humaines», P. 162 .

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١١٧ .

(٦٩) Ibid., P. 110 . (ذكره فوكوه ، نفس الموضع السابق) .

فيها الرؤية لأنها اصطدمت بكتل قائمة هي الجسد ، كما عجلت بنهاية طب الأعراض (٧٠).

وقد كانت أولى هذه الأساطير هي الخاصة بالتركيب الهجائي للمرض . ففي نهاية القرن الثامن عشر كانت أحرف الهجاء تظهر للنحويين على أنها النظام المثالي للتحليل ، وهي بهذا تمثل بداية الطريق لمن أراد تعلم لغة جديدة .

وهذه الصورة الهجائية قد تحولت دون تغيير يذكر إلى النظرة الطبية ، فأصغر وحدة ملاحظة هي التأثير الأول الذي يأتينا من مريض أو هي أول الأعراض . وهي بذاتها لا تعني شيئاً إلا إذا دخلت في تركيب منسق مع عناصر أخرى تماماً مثل أحرف الهجاء . وهذا التصور «الهجائي» للمرض يستلزم أن يكون عدد «العناصر المرضية» محدوداً مثل أحرف الهجاء . وكما أن هذه الأخيرة يمكنها أن تكون مالا حصر له من صور المقال ، كذلك كان الحال بالنسبة للظواهر المرضية. يقول كاباني في كتاب «درجة اليقين في الطب» :

> «في كل حالة جديدة قد يظن أننا بصدد ظواهر جديدة ، بينما في الحقيقة ، نحن بصدد تركيبات جديدة أحدثت اختلافات طفيفة . ففي الحالة الباثولوجية لا يوجد سوى عدد ضئيل من العناصر الأساسية ، أما الكثرة ، فهي تنشأ عن اختلاطها واختلاف شدتها » (٧١).

وثاني هذه الأساطير هي أن النظرة الطبية تخلع على كينونة المرض صفة إسمية nominaliste . فالسؤال عن حقيقة «مرض» هو تماماً كالسؤال عن

---

(٧٠) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١١٨ .

(71) CABANIS, op. cit., P. 86 .

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ٩٩ ، ص ١١٩ .

حقيقة كلمة ، والكينونة هي عبارة عن عملية تجريد . ومن ثم ، فإن المرض كالاسم le nom لا كينونة له .

• والأسطورة الثالثة تتلخص في النظر إلى الظواهر المرضية تماماً كما يفعل الكيمائي بالنسبة للظواهر الكيمائية .

فإذا كانت نظرة عالم الأمراض nosographe حتى نهاية القرن الثامن عشر هي كنظرة البستاني الذي يتعرف على ماهية محددة وسط تعدد الظواهر ، فإنه ابتداء من القرن التاسع عشر نجد أنموذجاً جديداً يفرض ذاته ، ألا وهو أنموذج العملية الكيمائية التي بعزلها للعناصر المكونة تسمح بتعريف الكل . فهي تحدد النقاط المشتركة والمتشابهة والمختلفة بين المجموعات (أي الأمراض) ، وتقيم تصنيفاً لا يؤسس على نماذج نوعية بل على صور العلاقات .

يقول دعورسي — ديلتر DELETTRE :

> «إن عالم تصنيف الأمراض ، بدلا من أن يحذو حذو عالم النبات ، عليه بالأحرى أن يقتدى بأنموذج الكيمائيين ، أي يهتم بتصنيف عناصر الأمراض وتركيباتها المتكررة» (٧٢) .

وهنا نرى أن التحليل الإكلينيكي يقترب الآن نحو الأنموذج الكيمائي بعد أن ساير طابع اللغة ثم التجريد الرياضي .

ويلاحظ فوكوه أن نظرة الإكلينيكي قد أصبحت مساوية وظيفياً لشرارة الاحتراق الكيمائي ، فهي العامل المساعد لفصل الحقائق ، لأنها تعزل الظواهر

---

(72) DEMORCY-DELETTRE, «Essai sur l'analyse appliquée au perfectionnement de la médecine», (Paris, 1810) P. 135.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٢٠ .

الأساسية وتحفظ لها نقاءها . ويلاحظ فوكوه أيضاً أن الإكلينيكى لم تعد مهمته قاصرة على مجرد قراءة المرئى لأنه يكتشف أسراراً (٧٣).

أما الأسطورة الرابعة فهى التى تجعل الخبرة الإكلينيكية قائمة على ممارسة الحواس غير أن هذه النظرة التى تدرك الملموس سرعان ما تحولت لدى الطبيب إلى نفاذ البصيرة le coup d'oeil du médecin .

يقول كورفيزار CORVISART :

«إن نفاذ البصيرة لدى الطبيب ليس سوى نتيجة لتكرار ممارسة الحواس ممارسة منهجية . وهى بلاشك تفوق أى تعليم وأى سعة اطلاع » (٧٤).

ويقول كابانى : «إن اليقين إنما يكمن فى إحساسات الفنان لا فى مبادىء الفن »(٧٥).

ونلاحظ فى الفرق بين النظرة وبين نفاذ البصيرة ، أن النظرة تتضمن مجالا مفتوحاً ونشاطاً متتابعاً (لأنها قراءة) . كما أنها تسجل ماتراه ، وعالمها هو عالم اللغة ، وهى لهذا تتآخى تلقائياً مع السماع audition والكلام Parole . أما نفاذ البصيرة ، فإنه ينتقل بالباحث إلى ما وراء الظواهر كما أنه يتوغل تحت السطح . وهو اتصال صامت كالإصبع الذى يشير .

---

(٧٣) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٢١ .

(74) CORVISART, Préface à la traduction d'AUENBRUGGER, Nouvelle méthode pour reconnaitre les maladies internes de la poitrine, (Paris, 1808) , P. X.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٢٢ .

(75) CABANIS, op. cit., P. 126 .

ذكره فوكوه ، نفس الموضع .

وهنا تهيأ الخبرة الإكلينيكية لكى تغزو مجالا جديداً هو المجال الملموس للجسد، وهو الكتلة المعتمة التى تختبيء فيها الأسرار. وهنا أيضاً يتوارى طب الأمراض ويتبدد أمام طب الأعضاء . إنه عصر بيشا BI CHAT .

نشأة الطب الحديث :

إن ظهور الطب الحديث إنما يرتبط باكتشاف علم التشريح المرضى على يد بيشا Xavier BICHAT (١٧٧١–١٨٠٢). فقد أجمع الباحثون على أن كتابيه «علم التشريح العام» ، و «دراسة فى الأنسجة» كانا بمثابة اكتشاف عظيم ومبدأ هام لحل طلاسم الجسد (٧٦).

لقد أصبح التشريح هو مبدأ تصنيف الأمراض. فصار الخبل وفقدان النطق من أمراض الرأس ، كما صار التقارب بين الأمراض يقوم على تجاورها داخل أعضاء الجسم . إن علم التشريح المرضى هو الذى أرسى المبادىء الأولى لوضعيه المعرفة الطبية . ولقد تعطل ظهور هذا العلم بسبب وقوف الديانة والأخلاق والأحكام السابقة حائلا دون فتح الجثث . ثم حان موعد ظهوره عندما أصبح الموت موضوعاً للمعرفة الفلسفة (٧٧).

يقول أليبير Alibert فى كتابه «تصنيف الأمراض» ، ظهر سنة ١٨١٧ :

---

(٧٦) ميشيل فوكو : «مولد العيادة» ، ص ١٢٨ . والكتابان هما :
1) BICHAT (X) ., «Anatomie générale appliquée à la physiologie et à la médecine», (Paris, 1801) .
2) «Traité des membranes», (Paris, 1807)

(٧٧) نفس المرجع ، ص ١٢٦ .

«عندما امتد ضياء الفلسفة إلى آفاق الشعوب المتحضرة ، أصبح من الممكن للنظرة الفاحصة أن تنتقل بين رفات جسم بلاحياة، كانت فريسة للدود فأصبحت منبعاً لا ينضب للعديد من الحقائق النافعة (٧٨)» .

لقد أراد «بيشا» أن يرد الأحجام العضوية les volumes organiques إلى سطوح للأنسجة المتجانسة . فبعد أن كان السطح هو دعامة النظرة ،أصبح صورة وشكلا للمنظور إليه ، وفى هذا بادرة ظهور الوضعية الطبية positivisme médical. وهنا نلاحظ أن التشريح الباثولوجى قدأعطى منطق التحليل l'Analyse قيمة جديدة وحاسمة ،عندما بين أن المرض ليس موضوعا سلبياً objet passif ينبغى أن يطبق عليه التحليل بقدر ما هو موضوع إيجابى يمارس التحليل بلا هوادة على الجسد . بل إن التحليل الإيديولوجى ليس سوى تكرار لما يحدث فى جسد المريض (٧٩).

وإذا كانت الملاحظة الإكلينيكية فى صورتها الأولى قد تضمنت وجود ذات Sujet ، تقوم بتحليل الرموز وتصنيف الأعراض ،فإن علم التشريح الإكلينيكى يفترض أن الداء يتضح من تلقاء ذاته كما تتكشف أسراره أمام الرؤية كلما توغلت فى أعماق الجسد . فالمرض لم يعد مجموعة من الأعراض تنتشر على سطح الجسد وترتبط فيما بينها بعلاقات تلازم أو تتابع يمكن أن

---

(78) J.-L. ALIBERT, Nosologie naturellee (Paris, 1817), Préliminaire, I, P. LVI.

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٢٦ .

(٧٩) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٣١ .

يطبق عليها المنهج الإحصائى ، إنه على الأحرى مجموع من الصور والأشكال والأحداث التى تترابط مكونة سطحاً جغرافياً يمكن أن يفحصه الطبيب خطوة بخطوة (٨٠) .

وقد يظن لأول وهلة ، أن التغير الذى طرأ على المعرفة الطبية وأدى الى ظهور علم التشريح يرجع الى اختصار المسافة بين الذات والموضوع ، خصوصا وأن نهاية القرن الثامن عشر قد شهدت طبيبا يقترب جدا من المريض ، ويستعمل أصابعه فى فحصه كما يعتمد على أذنه فى سماع شكواه وأيضا فى سماع نبضات قلبه ، أى طبيب يحاول أن يتوغل تحت السطح المرئى .

وفى الحقيقة لقد كان هذا التغير جزءا من تغير أشمل يتلخص فى الاهتمام بالملاحظة والتجربة بوجه عام ، والثقة التامة فيما يمكن أن تكشف عنه المعطيات الحسية ، والتخلى عن النظريات والأنساق لصالح اتجاه علمى «أمبريقى» . وعلى ذلك ، فإن دخول النظرة الطبية الى داخل الجسد ليس استمرارا لحركة الاقتراب التدريجى من المريض — وهى الحركة التى بدأت منذ النظرة التى ألقاها أول طبيب على جسد أول مريض — كلا ! إنه على الأحرى «نتيجة انصهار جديد على مستوى المعرفة ذاتها ، وليس على مستوى معرفة متكدسة أو متعمقة أو منضبطة » (٨١) .

والدليل على أننا بصدد طب مختلف تماما هو أن فكرة «الموضع» Siège (مكان المرض فى الجسم) قد حلت تماما محل فكرة الفئة (فئة المرض أى مكانه فى التصنيف) (٨٢) .

---

(٨٠) نفس المرجع ، ص ١٣٨ .
(٨١) نفس المرجع ، ص ١٣٩ .
(٨٢) نفس المرجع ، ص ١٤٢ .

يتساءل بيشا Bichat : أي قيمة للملاحظة إذا كنا نجهل مكان الداء ؟(٨٣).ويقول بويو BOUILLAUD في كتابه «الفلسفة الطبية» :

«لو كان في الطب بديهيات لكانت أولاها هذه القضية :
لا وجود لمرض دون تحديد دقيق لموضعه في الجسد .
واذا قبلنا عكس هذه القضية كان علينا أن نقبل أيضا أن
الوظائف توجد بلا أعضاء ، وهو قول واضح بطلانه .
إن تحديد مكان الأمراض أو موطن تواجدها في الجسم
هو من أهم منجزات الطب الحديث» . (٨٤)

ولقد كان من أهم الإضافات الجديدة التي أتى بها علم التشريح الباثولوجي هو التساؤل عن الموت . فالموت في الخبرة الإكلينيكية كان ينظر اليه على أنه نهاية للمرض والحياة في نفس الوقت . أما علم التشريح ، فإنه يرى في الموت وجودا متعددا وموزعا على مراحل زمنية تماما مثل المرض . ففي بعض الحالات الباثولوجية ، لوحظ أن أولى الأنسجة التي تظهر عليها أعراض الموت هي تلك التي تتمتع بنصيب أوفر من التغذية . وهي تبدأ بالأغشية المخاطية Les muqueuses (مثل الموجودة في أجهزة الهضم أو أجهزة التنفس) ،ويليها النسيج الحشوي للأعضاء Le parenchyme

---

(83) X. BICCHAT : "Anatomie générale", (Paris, 1801), t. I., P. XCIX

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٤٢ .

(84) BOUILLAUD, "Philosophie médicale" (Paris, 1831), P.259.

ذكره فوكوه ، نفس الموضع .

des organes ، ثم أوتار العضلات les tendons ... الخ (٨٥) .

وهذا يعني أن الموت ليس واحدا !

يقول بيشا Bichat :

«إنه في حالة الوفاة الطبيعية ، فإن الحياة الحيوانية هي التي تنطفىء أولا : وتبدأ بخمود في الحس ، وكسل في وظائف المخ ، وضعف القدرة على الحركة . وتصلب العضلات ، وشلل الأمعاء، وأخيرا توقف القلب»(٨٦) .

وهنا نلاحظ تتابع مراحل الوفاة تتابعا زمنيا .

إن عمليات الموت . رغم أنها لا تتماثل تماما مع عمليات الحياة أو المرض، فإنها تلقي أضواء جديدة على الظواهر العضوية واضطراباتها . كما أصبح من الممكن للموت أن يساعدنا في فهم الحالة الباثولوجية بما لها من مراحل . وعلى سبيل المثال فقد كان بايل G.-L. Bayle لا ينظر الى الموت باعتباره ستارا يحجب عنه المرض ، بل كان يرى فيه موقفا تجريبياً ينفتح تلقائيا على حقيقة المرض ومراحله المختلفة . وبفضل هذه النظرة تمكن بايل من معرفة حقيقة مرض السل الرئوى La Phtisie وما يمر به من مراحل (٨٧) .

---

(85) X. Bichat : "Anatomie pathologique", P. 7.
ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٤٤ .

(86) X. Bichat, "Recherches physiologiques", P. 242.
ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٤٥ .

(87) G. - L. BAYLE, "Recherches sur la phtisie pulmonaire", PP. 21—24.
ذكره فوكوه : « مولد العيادة» ، ص ١٤٦

ويتضح مما تقدم أننا قد أصبحنا الآن أمام ثالوث «تقنى» من المفاهيم trinité technique ، عناصره هى الحياة والمرض والموت . وإذا كانت الإستمرارية القديمة قد ولت ، تلك التى كانت تتصور فى الحياة خطر المرض كما ترى فى المرض نذيرا بقدوم الموت ، فإن هذه الاستمرارية أو هذا الخط المستقيم ، قد ترك مكانه لصورة جديدة على شكل مثلث متساوى الساقين ، يتربع الموت على قمته ويشرف من علياته على الظواهر العضوية والباثولوجية ويساعد على فهمها (٨٨) . فالموت هو المحلل الأول ، وبفضله تتكشف أعجوبة الأصل لما يتصف به من صرامة التحليل (٨٩) Elle fait éclater les merveilles de la genèse dans la rigueur de la décomposition.

إن التحليل l' Analyse وهو فلسفة العناصر وقانونها ، قد وجد فى الموت أنموذجا يصعب تجاوزه ، بعد أن عجزت الرياضيات والكيمياء واللغة ذاتها عن أن تمده بهذا الأنموذج . يقول فوكوه :

«إن النظرة الطبية لم تعد نظرة عين منتبهة بل هى نظرة عين رأت الموت» (٩٠) le regard d'un oeil qui a vu la mort.

الحياة الباثولوجية وفلسفة المذهب الحيوى :

إن المرض ليس حدثا événement ، أو طبيعة تأتى من الخارج . إنه الحياة وقد تعرضت لمنحرف داخلى : la maladie est une déviation intérieure de la vie.

يقول بيشا :

---

(٨٨) يرى فوكوه أننا نشهد هنا أكبر قطع La plus grande coupure فى تاريخ الطب الغربى وهو يبدأ فى اللحظة التى تحولت فيها الخبرة الإكلينيكية إلى نظرة تشريحية إكلينيكية . (مولد العيادة ، ص ١٤٩) .

(٨٩) فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٤٧ .

(٩٠) نفس الموضع .

«ان أى ظاهرة فسيولوجية إنما ترد فى نهاية المطاف إلى
خصائص الأجسام الحية فى حالتها الطبيعية ، كما أن
أى ظاهرة باثولوجية إنما ترد إلى ما يطرأ على هذه
الخصائص من تحول بالزيادة أو النقصان» (٩١) .

وزيادة على ذلك ، فان كل مجموعةمرضية chaque ensemble morbide إنما تكون أنموذجا متفردا للحياة . فهناك حياة لأمراض السل وللأورام الخبيثة وللإلتهابات المختلفة .

لهذا ينبغى أن نستبدل بمفهوم المرض الذى يهاجم الحياة مفهوما آخر أكثر تماسكا هو الحياة الباثولوجية la vie pathologique ، كما ينبغى أن نفهم الظواهر المرضية ابتداء من نسق الحياة ذاته لا باعتبارها ماهيات خارجة عنها . فالمرض هو الصورة الباثولوجية للحياة .

وهنا نتساءل : هل يمكن لهذه الأفكار أن تضيف جديدا لفلسفة المذهب الحيوى ؟ la philosophie vitaliste .

يصرح المذهب الحيوى بأن ظواهر الحياة لها خصائص أساسية لا مثيل لها فى الظواهر الكيمائية والفيزيائية . وهو بهذا يكون معارضا للمذاهب المادية. كما أنه أيضا يعارض المذاهب الروحية التى تفترض وجود روح وراء ظواهر الحياة (٩٢) .

وأقدم ما عرف عن المذهب الحيوى هو مدرسة «مونبيلييه» فى فرنسا

---

(91) X. BICHAT, "Anatomie générale", t. I, avant-propos, P. VII.

(٩٢) يوسف كرم ومراد وهبه : «المعجم الفلسفى» ، دار الثقافة الجديدة ، سنة ١٩٧١ .

Montpellier في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، ويمثلها بوردى Bordeu وبارتيه Bartez ، والأخير هو صاحب كتاب «مبادئ جديدة في علم الانسان» (ظهر سنة ١٧٧٥) . ويصرح «بارتيه» بوجود مبدأ حيوى Principe vital لدى كل فرد ، يتميز عن النفس المفكرة كما يتميز عن الخصائص الفيزيوكيائية للجسم ، وهو الذى يحكم ظواهر الحياة . (٩٣) .

ولقد كانت المذاهب الحيوية مدينة فى ظهورها لأسبقية الحياة فى الخبرة المرضية ، ولذا فإنها تتضاءل أمام اكتشافات علم التشريح الباثولوجى . فالحياة عند «بيشا» ليست مجرد مجموع من الصفات التى تتميز بها الكائنات الحية عن الجمادات بل إنها هى الأساس الذى يسمح بإدراك التقابل بين هاتين الفئتين . كما أن الحياة ليست صورة الكائن الحى ، بل إن الكائن الحى هو الصورة المحسوسة للحياة فى مقاومتها لكل ما يتعارض معها ولكل الجمادات . وإذا نظر إلى الحياة على أنها مبدأ تفسير الظواهر الفسيولوجية والباثولوجية على السواء ، فإن المذهب الحيوى ينقوض من أساسه . لأن هذا يعنى أن الكائنات الحية تنغلق على حياة وحياة مضادة . حياة تبنى وحياة تهدم (٩٤) .

وهنا يتضح لنا أن المستوى الابستمولوجى الذى ارتقت إليه الحياة على يد «بيشا» من شأنه أن يجعلها ترتبط بالموت باعتباره قوة إيجابية تهدد وتدمر ، ولأنه يسمح بالانفتاح على حقيقة الحياة ذاتها .

---

(93) LALANDE : "Vocabulaire technique et critique de la philosophie" (P. U.F., 1962)

(٩٤) ميشيل فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٥٧ .

وهنا أيضا ينبغي أن نعترف بالفضل «لبيشا» في أنه أرسى دعائم المذهب الحيوى على قاعدة الموت Le vitalisme apparait sur fond de ce «mortalisme» (٩٥).
فبالموت وحده أمكننا أن نعطى للحياة حقيقة وضعية . ولم يعد بوسعنا أن نقرر مع «كابانى» بأننا نعرف الحياة بالحياة أو أن مصدر معارفنا هو نفسه مصدر الحياة خصوصا بعد أن اتضح لنا أن الحياة لا تكشف عـــن حقيقتها الا للموت . وقد صح ما قاله لاينيك R. LAENNEC من أن :

«الطبيعة تنصاع لقواعد ثابتة ، إن فى تكوين الكائنات وإن فى هدمها» (٩٦) . La nature est astreinte à des règles constantes dans la construction comme dans la destruction des êtres.

وقد ثبت فعلا — بعد بيشا — أن الموت الجزئى أو المتدرج لدى المسن إنما يسير على عكس نمو الحياة عند الطفل .

ويظهر على ضوء هذه النتائج أن ما يطمس الحقيقة إنما هو الحياة ذاتها ، أما الموت فانه «يفتح حقيبة الجسد السوداء أمام ضوء النهار» .

وهكذا تنعكس أقدم القيم التصورية فى العالم الغربى أمام «ظلام الحياة وصفاء الموت» Obscure vie, mort limpide بفضل علم التشريح الباثولوجى . وهو ما يعتبره فوكوه ظاهرة حضارية مثلها كمثل التحول من ثقافة تحرق الجثث إلى ثقافة أخرى تحث على دفنها (٩٧) .

---

(٩٥) نفس المرجع ، ص ١٤٨ .

(96) R. LAENNEC, Introduction et premier chapitre du Traité inédit d'anatomie pathologique, (P. 52).

ذكره فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٦٠ .

(٩٧) ميشيل فوكوه : «مولد العيادة» ، ص ١٧٠ .

الطب الحديث بعد «بيشا» BICHAT :

إذا كان ظهور الطب الحديث قد ارتبط باكتشاف علم التشريح الباثولوجي على يد «بيشا» ، فإن التصور الجديد للظاهرة الباثولوجية لم يتضح إلا عند «بروسيه» (١٧٧٢ — ١٨٣٨) بعد ظهور مؤلفه «فحص العقيدة الطبية» سنة ١٨١٦ م (٩٨) .

ويرى فوكوه أن الظاهرة الباثولوجية تعرف — ابتداء من هذا التاريخ — على أنها ردفعل عضوي réaction organique أحدثه عامل مثير un agent irritant. وهنا تختفي لأول مرة «كينونة المرض» . فالمرض ليس سوى حركة للأنسجة تتصف بالتعقيد وتتسبب كرد فعل على حركة أخرى هي بمثابة العلة أو المثير .

وهكذا يختفي طب الأمراض ، فلم نعد بحاجة للحديث عن أمراض رئيسية أو عن «ماهيات» للأمراض : بل عن طب جديد هو طب التفاعلات الباثولوجية la médecine des réactions pathologiques.

وهكذا أيضا تحددت النظرة الطبية الحديثة ، واكتمل «القبلي التاريخي الملموس» L' a priori historique et concret لتلك النظرة ، وأصبح الطبيب يتعامل مباشرة مع «تركيب عضوي مريض» un organisme malade (٩٩).

ويرى فوكوه أن هذه كانت هي «النظرة» السائدة في القرن التاسع عشر — وإلى حد ما — في القرن العشرين أيضا .

---

(98) F. BROUSSAIS : "Examen de la doctrine médicale." (Paris, 1816).

(٩٩) فوكوه ، «مولد العيادة» ، ص ١٩٧ .
(راجع أيضا معنى «القبلي التاريخي» ص ص ٦٤ — ٦٦) .

ولقد كان تحديد «القبلى التاريخى الملموس» للنظرة الطبية الحديثة هو الهدف الأول من تلك الدراسة التى قام بها فوكوه وأصدر عنها كتاب «مولد العيادة». يقول فى مقدمة هذا الكتاب :

«إنه لم يكتب (أى «مولد العيادة») لمناصرة اتجاه معين فى الطب ضد الاتجاهات الأخرى . كما أنه لا يهدف إلى مناصرة الاتجاهات التى تطالب بإلغاء الطب . فهنا (أى فى هذا الكتاب) ، كما هو الحال فى مواضع أخرى ، كان الهدف هو أن نستخلص من كثافة المقال شروط تاريخه » (١٠٠) . les conditions de son historie

وقد بين فوكوه أن أى تغير يطرأ على المقال الإكلينيكى لا يفهم فقط بالاستناد الى ما تتضمنه الأفكار الجديدة أو الأنماط المنطقية ، وإنما بفحص منطقه une région تختلط فيها الكلمات والأشياء وتنتمى إلى لغة واحدة هى لغة الرؤية la vision والكلام la parole . ولهذا فهو يقرر بأن أركيولوجيا النظرة الطبية وأركيولوجيا المنطوقات إنما يتحددان فى تطبيق الفن العلاجى بدليل أن الادراك لا ينصب إلا على ما ترتضيه وتوافق عليه الممارسة المقالية . ولهذا أيضا فهو يوصى بالبحث عن القوانين التى تحكم التعمل بين المرئى وغير المرئى .

إن الأطباء فى بداية القرن التاسع عشر قد تسنى لهم وصف ما ظل لعدة قرون خارج نطاق المرئى visible والمنطوق énonçable . ولم يكن ذلك لأنهم عكفوا على الادراك بعد أن أمضوا سنوات طويلة فى التأمل ، أو

---

(١٠٠) فوكوه ، «مولد العيادة» ص ١٥ من المقدمة .

لأنهم بدأوا يسمعون نداء العقل بدلا من خضوعهم لمعطيات الخيال ، بل حدث ذلك لأن العلاقة بين المرئي وغير المرئي — وهي العلاقة الضرورية لكل معرفة حسية — قد تغير بناؤها . وعند ئذ ظهر ما يستتر خلف مجال الحس أو اللغة وهو الموت .

وعندما أصبح الموت جزءا لا يتجزأ من التجربة الطبية ، لم يعد ينظر إلى المرض على أنه ضد الطبيعة ، بل أصبح جزءا من الجسم الحي للأفراد . ومن ثم ، فان أول مقال علمي ينصب على الفرد كان عليه أن يمر بالموت (١٠١) . وكان لابد لهذا المقال أن ينفتح على مجال جديد هو التلازم بين المرئي والمنطوق .

غير أننا نلاحظ أن المرئي هنا لا يعتمد كلية على وجود الضوء ، فقد ثبت أن كثافة الأشياء التي تنغلق على ذاتها إنما تنغلق أيضا على الحقيقة ، وهذه الأخيرة لا تنكشف بفضل الضوء بل بفضل النظرة المتأنية التي تفحصها والتي تحيط بها من كل جانب حتى تنفذ إليها تدريجيا (١٠٢) .

يقول فوكوه :

> «إن الحقيقة إنما تكمن في هذه النواة القاتمة داخل الأشياء، وهي ترتبط بتلك القوة العنيفة للنظرة الامبيريقية التي تحول ليلها إلى نهار ... أما المقال العقلي le discours rationnel فانه يستند الى كثافة الموضوع l'épaisseur de l' objet أكثر من استناده إلى هندسة

---

(١٠١) ميشيل فوكوه . «مولد العيادة» ، ص ٢٠٠ .

(١٠٢) نفس المرجع ، ص ص ٩ ، ١٠ من المقدمة .

الضــوء la géométrie de la lumière. إن فى
الوجود الغامض (الموضوع) ، والسابق على كل
معرفة ، يكمن مجال الخبرة ومنبعها وحدودها . أما
النظرة le regard ، فإنها ترتبط بهذه السلبية الأولى
cette passivité première التى تدفعها إلى عمل
دائب للسعى وراءها (أى وراء السلبية) والتحكم
فيها» (١٠٣) .

ويستطرد فوكوه فيقول :

«إن هذه اللغة الجديدة للأشياء هى التى تسمح بمعرفة
للفرد غير مجرد المعرفة التاريخية أو الحسية ... كما أن
تطبيق النظرة إنما يوقظ الصفات الفريدة فى الإنسان
ويكشف عن قيمتها على أساس موضوعى» (١٠٤) .

ومن هنا يمكننا أن نفهم أهمية الطب فى تكوين العلوم الانسانية .

غير أنه إذا صح أن المقال العلمى لابد وأن يمر بالموت ، فإن هذا يعنى أن الانسان الغربى «لم يصبح — فى نظر نفسه — إنسان علم (أى موضوع علم) ، اللهم الا بعد انفتاحه تماما على واقعة فنائه الخاص (أو إمحائه التام) ... وهكذا نشأت عن خبرة الجنون كل النظريات السيكلوجية ، إن لم نقل إمكانية علم النفس ، كما تولدت عن تفسير الموت فى الفكر الطبى دراسة الطب بوصفه علما للفرد» (١٠٥) .

---

(١٠٣) نفس الموضع .

(١٠٤) نفس الموضع .

(١٠٥) ميشيل فوكوه ، «مولد العيادة» ، ص ص ٢٠٠ — ٢٠١ .
وترجمة النص للدكتور زكريا ابراهيم ، «مشكلة البنية» ، ص ١٣٥ .

ولهذا كله كانت الأهمية الكبرى لأعمال «بيشا» و«فرويد» فى الثقافة الأوروبية . لأن الفكر الطبى أصبح هو الذى يحدد المكانة الفلسفية للإنسان فى هذه الثقافة . فالنظرة الطبية والمقال الطبى واللمسات الطبية قد اتخذت جميعها منذ ذلك الوقت أبعادا فلسفية يمكن مقارنتها بما كان للفكر الرياضى — قديما — من أبعاد (١٠٦) .

وربما تتضح تلك المكانة الفلسفية للانسان — من وجهة النظر الأركيولوجية — فى القسم الثالث والأخير من الكتاب ، عندما يأتى الحديث عن موقف الأركيولوجيا من الإنسان والعلوم الانسانية .

(١٠٦) فوكو ، «مولد العيادة» ، ص ٢٠٢ .

الباب الثالث

« الأركيولوجيا ونسق العلوم »

«إن التسليم بأن العلم هو تكدس للحقائق فى استمرارية واحدة واتجاه واحد إنما يعنى بكل بساطة : تجاهل الممارسة المقالية بما لها من مستويات وعتبات ، وما تخضع له من قطع متعدد »

فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٥

الفصل السادس

العلم والمعرفة

١ — ظهور العلوم الحديثة على قاعدة المعرفة :

علم البيولوجيا .

علم الاقتصاد .

علم اللغة .

٢ — اختلاف «العتبات» وتتابعها .

٣ — الأنماط المختلفة لتاريخ العلوم .

٤ — المعرفة والإيديولوجيا .

ذكرنا فى موضع سابق أن «الأركيولوجيا» لا تهتم بالعلم بقدر اهتمامها بالمعرفة فى علاقاتها بالعلوم (١) . فالبحث الأركيولوجى ، وهو عبارة عن تشخيص لحالات المقال est diagnostic يبدأ بالتكوينات المقالية les formations discursives ، والوضعيات positivités ، ثم المعرفة وما يمكن أن ينبثق عنها من علوم (٢). وقد تعرضنا فى الفصلين السابقين للشروط التى بررت ظهور «الطب النفسى» ثم «الطب الاكلينيكى» على «القاعدة المعرفية الحديثة» l' épistémè moderne. وسنرى الآن – باختصار – كيف انبثقت علوم أخرى هى البيولوجيا والاقتصاد وعلم اللغة ابتداء من نفس القاعدة المعرفية. ثم نعود بالتحليل إلى «عتبة المعرفة» le seuil d' épistémologisation ، ونحدد مكانها بالنسبة لعتبة العلم والعتبات الأخرى المتتابعة ، ونتبع ذلك بنظرة فوكوه لأنماط تاريخ العلوم ، وأخيراً نختم الفصل بعلاقة المعرفة بالإيديولوجيا .

إن التسليم بأن العلم هو تكدس الحقائق فى استمرارية واحدة واتجاه واحد إنما يعنى تجاهل الممارسة المقالية بما لها من مستويات niveaux وعتبات seuils وقطع متعدد ruptures diverses (٣). ولذا ينبه فوكوه فى مواضع كثيرة إلى أن الممارسات المقالية التى سادت فى العصر الكلاسيكى لا ينبغى أن ينظر اليها على أنها إرهاص أو تسبيق للعلوم التى ظهرت فى العصر الحديث بحيث تصبح هذه الأخيرة امتداداً لأبحاث سابقة عليها .

ومثلا لاحظ فوكوه أن علم التاريخ الطبيعى لم يتقدم على مدى قرنين من

---

(١) ص ٤١ .
(٢) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٦٨ .
(٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٥ .

الزمان (القرن السابع عشر والثامن عشر) ما يمكن أن نعتبره مقدمة لعلم الأحياء أو البيولوجيا . والسبب فى ذلك أن الاستعداد المعرفى للعصر الكلاسيكى كان ينظر للتتابع الزمنى على أنه خاصية أو مظهر لنظام الكائنات بينما كان «الابستميه الحديث» يرى التتابع معبراً عن نمط الوجود التاريخى والعميق للأشياء والبشر (٤) . وهذه الرؤية الأخيرة للتتابع هى التى يتبعها القول بالتطور ، والتساؤل عن الوراثة ، وتفسير النمو لدى الحيوان والنبات ، وكلها أساسيات ضرورية لظهور علم البيولوجيا .

وقد ظهر الانسان كموضوع للمعرفة فى «الابستميه الحديث» ، ومهد لهذا الظهور عناصر معرفية كثيرة اقتصادية واجتماعية وسياسية تعرضنا لها بالدراسة والتحليل فى الفصول السابقة (٥) . وكانت هذه العناصر المعرفية بمثابة الأرضية الأركيولوجية territoire archéologique التى انبثقت عليها العلوم التى تدرس الانسان .

وإذا كان وجود الانسان تتحكم فيه عوامل تتصل بالحياة ذاتها وباللغة وبالعمل فإننا لا يمكن أن نسبر أغواره إلا عن طريق تركيبه اللغوى أو كلماته أو الأشياء التى يصنعها »(٦).

إن ريكاردو Ricardo فى علم الإقتصاد وكوفييه Cuvier فى البيولوجيا كانت تجمعها نظرة شاملة فى مواجهة أفكار العصر الكلاسيكى (٧). إذ

---

(٤) نوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٨٩ .
(٥) الفصل الرابع والخامس على وجه الخصوص .
(٦) نوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٤ .
(٧) ريكاردو David Ricardo اقتصادى انجليزى ، ولد فى لندن (١٧٧٢–١٨٢٣).
كوفييه ، هو البارون جورج كوفييه ، فرنسى الجنسية ، عالم حيوان ومؤسس علم الحفريات (١٧٦٩ – ١٨٣٢) .

اعترف لأول مرة – على يديهما – بدور التتابع والتاريخ في التفسير الاقتصادى والبيولوجى ، وذلك لاستنادهما إلى نفس القاعدة المعرفية الجديدة .

وقد رأينا فى تحليلنا لـ «ابستميه» العصر الكلاسيكى أن آدم سميث يحلل العمل على اعتبار أن له القدرة على إقامة مقياس ثابت بين قيم الأشياء . ولاحظنا وجود مطابقة identité عنده بين العمل كنشاط إنتاجى والعمل كسلعة يمكن أن تباع وتشترى (٨). أما الاقتصادى ريكاردو ، فانه يرى أن العمل كسلعة لا يمكن أن يكون مقياساً ثابتاً لأنه يخضع لما تخضع له السلعة من متغيرات .

ولقد كان الاختلاف بين سميث وريكاردو يتلخص فيما يلى :

العمل بالنسبة للأول يمكن أن يستخدم كوحدة مشتركة لكل السلع لأنه يمكن أن يرد إلى عدد من ساعات العمل يستهلك العامل خلالها كم معين من المواد الغذائية.أما عند ريكاردو فإن كمية العمل تسمح بتحديد قيمة أى شىء ، ليس فقط لأن هذا الشىء تمثله وحدات عمل ، بل أولا وأساساً لأن العمل كنشاط إنتاجى هو الأصل فى أى قيمة . إن هذه القيمة لم تعد رمزاً كما كان الحال فى العصر الكلاسيكى ، بل أصبحت إنتاجاً ، وبعبارة أخرى ، إذا كانت الأشياء تساوى نفس القدر من العمل والجهد الذى بذل من أجل انتاجها ، أو على الأقل ، إذا كانت قيمتها تتناسب مع هذا العمل : فليس معنى هذا أن ينسب للعمل قيمة محددة وثابتة يمكن مقايضتها فى كل زمان ومكان ، بل إنه يعنى بالأحرى أن كل قيمة أيا كانت إنما ترد فى النهاية إلى أصل واحد هو العمل (٩). وإذا كان تحليل الثروة فى العصر الكلاسيكى

---

(٨) ص ١٠٥ .

(٩) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٦٦ .

يعتمد على التبادل ، فإن ريكاردو يقيم التبادل ذاته على العمل . ولذا فإن نظرية الإنتاج ينبغي أن تسبق نظرية انتشار وتداول السلع . كما أن صور الانتاج les formes de production (تقسيم العمل وكمية الآلات المستخدمة ونوعيتها ، وحجم رأس مال صاحب المصنع ... الخ) هي التي تحدد القيمة (١٠) .

ولقد تمخضت أفكار ريكاردو عن نتائج هامة تكشف جميعها عن خصائص الحقبة المعرفية الحديثة (١١) . وهذه النتائج هي :

أولا : تحددت القيمة طبقاً لظروف انتاج السلعة ، ولم يعد التفسير الاقتصادي مرتبطاً بمفهوم المجال المكاني للتغاير والتطابق espace de différences et d' identités بل بمفهوم الانتاج المتتابع خلال الزمن productions successives.

ثانياً : النتيجة الثانية تتصل بمفهوم الندرة la rareté . وكان التحليل الكلاسيكي للندرة يقوم على أساس علاقتها بالحاجة besoin . فالانسان هو المتمثل لحاجاته ولوسائل إشباعها . ورأى اقتصاديو القرن الثامن عشر أن فلاحة الأرض يمكن أن تصل بالانتاج الزراعي إلى القدر الذي يشبع جميع الحاجات وبالتالي يقضي على الندرة (١٢).

ويقلب ريكاردو هذا التحليل رأساً على عقب ، ويرى أن الكرم الظاهر للأرض لا يرجع في حقيقته إلا إلى شح متصاعد . فالعمل أو النشاط الاقتصادي بوجه عام لم يظهرا في تاريخ العالم إلا منذ أن شعر الانسان بأن الثمار التي تجود بها الأرض تلقائياً لم تعد تكفيه ، فمات عدد من سكان الأرض وكاد آخرون

(١٠) نفس المرجع ، ص ٢٦٧ .
(١١) يمكن مراجعة خصائص الحقبة المعرفية الحديثة بالفصل الثالث .
(١٢) فوكوه : والكلمات والأشياء ، ص ٢٦٨ .

أن يموتوا لولا أنهم تنبهوا فعملوا . ومن ثم كان الدافع إلى العمل دائماً هو التهديد بالموت ، كما كانت الندرة هي الأساس الذى يقوم عليه أى نشاط إقتصادى.

ونلاحظ أن هذا النشاط الاقتصادى لم يعد من الممكن تصوره بعيداً عن خصائص بيولوجية معينة تتعلق باطراد النمو البشرى سبق أن حذر من خطورتها مالتوس Malthus فى نفس زمن ريكاردو .

ويظهر مما تقدم أن انسان «الابستميه» الحديث لم يعد هو المتمثل لحاجاته ولوسائل اشباعها ، بل هو الذى يكد فى أن يدفع عن نفسه خطر الموت . كما يظهر أيضاً أفول «الاتجاه المعرفى» الذى يؤسس كل معرفة على التمثلات.

ثالثاً : النتيجة الثالثة والأخيرة التى تمخضت عنها أفكار ريكاردو وتختص بتطور الاقتصاد. فقد تنبأ ريكاردو بزيادة الانتاج لمواجهة الندرة واستنزاف امكانيات البيئة ، ثم محاولة توسيع الرقعة الزراعية على حساب الغابات واستصلاح الأراضى الصخرية مما يؤدى إلى زيادة تكاليف الإنتاج . ورأى أن هذه الحالة ستستمر إلى أن يأتى اليوم الذى يرتفع فيه أجر العامل عن قيمة العائد من انتاجه اليومى ، أو يعجز سعيه اليومى عن توفير ما يلزمه من قوت . وعندئذ يتوقف التاريخ L' Histoire deviendra étale . ويتكشف تناهى البشر La finitude de l' homme sera définie. والعجيب أن الجانب التاريخى الذى أدخله ريكاردو فى الفكر الاقتصادى هو الذى أدى إلى هذا التصور المتوقف للتاريخ immobilisation de l' histoire «١٣» .

ويعرض فوكوه للحل الماركسى لهذه الأزمة ، ويرى أن فيه قلباً للتاريخ يترتب عليه بداية لزمان ليس له نفس الصورة الأولى ولا نفس القوانين ولا يتدفق على نفس الوتيرة . وإذا أردنا أن نبحث عن نقط الالتقاء بين ريكاردو

---

(١٣) نفس المرجع ، ص ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

وماركس فاننا نجد أن السلعة — عند كليهما — إنما ترد إلى النشاط البشرى الذى أنتجها باعتباره هو الأصل فى وجودها — أى ترد إلى العمل le travail . وعند كليهما أيضاً نجد أنه فى داخل هذا العمق الأنثروبولوجى للاقتصاد (العمل) توجد جذور البعد التاريخى له .

غير أنه لا يخفى علينا أن الحوار يدور عند ريكاردو حول مفاهيم الندرة والانتاج ، بينما نجد الحوار عند ماركس يدور حول مفاهيم التكدس— accumulation والاغتراب aliénation .ومع ذلك فإن التقابل بين الموقفين هنا إنما يأخذ معنى خاصاً من كونه ينبثق عن نفس « الابستميه » أو نفس «الاستعداد المعرفى» السائد. إنه تقابل بين أطراف «مشتقة أركيولوجيا» ، تنتمى إلى نفس التكوين المقالى (١٤). فالعمل ، والبعد التاريخى ، وأفول البشر ، كلها دالات (أى رموز) لم تفقد مدلولاتها داخل نفس «الابستميه» عند ريكاردو وماركس .

ويرى فوكوه ،بناء على ماتقدم ،أننا إذا نظرنا فى أعماق الفكر الغربى، لوجدنا حقاً أن الماركسية لم تقدم طفرة بمعنى الكلمة ، أو بداية جديدة لتيار فكرى جديد ، أو قطعاً coupure يفصل بين اتجاهين فى المعرفة مختلفين فى الطبيعة . لقد وجدت الماركسية لنفسها مكاناً بلا أدنى صعوبة ، وذلك ضمن اتجاه معرفى تفضل بالموافقة عليها لأنه هو الذى أفسح لها المجال . ولم يكن ضمن مخططها إثارة أى اضطراب ، أو فى قدرتها إحداث أى تغيير اللهم إلا قيد أنملة فقط ، وذلك لأنها تنبثق كلية عن هذا الاتجاه المعرفى الحديث . إن الماركسية داخل فكر القرن التاسع عشر هى تماماً كالسمكة

(١٤) راجع الفصل الثانى .

فى الماء ، بمعنى أنها تصاب بوقف فى التنفس خارج هذا النطاق (١٥) .

ومهما كان من شىء ، فإن بداية القرن التاسع عشر قد تميزت بظهور اتجاه معرفى يتصف بإدخال عنصر التاريخ فى الدراسات الاقتصادية وذلك عن طريق الاهتمام بصور الإنتاج ، كما يشير إلى أفول الوجود البشرى ، وذلك بالكشف عن علاقة هذا الوجود بالندرة والعمل ، وأخيراً فإن هذا الإتجاه يشير إلى نهاية مسار التاريخ فى صورة تباطؤ بلاحدود (ريكاردو) أو تغيير يستهدف الأصول (ماركس) .

يقول فوكوه :

«إن الزمان المكدس للسكان والانتاج مع استمرار حدوث الندرة ، هما اللذان تسببا — ابتداء من القرن التاسع عشر — فى ظهور فكرة إفقار التاريخ Appauvrissement de l' histoire ، وتحول مساره إلى جمود وتحجره (١٦) .

وقداستثمرت فعلا هذه الفكرة فى أواخر القرن التاسع عشر . فقدأخذ نيتشة «أفول الزمان» وجعل منه «موت الإله» و «حيرة الانسان» ، كما أخذ «تناهى البشر» ليخرج منه «السوبرمان» أو «الانسان الأعلى» (١٧). أما الإنسان الراهن ، فهو فى نظر نيتشة «حبل مشدود بين الحيوان الأعجم والإنسان الأعلى ، حبل مشدود فوق الهاوية» (١٨) وهنا يتضح لنا أن

---

(١٥) ميشيل فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٢٧٤ .

(١٦) نفس المرجع ، ص ٢٧١ .

(١٧) نفس المرجع ، ص ٢٧٥ .

(١٨) يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة الحديثة» ، (دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩) ، ص ٣٩٠

علم الاقتصاد الذي انبثق على قاعدة معرفية لها خصائص معينة، يمكن لنتائجه أن توحي بأفكار فلسفية تنسجم مع سائر العناصر الثقافية داخل والابستميه » .

وإذا انتقلنا إلى علم اللغة في القرن التاسع عشر ، عند أمثال جريم Grimm وراسك Rask ، وبوب Bopp ، فاننا نلاحظ أنهم قاموا لأول مرة بدراسة اللغة على أنها مجموع من العناصر الصوتية لا علاقة لها بنوع الحروف الهجائية التي كتبت بها . إذ بينما كانت الثوابت الهجائية les constantes alphabétiques والثوابت المعنوية les constantes significatives في العصر الكلاسيكي هي المحك الضروري لمعرفة الأصول البعيدة للغة ، نجد أن القرن التاسع عشر يستخدم وسائل لغوية بحتة للكشف عن العناصر الداخلية للغة دون ما حاجة للبحث عن الأصل. فأصبح علم المقاطع اللغوية l' étymologie هو المنهج المتبع لتحليل أي لفظ بغية الوصول إلى أصله . كما أصبحت أي لغة تعرف بكيفية ربطها للعناصر اللفظية المكونة لها وهي الأسماء والأفعال والكلمات والأصوات. وهذا يعني أن القرن التاسع عشر يهتم بأنماط التنظيم اللغوي types d'organisation linguistique . كما يهتم بالتغيرات الداخلية لهذا التنظيم .

وقد ترتب على ظهور علم اللغة على هذا النحو ، أن انفصلت اللغة عن التمثل . كما ظهرت كينونة اللغة l' être du langage .

يقول فوكوه :

« لقد ظهر المنطق الرمزي على يد جورج بول Boole (١٨١٥ — ١٨٦٤) في الوقت الذي أصبحت فيه اللغة موضوعاً للفلسفة. وقد كان هدف مفكري هذه الحقبة

هو تمثل صور وتسلسل الفكر بعيداً عن أى لغة»(١٩)

وقد كان المظهر المعبر عن كينونة اللغة واستقلالها فى القرن التاسع عشر هو «الأدب ، وآية ذلك أن هذا القرن «قد قام بفصل المعرفة Savoir عن لغة خالصة langage pure ، غامضة الكينونة والوظيفة ، نسميها منذ ذلك الوقت أدباً» (٢٠) . وهذا الأخير يفترق عما اعتدنا أن نسميه كذلك منذ دانتى وهوميروس لأنه ينغلق على ذاته ويتخلص من القيم (وهى قيم تتصل بالمتعة والتذوق والبحث عن الحقيقة وتأمل الطبيعة) ، رغم أنها هى التى يسرت تداوله فى العصر الكلاسيكى ، ويصبح مجرد تعبير عن لغة ليس لها من قانون سوى تأكيد وجودها (٢١) . أليس فى كل هذا تعبير عن قلق الإنسان فى الحقبة المنطوقية الحديثة ؟ .

ولاحظ فرانسوا فال F. WAHL أن معظم ماكتبه ميشيل فوكوه عن كينونة اللغة فى القرن السادس عشر يتطابق مع ما كتبه عن لغة القرن التاسع عشر خصوصاً بعد أن استقلت اللغة (الأدب) على يد مالا رميه ، وبعد أن أصبحت كلاماً يحمل بين طياته مبدأ فهمه أى يتطلب وجود لغة ثانية هى لغة التأويل interprétation (٢٢) . غير أن فوكوه يصرح بأن «التأويل فى القرن السادس عشر يبدأ بالعالم (أى الأشياء والنصوص مجتمعة) «ويستهدف الكلام المقدس la Parole divine أما التأويل عندنا ، أى منذ أن تحدد فى القرن التاسع عشر ، فإنه يبدأ من الانسان أو الله أو المعرفة أو الخرافة ثم

(١٩) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣١٠ .

(٢٠) نفس المرجع ، ص ١٠٣ .

(٢١) نفس المرجع ، ص ٣١٣ .

(22) F. WAHL : Qu'est-ce que le Structuralisme ? ",Op. cit., PP. 312—313.

ينتقل إلى الكلمات التى تهبها الوجود . وهو تأويل لا يكتشف قدسيه مقال أول بقدر ما يكشف عن أننا خاضعون ومستسلمون لتسلط اللغة »(٢٣).

ومهما كان من شيء ، فإن «المعرفة» فى الحقبة الحديثة قد تميز ت بظهور مناهج التأويل les méthodes d' interprétation وفنون الاستنباط الصورى les techniques de formalisation ، وهما صنوان من الممارسة ، نشأتا على أرض مشتركة هي كينونة اللغة ، وتحاول كل واحدة منهما أن تحتوى الأخرى . فالتأويل يرتد بنا إلى الوجود العادى للغة ، أى إلى صور بحتة خالية من أى معنى . كما أن ممارسة الاستنباط الصورى تحتم تطبيق حد أدنى من التفسير (أو التأويل) وبالتالى تفسير كل الصور الصامتة كما لو كانت تعنى شيئاً .

يقول فوكوه :

«إن السمو النقدى باللغة إنما يتضمن اقترابها من حدث المعرفة الخالص l' acte de connaitre pure الذى لا نجده فى أى مقال نعرفه . وهذا الحدث إما أن يتكشف لنا فى صور المعرفة المختلفة ؛ وإما أن ينطمس ضمن محتويات اللاشعور . وهنا تتضح لنا المسيرة المزدوجة للقرن التاسع عشر نحو تصورية الفكرة le formalisme de la pensée ونحو اكتشاف اللاشعور — أى نحو برتراند راسل وسيجموند فرويد — كما يتضح لنا أيضاً محاولة الاحتواء المتبادل بين الاتجاهين :

(٢٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣١١ .

محاولة تقديم صور خالية من أى مضمون تفرض على اللاشعور ، ومحاولة إظهار معنى الكينونة ، والأفق المعاش l' horizon vécu لجميع معارفنا . لقد كانت هذه هي الأرض المشتركة التي أنبتت البنائية وفلسفة الظواهر «فينومينولوجيا» (٢٤).

رأينا فى هذا الفصل كيف انبثقت علوم البيولوجيا والاقتصاد واللغة على صفحة الاستعداد المعرفى الحديث : وكيف أن هذا الاستعداد المعرفى ليس فى نهاية المطاف سوى مجموعة من الخصائص تضم جميع عناصر البناء الثقافى السائد أو ما يسميه فوكوه «ابستميه» .

ولعلنا الآن بحاجة إلى وضع تحديد منهجى لمعنى المعرفة ، وأيضاً لذلك النوع من المعارف الذى يسمى علماً من وجهة النظر «الأركيولوجية» .

إختلاف العتبات وتتابعها :

كتب فوكوه فى كتابة المنهجى الموسوم باسم «أركيولوجيا المعرفة» ، وتحت عنوان «اختلاف العتبات وتتابعها» ، أن «عتبة المعرفة» ليست أولى العتبات. إذ يسبقها «العتبة الوضعية» ويليها «عتبة العلم» ثم «العتبة الصورية»(٢٥).

أما العتبة الوضعية le seuil de positivité فهى اللحظة التى تتحدد ابتداء منها أى ممارسة مقالية أو اللحظة التى يظهر فيها نسق أو حدث تكوين المنطوقات ، وهى أيضاً لحظة التحول الذى يطرأ على هذا النسق .

---

(٢٤) نفس المرجع ، ص ٢١٣ .

(٢٥) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٤٣ – ٢٤٧ .

إن الوضعيات positivités ليست شروطا قبلية وضرورية يظهرها التاريخ conditions a priori et nécessaires ، كما أنها لا ينبغى أن تفهم على أنها مجموع ملزم يفرض على الفكر البشرى من خارجه أو يوجد مسبقاً فى داخله . إن هذه الوضعيات إنما تكون بالأحرى مجموع الظروف التى تسير الممارسة المقالية وفقاً لها والتى يمكن أن تتحكم فى مسار هذه الممارسة مما ييسر انتاج منطوقات جديدة (٢٦) . غير أن إضافة منطوق جديد إلى مجموعة من المنطوقات سبقته فى الوجود إنما يتضمن (ليس فقط موقف situation أو سياق contexte أو حافز motif) ، بل شروط conditions وقواعد règles تختلف عن القواعد المنطقية واللغوية . وهذا يعنى أن التغير على مستوى المقال لا يفترض ظهور «أفكار جديدة» أو ظهور «عقلية مختلفة» ، كما أنه لا يفترض حدوث أى اختراع أو ابتكار ، إنه استحالة فى الممارسة transformations dans la pratique (٢٧).

يقول فوكوه :

«لا وجود فى الواقع لأى مبادأة فردية ، بل يوجد مجال ليست المبادأة الفردية مركزاً له . وربما كانت هناك قواعد معينة تضعها هذه المبادأة موضع التنفيذ دون أن تكون قد اخترعتها أو صاغتها ، وقد يكون هناك علاقات تعضد (المبادأة) دون أن تكون (هذه المبادأة) نتيجتها الأخيرة ودون أن تكون هى نقطة تجمع هذه العلاقات» (٢٨)

(٢٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٧٢ .
(٢٧) نفس الموضع .
(٢٨) نفس الموضع .

إن تحليل الوضعيات إنما يعني الكشف بوجه خاص عن القواعد التي تمكن الممارسة المقالية من تكوين الموضوعات objets والمنطوقات énoncés والتصورات concepts .وهذه العناصر المتكونة لا تعتبر علماً، وذلك لأن نسق العلاقات القائم بينها لا يتصف بالصرامة المطلوبة، كما أنها ليست معلومات connaissances تتكدس إلى جوار بعضها البعض وتتكون عن طريق الخبرة حول ذات تملك ناصيتها . إن هذه العناصر هي التي ينبثق عنها قضايا متناسقة أو غير متناسقة ، ويتكون ابتداء منها أنماط التحقق vérification وأضرب عديدة للوصف description ، كما يصدر عنها العديد من النظريات .

ويقول فوكوه عن هذه العناصر أنها تسبيق le préalable لما سيتكشف كمعرفة أو وهم ، كحقيقة مقبولة أو خطأ مرفوض . (٢٩).

ويظهر مما تقدم أن هذا التسبيق ليس معطى من المعطيات un donné ، أو خبرة معاشة تختلط بالمدرك أو المتخيل يمكن لأى فرد أن يجتازها إن أراد أن يكشف عما تخبئه من معان (٣٠) .

إن هذه العناصر لابد وأن تكون قد تكونت بفعل الممارسة المقالية ذاتها، ليتكون ابتداء منها بعد ذلك مقالا علمياً يتحدد هو الآخر لا بصرامته sa rigueur بل بالموضوعات التي يتناولها ونمط المنطوقات التي يستخدمها والتصورات التي يلجأ اليها (٣١).

وهكذا فإن العلم لا يرد إلى المعاش le vécu ، بل إنه يرد إلى ماينبغي أن

---

(٢٩) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٧ .
(٣٠) نفس الموضع .
(٣١) نفس الموضع .

يكون مقولا ce qui a dû être dit وذلك إن أردنا أن يكون هناك مقال يستجيب لحلك علمي تجريبي أو صوري (٣٢).

إن ما يسميه فوكوه معرفة Savoir ليس شيئاً آخر سوى تلك العناصر المتكونة فى مجموعها (الموضوعات والمنطوقات والتصورات) ، والتي تنشأ عن الممارسة المقالية فى حقبة منطوقية معينة . وهذه العناصر ، وإن كانت ضرورية فى تكوين العلم ، إلا أنه قد لا ينبثق عنها بالضرورة .

ويحدد فوكوه ما يقصده بعتبة المعرفة le seuil d' épistémologisation فيقول :

«عندما ينبثق داخل التكوين المقالى عدد من المنطوقات
يستهدف إقامة معايير للتحقق des normes de vérification
والتناسق et de cohérence وتكون بمثابة الأنموذج السائد ،
عندئذ نقول أن التكوين المقالى ينتقل إلى عتبة المعرفة» (٣٣).

ونلاحظ مما تقدم أن الأركيولوجيا فى طريقها إلى العلم إنما تبدأ بالممارسة المقالية وتمر بالمعرفة

l' archéologie parcourt l' axe pratique discursive - Savoir - Scie nce

وذلك بدلا من الطريق التقليدى الذى يبدأ بالشعور ويمر بالمعلومات ثم يصل إلى العلم — l' axe conscience-connaissance science (٣٤) . وإذا كان علم تاريخ الأفكار يعتمد فى تحليله على عنصر «المعلومات» وهو بالتالى يضطر إلى الخوض فى تساؤلات متجاوزة (ترانسندنتاليه) كما يبتعد عن الموضوعية ، فإن الركيزة التى تستند إليها الأركيولوجيا فى تحليلها هى المعرفة

---

(٣٢) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٨ .
(٣٣) نفس المرجع ، ص ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٣٤) نفس المرجع ، ص ٢٣٩ .

savoir أي المجال الذي يصعب فيه على الذات أن تظهر كنشاط متجاوز أو شعور منخرط في التجربة .

وبعد العتبة الوضعية وعتبة المعرفة تأتي عتبة العلم seuil de scientificité ويعبر عنها ميشيل فوكوه بقوله :

وإذا كان النمط المعرفي la figure épistémologique يستجيب لأكثر من محك صوري ، وإذا كانت منطوقاته تخضع ، بالاضافة إلى قواعد التكوين الأركيولوجي ، لعدد من قوانين تركيب القضايا ، عندئذ نقول أن هذا النمط المعرفي ينتقل إلى عتبة العلم»(٣٥).

ويميز فوكوه بين مجال العلم وبين «الأرضية الأركيولوجية» . فإذا كانت قضايا العلم تخضع لقوانين معينة داخل نسق علمي محدد ، فإن الأرضية الأركيولوجية لاتتصف بهذا التحديد وتلك الصرامة .

وعلى سبيل المثال ، فإن ماتكهن به دالامبير D' Alembert(٣٦) بخصوص تطور الأنواع ربما كان ترجمة لعدد من التصورات أو الفروض العلمية التي سادت في عصره ، وربما كان إرهاصاً أو تسبيقاً لحقائق مستقبلة ، ولكنه مع ذلك لا ينتمي لمجال علم التاريخ الطبيعي بل ينتمي بالأحرى للأرضية الأركيولوجية لهذا العلم خصوصاً وأنه من الممكن أن نكتشف على تلك الأرضية نفس قواعد تكوين المنطوقات لدى علماء التاريخ الطبيعي في ذلك العصر من أمثال لينيه Linné وبيفون Buffon ودوبنتون Daubenton . ولاحظ

---

(٣٥) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .

(٣٦) دالامبير هو كاتب وفيلسوف ورياضي فرنسي ، ولد في باريس (١٧١٧ - ١٧٨٣) ، وهو من مؤسسي دائرة معارف القرن الثامن عشر .

فوكوه أيضاً أن ما كتبه شارل بونيهBonnet فى القرن الثامن عشر عن تناسخ الأرواح Palingénésie يمكن أن يدخل كذلك فى نطاق الأرضية الأركيولوجية لعلم التاريخ الطبيعى رغم أنه أبعد ما يكون عن المعايير العلمية السائدة فى عصره (٣٧). ويتضح مما تقدم أن « الأرضية الأركيولوجية » إنما تتسع للكتابات الأدبية والنصوص الفلسفية إلى جانب النصوص العلمية . وهى بما تفتقر إليه من تحديد وصرامة تقترب كثيراً من مفهوم «المعرفة» .

أما العتبة الرابعة والأخيرة فهى العتبة الصورية le seuil de la formalisation. ويقول عنها ميشيل فوكوه :

«عندما يتمكن المقال العلمى من تعريف بديهياته الضرورية وقضاياه المشروعة والعناصر التى يستخدمها ويكون بذلك قد أقام صرحاً صورياً خاصاً به ، عندئذ نقول أنه ينتقل إلى العتبة الصورية» . (٣٨)

ويلاحظ فوكوه أن تتابع هذه العتبات ليس منتظماً وليس متجانساً. ففى الوقت الذى انتقل فيه العديد من الوضعيات إلى العتبة الصورية نجد أن عدداً منها لم ينتقل بعد عتبة المعرفة أو العلم . ويلاحظ أيضاً أن التكوينات المقالية لاتمر تباعاً successivement بهذه العتبات كما هو الحال بالنسبة لمراحل النمو البيولوجى ، وذلك لأن كل تكوين مقالى إنما يتصف باستقلاله وتفرده (٣٩).

---

(٣٧) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٣٩ .
شارل بونيه هو فيلسوف وعالم طبيعى ، سويسرى الجنسية ، ولد فى جنيف (١٧٢٠ — ١٧٩٣) .
(٣٨) نفس المرجع ، ص ٢٤٤ .
(٣٩) نفس الموضع .

وعلى سبيل المثال فإن الإنتقال إلى عتبة العلم قد تطلب في بعض الحالات الانتقال إلى وضعية جديدة. فالانتقال من «التاريخ الطبيعي» إلى علم البيولوجيا (باعتباره لا يقوم على تصنيف الكائنات بل على ترابط نوعي لمختلف الأعضاء)، نقول إن هذا الانتقال لم يحدث إلى عصر كوفييه Cuvier إلا بانتقال مماثل من وضعية لأخرى. وعلى العكس تماماً نجد أن ظهور علم الطب التجريبي عند كلود برنارد ثم «الميكروبيولوجيا» la microbiologie عند باستير لم يستلزم إطلاقا حدوث أى تغيير للتكوين المقالى السائد، رغم أن كلا العلمين قد غير تماماً ما تعارفت عليه «الفسيولوجيا الباثولوجية» وعلم التشريح (٤٠).

أما بالنسبة لعلم الاقتصاد فقد تعدد القطع، إذ ظهرت عتبة الوضعية في القرن السابع عشر مع ظهور النظريات الاقتصادية التي تعطي أهمية كبيرة للذهب باعتباره الدعامة الأساسية لاقتصاد الدولة، وهي النظريات التي تجتمع تحت اسم le mercantilisme. ثم ظهرت عتبة المعرفة في نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن التالى عند كانتيون Cantillon ولوك Locke(٤١). وفي القرن التاسع عشر ظهر نمط جديد للوضعية مع ريكاردو كما ظهرت صورة جديدة للمعرفة عند كورنو Cournot وجيفونز Jevons وكارل ماركس(٤٢). ويرى فوكوه أن «الرياضيات» قد اجتازت دفعة واحدة عتبة الوضعية والمعرفة والعلم وأيضاً العتبة الصورية. ومن ثم فإن الانتاج الذى تفتق عنه ذهن الرياضيين الأوائل ظل مثالا ينتشر على مر العصور، ولم تكن إعادة النظر فيه إلا

---

(٤٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة»، ص ٢٤٥.

(٤١) ريشارد كانتيون هو اقتصادى ايرلندى (١٦٨٠ - ١٧٣٤)، وجون لوك هو الفيلسوف الانجليزى الذى عرف بمذهبه الحسى (١٦٣٢ - ١٧٠٤).

(٤٢) كورنو هو فيلسوف وعالم رياضة واقتصاد، فرنسى الجنسية، (١٨٠١ - ١٨٧٧). أما جيفونز Jevons فهو عالم اقتصادى انجليزى الجنسية، أول من أدخل المنهج الرياضى في التحليل الاقتصادى (١٨٣٥ - ١٨٨٢).

لتظهره أو تكراره. كما يرى فوكوه أيضاً أن الرياضيات وهي أنموذج الصرامة والبرهان بالنسبة للعديد من العلوم ، ليست سوى مثل سيء لا ينبغي تعميمه بالنسبة للمؤرخ الذى يبحث عن صيرورة حقيقية للعلوم (٤٣) . فقد ظهر لنا أن اختلاف العتبات وانتشارها فى الزمان وتتابعها أو احتمال تواجدهامعاً ، وتضمنها لبعضها البعض ، وشروط ظهورها ، نقول ، ظهر أن كل هذا يشكل مجالا هائلا للبحث الأركيولوجي .

الأنماط المختلفة لتاريخ العلوم :

إن العتبات المتعددة إنما تقضى بوجود صور متمايزة للتحليل التاريخى يوضحها فوكوه كما يلى : (٤٤)

أولا : تحليل تاريخى على المستوى الصورى ، وهو تاريخ الرياضيات الذى يعتمد على تحليل الإنابة une annlyse récurrentielle وفيه يتحدد كل مفهوم رياضى بالرجوع إلى مفاهيم أخرى سابقة عليه . أى أنه يتم من داخل العلم الذى وصل إلى المرحلة الصورية .

ثانياً : تحليل تاريخى على المستوى العلمى ، وفيه يظهر تكوين العلم ابتداء من أشكال معرفية مختلفة . وهنا يجيب المؤرخ بوجه خاص عن تساؤلات مثل : كيف تظهر تصور ما من تضمناته الخيالية ليصبح تصوراً علمياً ؟ وكيف يتحول مجال من الخبرة والممارسة المباشرة إلى مجال علمى ؟ وبصورة عامة كيف تظهر معرفة علمية فى مقابل مرحلة سابقة على العلم هى التى تمهد له وتعارضه فى نفس الوقت ؟

---

(٤٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٤٦ - ٢٤٧ .
(٤٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٤٧ - ٢٤٩ .

وقد اهتم باشلار Bachelard وكانجليهم Canguilhem بهذا النوع من التحليل التاريخى ، وهو يسمى «التاريخ الابستمولوجى للعلم» . وفيه يظهر التقابل بين الصواب والخطأ ، والعقلانى وغير العقلانى ، والعلمى وغير العلمى .

ثالثاً : التحليل التاريخى الذى يستهدف عتبة المعرفة ، أى نقطة الفصم point de clivage بين التكوينات المقالية وبين أشكال معرفية ليست علوماً ولن تصل أبداً إلى مرتبة العلم .

رابعاً : تحليل «الإبستميه» l' analyse de l'épistémé ، وهو يشمل تحليل التكوينات المقالية والوضعيات والمعرفة من حيث علاقاتهم بالأشكال الابستمولوجية والعلوم . أى أنه نمط للتحليل التاريخى يختلف تماماً عن الأنماط المتقدمة .

وقد يظن أن كلمة Epistémé تشير إلى حقبة تاريخية تضم جميع ألوان الثقافة السائدة وتفرض على كل لون منها نفس المعايير ونفس المسلمات . كما قد يظن أنها تشير إلى بناء معين للفكر يتصف به البشر فى حقبة معينة . غير أن فوكوه يؤكد أن «الإبستميه» ليست صورة للمعرفة أو نمطاً للمعقولية يشمل مختلف العلوم ويعبر عن وحدة الذات أو النفس أو العصر . « إنها مجموع العلاقات التى يمكن أن نكتشفها بين علوم مختلفة فى عصر معين وذلك عندما نحللها على مستوى الإطراد المقالى» (٤٥).

المعرفة والإيديولوجيا :

رأينا فيما سبق أن العلاقة بين العلم والمعرفة تختلف باختلاف التكوينات

---

(٤٥) نفس المرجع ، ص ٢٥٠ .

المقالية ، كما رأينا أن التحليل الأركيولوجي لا يسجل ما قد يكون بينهما من علاقة استبعاد exclusion بل إنه يكتفي بأن يبين كيفية انبثاق العلم عن عنصر المعرفة . وهنا تظهر علاقة الإيديولوجيا بالمعرفة والعلوم .

إن أثر « الإيديولوجيا » على العلوم ، أوماقد تتصف بهالعلوم من تأثير إيديولوجي ، لا يرد إلى ماقد يكون لها من تركيب مثالي كما لا يرجع إلى استخدامها تقنياً في المجتمع أو إلى تدخل ذوات الأفراد الذين يمارسون هذا الاستخدام ، بل إنه ينبثق تلقائياً ابتداء من ظهور العلم على قاعدة المعرفة . وهذا يعني أن مسألة الجانب الإيديولوجي للعلم هي مسألة وجود العلم ذاته باعتباره ممارسة مقالية ، وباعتبارما يربطه من علاقات بممارسات أخرى (٤٦).

وإذا كان من الممكن القول بأن الاقتصاد السياسي قد لعب دوراً في المجتمع الرأسمالي لأنه يخدم مصالح الطبقة البورجوازية التي أوجدته ، إلا أن أي تحليل دقيق للعلاقة بين البناء المعرفي لهذا العلم وبين وظيفته الإيديولوجية ينبغي أن يمر أولا بتحليل التكوين المقالي الذي أوجده ، وأيضاً بتحليل الموضوعات والتصورات والاتجاهات العامة التي تدخل ضمن نسقه .

وبناء على ماتقدم يلاحظ فوكوه ما يلي : (٤٧)

١ — إن الإيديولوجيا ليست نفياً للعلم . ومن ثم فإن العلوم التي يظهر بها جانب إيديولوجي مثل المقال الإكلينيكي أو الاقتصاد السياسي لا ينبغي أن ينظر لمنطوقاتها — لهذا السبب — على أنها خارجة على الموضوعية وبالتالي متناقضة أو خاطئة .

---

(٤٦) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٤٢ .
(٤٧) نفس المرجع ، ص ص ٢٤٢ — ٢٤٣ .

٢ — إن أى تناقض أو نقص lacuns أوعيب نظرى défaut théorique يمكن أن يشير إلى وجود دور إيديولوجي لأى علم (٤٨). كما أن تحليل هذا الدور ينبغى أن يكون على مستوى «الموضوعية» وأيضاً على مستوى العلاقات بين قواعد التكوين وبين البناء العلمى .

٣ — إن المقال بوجه عام لا ينفصم تماماً عن الإيديولوجيا نتيجة لتصحيح هذه الأخطاء . فالإيديولوجيا لها دور مستمر لا يتأثر باختفاء الزيف واطراد الصرامة .

٤ — إن التصدى للدور الإيديولوجي لعلم بهدف تغييره ، لا يعنى الكشف عما يمكن أن يتضمنه من افتراضات فلسفية ، بل إنه يعنى بالأحرى، إعادة النظر فيه كتكوين مقالى . وهذا لا يفترض التصدى إلى التناقضات الصورية لقضاياه ، بل إلى نسق تكوين موضوعاته ، ونمط منطوقاته وتصوراته واختياراته النظرية ses choix théoriques .
وسنرى فى الفصل القادم كيف ظهرت العلوم الانسانية على قاعدة المعرفة أو «الابستميه» الحديث .

---

(٤٨) «دور إيديولوجي لأى علم» ترجمة لعبارة :
Fonctionnement idéologique d'une science.

الفصل السابع

نظرة أركيولوجيا المعرفة للانسان

ويشمل :

- الإنسان فى الفلسفة المعاصرة .
- أركيولوجيا المعرفة ليست نزعة متشائمة .
- أركيولوجيا المعرفة والنزعات الإنسانية .
- الإنسان والعلوم الإنسانية :

  «ثلاثى المعرفة» Le trièdre du Savoir

- ظهور العلوم الإنسانية .
- طبيعة العلوم الإنسانية .
- موت الإنسان .

نظرة أركيولوجيا المعرفة للانسان

الإنسان فى الفلسفة المعاصرة :

يقول ميكيل ديفرن DUFRENNE

«إن الفلسفة المعاصرة لا تعتد بالإنسان ، كما أنها لا تتخذ منه موضوعاً للتفكير . وليس ذلك بسبب صعوبة خاصة تكتنف هذا الموضوع ، بل لأنها لا تعترف بوجوده أصلا . صحيح أنها تعترف بوجود كائنات انسانية ، أما فكرة الإنسان فهى خرافة نشأت عن أفكار جوفاء وأحكام سابقة» (١) .

والحقيقة أن الإنسان ليس موضوعاً للتفكير إلا بالقدر الذى يريده هو .وعلى ذلك فقد كان من الممكن تعريف الإنسان بأنه حيوان عاقل ، كما كان من الممكن أن ينسب إليه نفس خالدة ، أو أن تجعله يتبوأ مكاناً على قمة الخلق ، كما فعل اللاهوتيون ، أو — على النقيض تماما — تجعله «يسير على حبل مشدود فوق الهاوية» كما فعل نيتشة (٢).وهنا يتضح أن ماتؤكده النزعات الإنسانية ، وما تنسبه إلى «الإنسان» من خصائص ، وما تخصه به من فضل لايعدو أن يكون وهماً .

---

(1) Mikel DUFRENNE :, "La philosophie du néo-positivisme," in (Esprit, Mai 1967), P. 781.

(٢) يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة الحديثة» ، دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩ ، ص ٣٩٠ .

يقول فوكوه :

«إن الثقة بالدراسات الإنسانية إنما تضر بالفكر لأنها تصيبه بنوم جديد» (٣).

Faire crédit à l' anthropologie, c' est compromettre la pensée qui s'endort d' un nouveau sommeil.

ولا يخفي فوكوه غبطته لما جاء على لسان نيتشة من ظهور أعراض الانحلال لدى الإنسان الحديث ومن تبشيره بظهور الإنسان الأعلى ويقول :

«لقد أعمتنا الشواهد القريبة الخاصة بوجود الإنسان للدرجة أن ذاكرتنا قد نسيت العهد الذى وجد فيه العالم بما يشمله من نظام وكائنات إنسانية وغاب فيه الانسان . إننا لنفهم ما يحدثه تفكير نيتشة من دوى هائل وخاصة عندما يقرر أن الإنسان لم يعد شيئاً، وأن تفكيرنا الخالي عن الإنسان وما يسمى بالنزعة الإنسانية إنما يرقدان على نفي صارخ لوجوده » (٤).

وترى الباحثة آنجيل ماريتى أن فوكوه قد فهم ما لم يفهمه الكثيرون من معاصرينا عن النتيجة الحتمية التى يمكن أن تستخلص مما قدمه نيتشة وهى : أن الإنسان يفكر دون أن يترتب على ذلك أنه موجود (٥) .

---

(٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٢ . ولعله يقصد «بالنوم الجديد» ما يصيب الفكر من نزعات إيقانية . وهو «جديد» ربما بالقياس الى « النوم الأول» الذى أشار اليه كنط والذى أيقظه منه هيوم .

(٤) نفس المرجع ، ص ٣٢٣ .

(٥) Angèle MARIETTI : Op. cit., P. 19.

فالمفكر حائر باستمرار بين فكره وذاته . وهو انسان بشيء آخر خارج عنه : هذا الشيء هو الحياة التي يشترك فيها مع سائر الكائنات والثقافة الموجودة حوله . والمفكر لايستطيع أن يعرف ذاته أو يمسك بحقيقته إلا في ماض ولى وانصرم أو في مستقبل يتأجل باستمرار . فهو يبحث عن ذاته في التاريخ ، ثم لايلبث أن يطرأ عليه التغير والصيرورة . ولذا فإنه هو «الآخر» دائماً بالنسبة للاغيار وبالنسبة للذاته .

والإنسان إذا لم يكن اللغة التي يتكلمها أو العمل الذي يقوم به أو الحياة الموجودة في أعماقه ، فماذا يكون في النهاية ؟ إنه شيء غير متعقل impensé ، ولا يمكن التعبير عنه بالقول indicible كما أنه غير مرئي invisible .وهذا الشيء هو الذي اكتشفه فوكوه على أنه القاسم المشترك لكل إنسان معاصر . ويقول عنه : «إنه الشاطيء القاتم une plage obscure الذي يشير إلى منطقة عميقة في طبيعة الإنسان »(٦).

وهنا يبدو الآخر l' autre بالنسبة للانسان على أنه أكثر البناءات عمقاً وتأصلا . إنه موسيقى حقيقة في داخلنا ترنو إلى الظهور لكي تكون مرئية ومسموعة خصوصاً وأنها غير معرفة indéfinie. وغير معبر عنها inexprimée وطواها النسيان immémoriale. إن «الآخر» الذي نتحدث عنه هنا هو الانسان ذاته بعيداً عن الانغلاق الذي يسببه المجتمع وبعيداً عن تراكمات الثقافة ، وهو «الآخر » الذي لا تعترف به البناءات الاجتماعية التاريخية .

ويرى فوكوه أن مايهدف إليه الفكر المعاصر بعد الدراسات التي قام

---

(٦) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٧ .

ويرى فرانسوا فال أن «الغير متعقل» عند فوكوه يذكرنا بالشيء في ذاته L'en-soi عند هيجل ، والاغتراب aliénation عند ماركس ، والمتضمن l'implicite عند هسرل
F. WAHL : Op. cit. P. 367.

بها نيتشة وفرويد هو وأن يكشف القناع عن اللاشعور وأن ينغمس في صمته s'absorber dans son silence ، وأن ينصت إلى همسه الغامض»(٧) . كما يرى أن تبشير نيتشة بظهور الانسان الأعلى إنما يعني أولا وقبل كل شيء التنبؤ بموت الإنسان الراهن أي ظهور عتبة جديدة يمكن أن يبدأ منها الفكر الفلسفي المعاصر (٨) .

أركيولوجيا المعرفة ليست نزعة متشائمة :

تقول الباحثة آني جيدية GUEDEZ :

«إن فوكوه قد أراد من خلال «مولد العيادة» ، بعد «تاريخ الجنون» ، أن يضعنا أمام ذواتنا بعد أن أصبحنا مجرد «فتات» miettes وكأنما هو قد شاء لنا أن نصطحبه إلى أعماق الهاوية (أو الجحيم) حتى نرى — بعيون رءوسنا — كيف أن اتزاننا مزعزع دائماً أمام هاوية الجنون من جهة ، وهاوية الموت من جهة أخرى... أن اهتمام فوكوه بالطب ، وبالمرض ، وبالمريض ، إنما هو انشغال بالموت ، وبالكائن الفاني ، وبالذات المتلاشية ، وكأن لسان حاله يقول : «أنا الكائن الذي يموت ، أو «أنا الغائب الذي لا موضع له أمام صلابة الموت» ، أو «أنا ذلك الاختراع الحديث الذي تثبت أركيولوجيا الفكر أنه لا يرجع إلا إلى عهد قريب جداً» ؛

(٧) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٣٨ .
(٨) نفس المرجع ، ص ٣٥٣ .

وأنه ربما يعرف نهايته في مستقبل قريب أيضاً..» (٩) .

وقد ذكرت الباحثة هذا النص في مطلع الفصل الثاني من كتابها عن فوكوه وعنوانه «أركيولوجيا العلوم الإنسانية». كما كانت قد قدمت للفصل بعبارة للفيلسوف نيتشة تقول :

«في ركن سحيق من الكون الذي تتراءى أطرافه بين لمعان العديد من الشموس ، ظهر على سطح أحد الكواكب حيوانات ذكية اخترعت المعرفة . ولقد كانت لحظة الإختراع هذه هي أكبر ماشهده التاريخ الكوني من زيف وتبجح . غير أنها لم تكن سوى لحظة . إذ يكفي أن تتنهد الطبيعة لكي يفنى الكوكب وتموت الحيوانات الذكية »(١٠).

ويظهر لنا من التقديم الذي اختارته الباحثة للفصل ، ومن مطلعه ، أنها تهدف إلى إظهار فوكوه بمظهر الفيلسوف المتشائم الذي يسخر من الإنسان الراهن ومن مقدراته ، تماماً كما فعل الفيلسوف نيتشه .

غير أن الدارس المدقق سيدرك مبلغ عدم الدقة في معظم ماذهبت إليه الباحثة . كما سيدرك أن هدفها من الإثارة في مطلع فصل عن «أركيولوجيا العلوم الإنسانية» ، هو أنها كانت بصدد الكشف عما أثبته فوكوه من أن

(9) Annie GUEDEZ : Op. Cit., PP. 35—36.

والترجمة للدكتور زكريا أبراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٣٦ .

(10) NIETZSCHE, "Introduction théorétique sur la vérité et le mensonge dans un sens extranormal". In Le livre du philosophe, AUBIER-FLAMMARION.

Voir : Annie GUEDEZ, Op. cit., P. 35.

«العلوم الإنسانية» علوم هامشية تستند إلى الوهم وتتأرجح بين الأمبيريقية والصورية و لايغيب عنها التفلسف ولا تخلو من مخاطر ، فى حين أنها (أى الباحثة) تتخصص فى أحد هذه العلوم وتقوم على تدريسه بالجامعة (١١) .

فالزعم بأننا «لو ألقينا نظرة استرجاعية سريعة على كتاب فوكوه المسمى «مولد العيادة» ، لوجدنا أنه ليس مجرد دراسة علمية لتاريخ الطب ، ولا مجرد نقد كانتى للتجربة الطبية . بل هو شيء أكثر من تلك الدراسة الأركيولوجية للمعرفة الطبية ... لأن المؤلف قد شاء لنا أن نصطحبه إلى أعماق الهاوية ... »(١٢) ، نقول أن هذا الزعم قد انبنى عن «نظرة سريعة» حقاً ، لأنه يسقط من حسابه تماماً معظم الأهداف التى أوردها فوكوه نفسه فى مقدمة هذا الكتاب وفى خاتمته ، والتى ذكرنا تفاصيلها فى الفصل الخاص بنشأة الطب الحديث .

أما عن الاستعانة بنصوص نيتشة ووضعها على نفس المستوى إلى جانب نصوص فوكوه . فإنه قد لا يجافى الحقيقة كثيراً إذا كان ذلك بالقدر الذى يرتضيه فوكوه نفسه والذى أوردناه فى مواضع عديدة بهذا الكتاب . غير أنه من المؤكد أن فوكوه لم يخطر على باله إطلاقاً أن يستعين بالنص المتقدم ذكره عن «التبجح» الذى ارتكبته الحيوانات الذكية عندما اخترعت المعرفة .

إن فوكوه إنما يقوم بكشف متأن عن علاقة الإنسان بالعالم . فيبين كيف أن الانسان يرتبط بمبدأ اكتشاف الحقيقة ، بل كيف يرتبط بالحقيقة ذاتها إلى الدرجة

(١١) «آنى جيديه» هى مدرسة علم الاجتماع فى معهد التكنولوجيا بمدينة «تور» بفرنسا ، وربما كان الهدف الأساسى لكتيب الذى أصدرته عن فوكوه هو الدفاع عن العلوم الانسانية التى هاجمها هذا الأخير على نحو ما سيرد فى هذا الفصل .

(12) Annie GUEDEZ; Op. cit., P. 35.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢٥ .

التي يفقد فيها ذاتيته. ومن هنا يتضح لنا أن فوكوه لا يتنكر للانسان، بل إنه «ينكر فقط حق الذات في السيادة المطلقة» (١٣) . وهو يقول في حديث لإحدى المجلات الأدبية «إن بحثنا يريد إن يربط الإنسان بعلمه، وكشفه وعالمه» (١٤).

ويترتب على ما تقدم أن أركيولوجيا المعرفة ليست ضد الإنسان، بل هي ضد النزعة الإنسانية التي تلغى الفكر وتبقى على السطح وتستسلم لسبات عميق بعيداً عن إنجازات العلم .

أركيولوجيا المعرفة والنزعات الإنسانية :

إن «أركيولوجيا المعرفة» ، شأنها شأن جميع الاتجاهات البنائية ، لاتتحدث عن الإنسان ابتداء من «الكوجيتو» ، بل ابتداء من واقع علمى لايتناقض مع مسلماته .

يقول شيخ البنائيين ليفي ستروس :

> «في قرننا هذا ، حيث شرع الناس في تدمير العديد من صور الحياة ، فإن النزعة الإنسانية الجديرة بهذا الاسم لا تبدأ بالأنا ، بل إنها تضع العالم قبل الحياة، والحياة قبل الإنسان ، واحترام الكائنات الأخرى قبل محبة الذات» (١٥).

ونلاحظ أن هذه النزعة الجديدة تقف بلاشك في مواجهة النزعات الفردية التي دعمتها الفلسفة الوجودية والتي تكشف عما درج عليه الأوروبيون في

---

(١٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٧٢ .

(١٤) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦٨ .

(15) LEVI-STRAUSS : "L'Origine des manières de table",(Plon, 1968), P. 422.

حياتهم من أنانية وتفرد . وقد اكتشف ليفي ستروس أن ما انتهى اليه الوجوديون من أن «الجحيم هم الآخر ون» l' Enfer c' est les autres ، ليس قضية فلسفية ، بل هو شهادة اثنوجرافية عن حضارة منشقة على نظام العالم(١٦).

وباختصار ، فإن النزعة الإنسانية التي تضمنتها الأنثر وبولوجيا البنائية عند ليفي ستروس ليس فيها مكان للأنا .

وإذا انتقلنا إلى «أركيولوجيا المعرفة» ، فإننا نجد عبارة عند فوكوه يؤكد فيها تضامنه مع المفاهيم البنائية ويقول :

«حقاً لقد رفضت أن يرد المقال إلى الذاتية ... وقد كان هدفي أن أظهر تعدد المستويات الممكنة للتحليل وسط كثافة الأداء اللغوي : فقد أردت أن أبين أنه إلى جانب انجازات علم اللغة البنائي ، وبالاضافة إلى المناهج التي تقوم على التأويل interprétation ، أمكن إجراء وصف للمنطوقات وبيان لتكوينها وأيضاً وصف الإطراد الخاص بالمقال» .

ويستطرد قائلا :

«وإذا كنت قد أرجأت الحديث عن الذات ، فإن ذلك لم يكن بهدف الكشف عن أنماط formes تنصاع لها جميع الذوات في عصر معين ، بل لقد بينت على العكس تماماً كيف يمكن للبشر أن تتعارض آراؤهم داخل نفس الحقبة المنطوقية ، كما بينت

---

(١٦) راجع كتابنا « البنيوية في الأنثروبولوجيا » ، المؤلف ، نشر دار المعارف .

أن الممارسات المقالية تتميز عن بعضها بعضاً، وباختصار، لم يكن هدفي أن أستبعد إشكال الذات le problème du Sujet بقدر ما كنت أهدف إلى تعريف الأوضاع والوظائف التي يمكن أن تحتلها الذات في خضم أشكال المقال .

ثم يقول

«وأخيراً فإني لم أرفض التاريخ بل رفضت المقولة العامة والفارغة للتغير كي أفسح المجال لمستويات مختلفة للتحول» .

ويختتم حديثه في نفس الموضع قائلاً :

«ومن هنا ترون أني لم أتجاوز الحدود المشروعة التي إلتزمت بها البنائية» (١٧) .

وواضح من أقوال ميشيل فوكوه أنه قد إتخذ لبحثه مكاناً داخل المجال الذي تظهر فيه وتتشابك مشكلات الكائن الإنساني والشعور والذات بل ومشكلة البناء أيضاً . غير أن القرار الأول الذي إتخذه فوكوه في المجال النظري كان قراراً بإنهاء الخضوع الأنثروبولوجي les sujétions anthropologiques، أي والخضوع لذلك الطفل المدلل الذي شغل المسرح الفلسفي مدة طويلة ووقف حجر عثرة في وجه كل عمل جدي لأنه يتطلب إنتباهاً زائداً .

وشتان ما بين هذا القرار وبين محاولات الوجوديين التي يتضح منها إعجاب المرء بذاته ... وفيها يعزل الإنسان المعاصر نفسه ، ويستشعر نشوة

---

(١٧) فوكوه ، «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٦٠ — ٢٦١ .

للقابلية ، ويبتعد عن المعرفة العلمية التى يحتقرها وعن الإنسانية الحقة التى يجهل عمقها التاريخى ... لكى يظل داخل عالمه الصغير المغلق» (١٨) .

وإذا تعرضنا لأى موضوع فلسفى يتعلق بالإنسان ، وليكن مشكلة القلق مثلا ، لتبين لنا أن كيفية معالجة أسباب القلق عند سارتر وفوكوه ، هى أكبر دليل على بعد الشقة بين الطرفين .

فعند سارتر ، الإنسان هو مشروع يعيش لذاته ، وماهيته تتحدد بما شرعه هو لذاته . والذاتية تعنى الإختيار الحر . وهذا الإختيار يعنى بدوره نسبة قيمة معينة لما وقع عليه الإختيار (فنحن نختار الجانب الطيب دائماً) .

وجدير بالذكر أن مسئوليتنا فى الإختيار هى أكبر مما نتصور ، وذلك لأنه إختيار للانسانية جمعاء ، وهذا هو ما يفسر وجود القلق (١٩) .

أما أسباب القلق عند فوكوه ، فإنها تنبثق عن ذلك المجال الملموس الذى يظهر فيه المقال وتتواجد فيه قوى كثيرة متصارعة . فالمقال هو الإبن الشرعى للمؤسسات الإجتماعية institutions sociales وأولها اللغة . وهذه الأخيرة قد ظهرت مع الحاجة إلى التعامل بين أفراد المجتمع .

وإذا نشأ المقال عن هذه الحاجة الملحة وعن مؤسسة إجتماعية هى بمثابة القالب أو السياج institution qui encadre ، فإن هذه الثنائية هى التى تسبب القلق .

يقول فوكوه :

«إن مبعث القلق هو إحساس بأن النشاط اليومى إنما يخفى تحته ضغوطاً ومخاطر يصعب علينا تصورها

(18) LEVI-STRAUSS : "L'Homme nu" (Plon 1971), P. 572.

(١٩) راجع كتاب «البنوية فى الأنثروبولوجيا» ، للمؤلف ، نشر دار المعارف

> ومبعث القلق أيضاً هو أن العديد من الكلمات يمتلىء
> بمعان تشير إلى النضال أو النصر أو الجراح أو السيطرة
> أو العبودية رغم أن كثرة استخدامها منذ زمن سحيق
> قد قلل من فظاظتها» (٢٠).

ولما كانت المؤسسات الاجتماعية هي السياج الذى يحيط بالمقال : فمن الممكن أن نفهم إذن كيف أن وضعية المقال تحاط بسياج من الممنوعات Exclusions . «فنحن نعلم أنه ليس من حقنا أن نقول كل شيء ، كما أننا لا يمكننا أن نتحدث عن كل شيء مهما اختلفت الظروف ، وأخيراً فإن أى انسان لا يمكنه أن يتحدث عن أى شيء أيا كان» (٢١). ومن هنا كان القلق .

ويتضح مما تقدم أن «أركيولوجيا المعرفة» لا تقبل ما تدعيه النزعات الانسانية من حق الفرد فى الإعجاب بذاته وبقدرته على المبادأة والاختيار المسبب للقلق . ومع ذلك فهى لا تقوم على إلغاء الفرد تماماً لأنها تتحدث عن «محاولات» tentatives يقوم بها الأفراد بدلا من «مبادءات» initiatives . و«المحاولات» ليست عللا ، بل معلولات لتغيرات تطرأ على نطاق الوضعيات

---

(20) M. FOUCAULT : "L'Ordre du discours", (Gallimard, 1971), P. 10.

ويحضرنا بهذا الصدد قول بارت Roland BARTHES فى الكوليج دى فرانس — وهو من أقطاب البنائيين المعاصرين — :

«ان اللغة هى أداة اقتراب . وهى ليست وسيلة اتصال بقدر ما هى وسيلة اخضاع» .
Discourir n'est pas communiquer, ..., C'est assujettir.

راجع نص «الدرس الافتتاحى » لبارت بجريدة لموند الفرنسية الاسبوعية ، عدد رقم ١٤٧٢ فى ١٣يناير ١٩٧٧ .

(21) Ibid., P. II.

الموجودة positivités والتى ترتبط ببعضها البعض فى نوع من النظام غنى بكثرة علاقاته المعقدة والتى يحاول الأركيولوجى أن يكشف عنها (٢٢).

الأركيولوجيا إذن ليست ضد الذات ، بل بفضلها «أمكن الربط بين تحليل أوضاع الذات وبين نظرية تاريخ العلوم »(٢٣) Lier une analyse des positions du sujet à une théorie de l' histoire des sciences.

الإنسان والعلوم الإنسانية :

يرى فوكوه أن العلوم الإنسانية لم تتلق من العصر الكلاسيكي أى ميراث ، وذلك لسبب بسيط هو أن الإنسان لم يكن موجوداً فى ذلك العصر أو على الأحرى لأن علوم «الحياة» و«اللغة» و«العمل» لم تكن قد عرفت بعد (٢٤) - فالانسان لايمكنه أن يفكر فى ذاته إلاوهو مقود بفعل الحياة واللغة والعمل؛ أى ابتداء مما لديه من معرفة مسبقة عن الكائن الحى le vivant والكلمات les mots والانتاج la production

ولقد حدث الانتقال من العصر الكلاسيكي إلى العصر الحديث بعد أن فقد التمثل قدرته على تأسيس الروابط التى تربط بين عناصره المختلفة. وبعبارة أخرى ، فقد حدث القطع coupure بسبب عجز التمثل عن أداء وظيفته دون الرجوع إلى الشروط الخارجة عنه. وهذه الشروط هى العمل فى علم الاقتصاد، والتنظيم الداخلى للكائنات فى البيولوجيا ، وآليات اللغة فى الفيلولوجيا (٢٥).

الملك الغائب :

يعترف ميشيل فوكوه بأن مفهوم «الطبيعة الانسانية» ظل ثابتاً لقرون

---

(22) Angèle KREMER-MARIETTI : Op. cit., P. 158.

(٢٣) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٢٤) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٥ .

(25) F. WAHL : Op. : cit., P. 351.

عديدة . غير أن استخدام هذا المفهوم فى العصر الكلاسيكى إنما يشير إلى غياب الإنسان « كواقع أول ملموس réalité épaisse et première وكموضوع (مدروس) يصعب تناوله ، وكذات هى شرط كل معرفة ممكنة»(٢٦). ومن ثم ، فقد كان إنسان العصر الكلاسيكى جزءا من الطبيعة ، وكان ينظر اليه من هذه الزاوية فقط .

وتورد الباحثة آنى جيدية فى تصديق ذلك ما جاء على لسان جروتويسن Groethuysen من أنمبدأ«اعرف نفسك بنفسك» ، ومبدأ «اعرف الطبيعة» كانا متطابقين فى العصر الكلاسيكى . فالإنسان كائن طبيعى ، والمهم هو أن نكشف بداخله قوانين الطبيعة . وبهذا نطبق عليه كحالة جزئية ما نعرفه عن «الطبيعة» من قوانين عامة (٢٧).

لقد كان المدخل إلى «الإنسان» فى مفهوم فوكوه تفسيراً مطنباً ووصفاً دقيقاً للوحة فنية بعنوان «الوصيفات» les «Ménines» رسمها الفنان الأسبانى فيلا سكيه Vélasquez (١٥٩٩—١٦٦٠) (٢٨).

وقد ظهر على الجانب الأيسر من اللوحة رسام يمسك بريشته فى اليد اليمنى . ويظهر كأنه قد توقف فجأة عن العمل باللوحة الموجودة أمامه والتى تستند إلى «حامل» . كما يظهر وكأنه يتجه بنظراته إلى الأمام ليواجه موقفاً جديداً ترتب على ظهور شخصية هامة ليس لها مكان داخل اللوحة بل

---

(٢٦) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢١ .

(27) B. Groethuysen, "Anthropologie philosophique", (Gallimard, 1953). Citépar : Annie GUEDEZ, op. cit., P. 50.

(٢٨) خصص فوكوه الفصل الأول من كتاب «الكلمات والأشياء» لوصف هذه اللوحة ، والتعليق على ما تضمنته (من ص ١٩ الى ص ٣١) ، كما اشتمل الكتاب أيضا على صورة فوتوغرافية للوحة .

(ربما) خارجها فى المكان الذى يمكن أن يحتله أى مشاهد أو متأمل . أما بقية المساحة باللوحة فقد ظهر عليها الوصيفات وهن يحطن بالأميرة بعد أن ألبسنها أفخر الثياب ، ويتجهن بنظراتهن معها فى نفس الاتجاه المؤدى إلى الناظر . وتلمح فى العمق الأيمن للوحة انعكاس صغير على مرآة يكشف عن شخصية (الملك) ويبين أن الجميع كان بصدد استقباله . ويظهر الملك هنا على أنه العنصر المحرك لجميع عناصر اللوحة رغم عدم تواجده بداخلها .

وقد تركز تعليق فوكوه على شخصية (الملك) ، وذلك لما له من أهمية كبيرة رغم أنه غير ممثل باللوحة ، تماماً مثل إنسان العصر الكلاسيكى الذى كان يحكم عالما مليئاً «بالتمثلات» دون أن يكون «ممثلا» فيه .

لقد كان مجال المعرفة — فى العصر الكلاسيكى — متجانساً ، وذلك ابتداء من تحليل التمثل وحتى فكرة الرياضيات العالمية Mathesis Universalis . فكل معرفة أيا كانت تبدأ بإقرار التغاير كمبدأ للتصنيف ولإدخال عنصر النظام. وكان هذا يصدق على الرياضيات وأيضاً على علوم الطبيعة و«التكسينوميا» بمعناها العام» كما يصدق على المعارف غير اليقينية مثل عمليات التبادل échange والتفكير الفلسفى ذاته . وهذا الأخير كان يعتمد على تسلسل الأفكار ويبدأ من البسيط منها ثم يتدرج نحو الأكثر تعقيداً . وواضح لنا أن هذا المجال المعرفى فى مجموعه لم يكن يسمح بظهور الانسان (٢٩).

ثلاثى المعرفة : Le Trièdre des Savoirs

«والإنسان لم يظهر باعتباره «ذاتا» و «موضوعاً» لكل معرفة ممكنة ،

---

(٢٩) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٧ .
راجع أيضا خصائص العصر الكلاسيكى ، بالفصل الثالث .

لمجرد أن الممارسة المادية هى التى سمحت لمفكرى القرن التاسع عشر بأن يحددوا مضمون هذا الوعى الإنعكاسى أو التأملى ، بل لأن ثمة تصدعاً فى تنظيم المعرفة هو الذى جاء فيسر لهم مهمة «العقل» الإنسان ! (٣٠) فما هو هذا التصدع ؟ ..

إنه يعنى أن المجال المعرفى قد إتخذ مساراً جديداً ذا أبعاد ثلاثة بدلا من المسار القديم المتجانس ذى البعد الواحد . وسنرى أن المجال المعرفى الجديد رغم أبعاده الثلاثة التى تشمل علوماً إستنباطية وأمبيريقية وفلسفية ليس فيه مكان للعلوم الإنسانية ! .

يمكننا إذن أن نجد على البعد الأول علوماً مثل الرياضيات والفيزياء . وهى علوم مازالت تعترف «بالنظام» بأعتباره تسلسلا إستنباطيا (لقضايا واضحة أو محققة évidentes ou vérifiées) ، يسير فى إتجاه واحد linéaire .

أما البعد الثانى ، فيشتمل على علوم مثل علم اللغة والحياة والإنتاج وتوزيع الثروة . ويبدأ هذا البعد بالكشف عن عناصر غير متصلة إلاأنها متجانسة. وهو يربط بينها بعلاقات عليه ثابتة .

والتقاء هذين البعدين ينشأ عنه «مجال مشترك» un plan commun هو مجال تطبيق الرياضيات على علوم اللغة والبيولوجيا والإقتصاد ، أى العلوم الأمبيريقية بوجه عام .

والبعد الثالث هو الخاص بالتفكير الفلسفى ، وينشأ باعتباره حصيلة

---

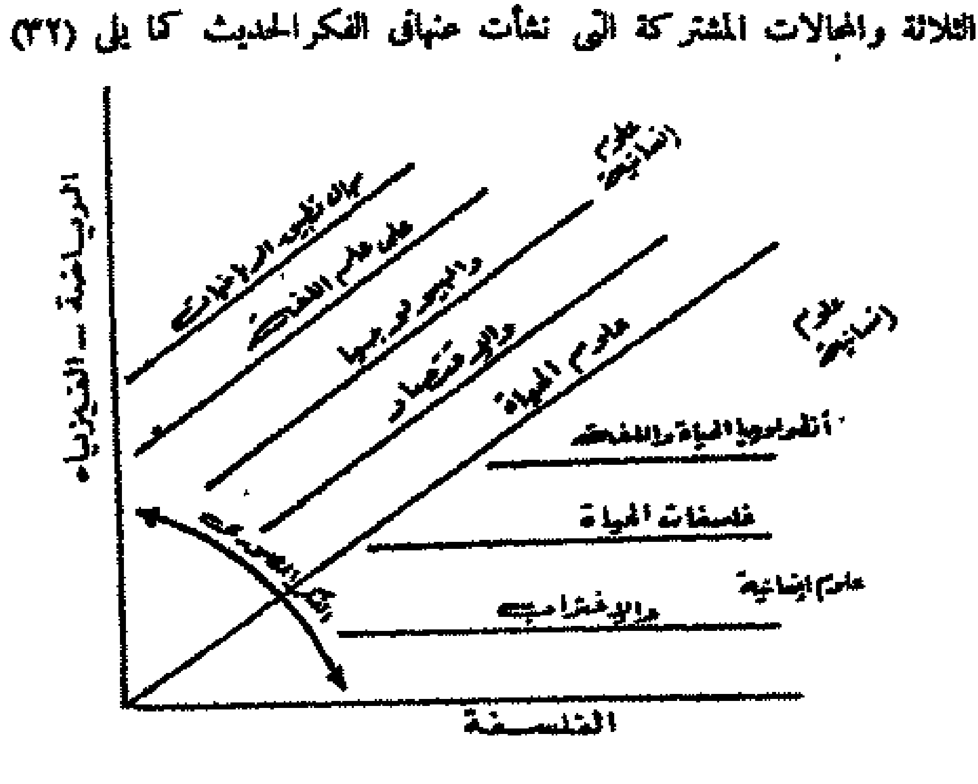
(30) Annie GUEDEZ : Op., cit., P. 51.

والدكتور زكريا ابراهيم : مشكلة البنية ، ص ١٠٣ .

تفكير معبر عن الذاتية . qui sedéveloppe comme pensée du Même .
وهذا البعد يكون (مجالا مشتركا) بأشتراكه مع علوم اللغة والبيولوجيا والأقتصاد . فتظهر فلسفات الحياة ، والإنسان المغترب l'homme aliéné او فلسفات الصور الرمزية des formes symboliques ، كما تظهر فلسفات وأنطولوجية تتساءل عن كينونة الحياة والعمل واللغة .

والبعد الفلسفي يكون أيضاً ـ بأشتراكه مع العلوم الرياضية ـ مجالا ثالثاً هو صورية الفكر (أو الفكر الصوري) (٣١) .la formalisation de la pensée

وقد قامت الباحثة آني جيدية بعمل هذا الرسم البياني الموضح للأبعاد الثلاثة والمجالات المشتركة التي نشأت عنها في الفكر الحديث كما يلي (٣٢)



(٣١) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٨ .
(32) AnnieGUEDEZ : op. cit., P. 54.

« يتبين من هذا الرسم البياني أن العلوم الانسانية لا مكان لها داخل ثلاثي المعرفة هذا Ce trièdre épistémologique ، إذ أننا لا نجدها في أي بعد من أبعاده الثلاثة ، كما أننا أيضاً لا نجدها ممثلة على سطح أي من المجالات المشتركة. وهي إن وجدت مع ذلك فلأنها تتسلل من خلال الفجوات أو الفتحات التي تتركها المعارف الأخرى المتكونة من ذي قبل » . وهذا يجعلها على صلة مع جميع صور المعرفة سابقة الذكر .

والعلوم الإنسانية تشرع الآن في استخدام الفكر الصوري الرياضي كما تلجأ إلى نماذج وتصورات تستعيرها من البيولوجيا والاقتصاد وعلوم اللغة. وأخيراً، فإنها تخاطب نمط الإنسان الذي أنتجه التفكير الفلسفي على مستوى التناهي(٣٣).

وهنا يظهر لنا أن العلوم الإنسانية تشكل خطراً دائماً بالنسبة لأشكال المعرفة المختلفة . فالعلوم الاستنباطية والتجريبية والفلسفية إذا لم تحافظ على أبعادها ومسارها فإنها تنزلق إلى «متاهات » العلوم الانسانية . وهي قلما تحافظ على هذه الأبعاد وذلك المسار بسبب صعوبة تكوين المجالات المتوسطة أو المشتركة . لذا ينبغي أن نواظب على فحص علاقات الفكر الصوري ، وأن نحلل جيداً كينونة الحياة والعمل واللغة .

يقول فوكوه :

«إن الانزلاق إلى « الأنثروبولوجيا » هو أكبر خطر يهدد المعرفة من داخلها » (٣٤)

l' «anthropologisation» est le grand danger intérieur du savoir.

ويقول :

لقد تحرر الإنسان من ذاته بعد أن اكتشف أنه لم يعد

(٣٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٨ .
(٣٤) نفس المرجع السابق ، ص ٣٥٩ .

مركز الخليقة Centre de la création ، أووسط الكون أو على قمة الحياة . وإذا صح أن الإنسان لم يعد حاكماً لمملكة العالم ... فإن العلوم الانسانية هي وسائط خطرة dangereux intermédiaires في مجال المعرفة »(٣٥).

إن ما يفسر الصعوبات التي تواجهها العلوم الانسانية (عدم توفر اليقين فيها كعلوم ، واستنادها إلى مجالات أخرى للمعرفة ، ومالها من طبيعة ثانوية ومشتقة) ،» ليس تعقد موضوعها وكثافته ، أو اتصافها بطابع ميتافيزيقى ، أو استنادها إلى موجود زئبقي لا يكف عن العلو على نفسه ، بل السبب هو تعقد التنظيم الابستمولوجي الذى توجد في اطاره من جهة وطبيعة العلاقة التي تربطها بالأبعاد الثلاثة المكونة لصميم مجالها من جهة أخرى » (٣٦).

ظهور العلوم الإنسانية :

يرى فوكوه أن العلوم الإنسانية لم تظهر تحت ضغط مذهب عقلاني ، أو تحت تأثير مشكلة علمية لم تحل ، أو لمصلحة عملية ، بل إنها ظهرت بعد أن فرض الإنسان نفسه على الثقافة الغربية باعتباره موضوعاً ينبغي أن يستحوز على التفكير والمعرفة .

ولاشك في أن كل علم من العلوم الإنسانية قد ظهر للتصدى لمشكلة معينة ، أو لضرورة ملحة أو لمعضلة نظرية أو عملية . فمثلا ظهر علم النفس في القرن التاسع عشر بعد ظهور المجتمع الصناعي وما تبع ذلك من الحاجة لعمل معايير ومقاييس جديدة للأفراد وفقاً لمقتضيات العمل في المجتمع الجديد . كما ظهر

---

(٣٥) نفس الموضع .

(٣٦) نفس الموضع ، وترجمة النص للدكتور زكريا ابراهيم ، «مشكلة البنية» ، ص ١٥٥ .

التفكير فى علم الاجتماع فى أعقاب الثورة الفرنسية بسبب الإحساس بخطر التغيرات الجديدة على التوازن الاجتماعي . غير أن فوكوه لا يبحث فى تلك التغيرات «السطحية» التى صاحبت ظهور هذه العلوم، بل هو على الأحرى، يبحث فى واقعة محددة un fait précis ، وهى «أنه للمرة الأولى منذ أن ظهرت الكائنات البشرية التى تعيش فى مجتمعات ، أصبح الإنسان موضوعاً للعلم»(٣٧). ويرى فوكوه أن هذه «الواقعة» ليست مجرد ظاهرة ، بل هى حدث فى نمط المعرفة C' est un événement dans l'ordre du savoir (٣٨). وهذا الحدث كان على علاقة «بالابستميه». «فا لكائنات الإنسانية قد تركت مجال التمثل ومكنت فى أعماق الحياة ونمط الانتاج والتراء وصيرورة اللغات»(٣٩). ولهذا كان من الضرورى فى هذه الظروف أن تظهر المعرفة العلمية للإنسان ظهوراً طفيلياً على نفس الأرض التى أنبتت البيولوجيا والاقتصاد والفيلولوجيا .

ولقد ترتب على هذا الحدث أن أصبح الإنسان هو الكائن الذى تتكون ابتداء منه كل معرفة . كما أصبح هو الذى يسمح بالنظر فى كل معرفة تتعلق بالإنسان، أى أننا وجدنا أنفسنا فجأة أمام موضوع مدروس object هو فى نفس الوقت موضوع دارس أو «ذات» Sujet . كما وجدنا أنفسنا نصطدم لأول مرة بألفاظ مثل «المشاهد المنظور» Spectateur regardé و«الملك الخاضع» Souverain soumis(٤٠) . ومن هنا كانت هذه الخصومة المتبادلة contestation والتى تكمن خلف الحوار المستمر بين العلوم الإنسانية وبين بقية العلوم . فالأولى

---

(٣٧) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٥٦ .

(٣٨) نفس الموضع .

(٣٩) نفس الموضع .

(٤٠) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٢٣ .

تزعم أنها تؤسس الثانية ، وهذه الأخيرة تحاول دائماً أن تبحث عن أصولها وأن تبرر مناهجها بعيداً عن نظريات علم النفس وعلم الاجتماع والتاريخ .
وقد كان من مظاهر هذه الخصومة أيضاً ذلك التنافس بين الفلسفة والعلوم الانسانية . فالفلسفة تشكك فى الأسس الساذجة التى قامت عليها العلوم الإنسانية ، وهذه العلوم تطالب بالبحث فى موضوعات كانت قديماً تدخل ضمن مباحث الفلسفة (٤١)..

طبيعة العلوم الإنسانية :

إن العلوم الانسانية لم تكن لتهتم بالانسان الا بقدر ما هو كائن عائش ، يتحدث لغة ، ويقوم بنشاط إنتاجى . لذا فقد قامت هذه العلوم على هامش علوم الحياة واللغة والاقتصاد (أو العمل) . ولكن ، أليست هذه الأخيرة علوما إنسانية ؟ .

يجيب فوكوه عن هذا التساؤل بالنفى (٤٢) . فالبيولوجيا تهتم بكائنات حية كثيرة غير الانسان . كما أن عملها يتحدد بدراسة الوظائف البيولوجية . فى حين أن موضوع العلوم الإنسانية لا يتحدد الا حين تنطلق التمثلات الصادقة أو الكاذبة ، الواضح منها والغامض ، والتى يمكن ملاحظتها بطريق مباشر أو غير مباشر . وعلى هذا ، فإن البحث فى تشريح مراكز اللغة بالمخ لا يدخل فى نطاق العلوم الانسانية . كما أن البحث فى العلاقة بين المراكز المختلفة للتكامل اللغوى داخل المخ (وهى المراكز السمعية والبصرية والحركية) لا يدخل كذلك ضمن نطاق العلوم الانسانية .

---

(٤١) فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٣٥٧ .
(٤٢) فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٣٦٣ .

يقول فوكوه :

«إن الانسان ، بالنسبة للعلوم الانسانية ، ليس ذلك الحي الذى يتميز بمظهر معين وتركيب فسيولوجي خاص ، وتفرد فى المبادأة والاستقلال ، إنه ذلك الحي الذى يكون من خلال حياته التى تكتنفه تمثلات يعيش بفضلها ، كما أنه يمتلك بفضلها أيضا تلك القدرة العجيبة التى تمثل الحياة بكفاءة» (٤٣) .

وعلى الرغم من أن الإنسان هو الكائن الوحيد الذى يتكلم ، إلا أن دراسة التحولات الصوتية les mutations phonétiques والقرابة بين اللغات la parenté des langues لا تدخل بأى حال فى نطاق العلوم الانسانية . فهذه العلوم يمكنها أن تتساءل فقط عن طريقة تمثل الكلمات لدى الأفراد أو الجماعات باعتبارها الوسيلة الوحيدة للتعبير عما يجول بخواطرهم .

إن موضوع العلوم الإنسانية إذن ليس اللغة ، بل هذا الكائن الذى يتمثل فى أحاديثه معانى الكلمات أو القضايا التى يصيغها ثم ينتهى به المطاف بأن يتمثل اللغة ذاتها (٤٤) .

أما فيما يختص بعلم الاقتصاد ، فإنه ليس علماً إنسانياً رغم أن الانسان هو الكائن الوحيد الذى اشتهر بتبادل منتجاته . ولذا فإن موضوع العلوم الإنسانية ليس ذلك الإنسان الذى عرف العمل منذ فجر البشرية ، بل هو ذلك الكائن

---

(٤٣) نفس الموضع .
(٤٤) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٦٤ .

الذى يتمثل حاجاته وحاجات مجتمعه ابتداء من صور الإنتاج التى تحدد نمط وجوده ، ثم ينتهى به المطاف بأنه يتمثل الاقتصاد ذاته (٤٥) .

ويتضح مما تقدم أن «العلوم الإنسانية ليست تحليلا لطبيعة الإنسان بل هى تحليل يمتد بين الماهية الوضعية للانسان (كائن حى يتصف بالعمل والقدرة على الكلام) ، وبين ما يسمح له بمعرفة معنى الحياة وماهية العمل وقوانينه والطريقةالتى يتحدث بها» . كما يتضح أن «العلوم الانسانية تحتل تلك المسافة التى تفصل البيولوجيا والاقتصاد والفيلولوجيا عن شرط إمكانها فى كينونة الانسان ذاته» (٤٦) .

ولهذا كله يرى فوكوه أنه لمن الخطأ أن نجعل العلوم الإنسانية إمتداداً للآليات البيولوجية أو أن ندخل علوم الاقتصاد واللغة ضمن نطاق العلوم الانسانية خصوصا وأن الاتجاهات المعاصرة إنما تحاول أن تنشىءعلوم لغة واقتصاد مستقلة تماما وخالصة pures (٤٧) .

وإذا أردنا أن نلخص فى كلمات قليلة ما سبق أن ذكرنا عن طبيعة العلوم الانسانية ، فاننا نقول أنها ليست علوما بمعنى الكلمة لأنها تتخذ لنفسها موضوعا هو نفسه شرط لوجودها . كما أنها فى وضع متضاعف (أو متكرر) dans une position de redoublement : فهى لا تدرس الحياة أو العمل أو اللغة حيث تكون فى قمة وضوحها وشفافيتها ، بل تدرسها فى هذه الطبقة من السلوك cette couche des comportements

(٤٥) نفس الموضع .
(٤٦) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٦٥ .
(٤٧) نفس الموضع .

والاتجاهات attitudes والحركات gestes التي سبق أن كتبت أو نطقت . أي أنها في وضع يسميه فوكوه «وراء المعرفة» une position « méta - épistémologique » ، أي الوضع الذي يؤكد تناهي الانسان sa finitude ويزج به في النسبية relativité .
ويتردد فوكوه في استخدام المقطع اليوناني «méta-» ، ويفضل استبداله بمقاطع أخرى مثل «ana-» أو «hypo-» كي يعبر عما تتصف به العلوم الانسانية فعلا من عدم دقة inexactitude وعدم تحديد imprécision (٤٨) .

موت الإنسان :

«بيد أن فوكوه لا يقف عند هذا الحد ، وانما هو يقرر أيضا أن تلك المعرفة الجديدة التي ظهرت بظهور «الانسان» — في القرن التاسع عشر — إنما هي بعينها التي سوف تجهز عليه ! وآية ذلك أن «الفرد» الذي كان من قبل موزعا بين «علم الفيزياء» و «علم الأحياء» ، لن يلبث أن يفقد ذلك القدر الضئيل من «الهوية» الذي بقي له ، بسبب توزعه بين فروع مختلفة من المعرفة : ألا وهي علم النفس ، وعلم الاجتماع ، والانثولوجيا ، والتحليل النفسي ، وهي تلك المعارف التي تتقاسم فيما بينها رفاته ، زاعما كل منها لنفسه أن الجثة التي بين يديه هي الحقيقة بعينها ! » (٤٩) .

وهنا تقوم الباحثة آني جيديه بعمل مقارنة بين فوكوه ونيتشه فتقول :

«قد يكون هناك موضع للحديث عن تشابه بين كل من
نيتشه وفوكوه : لأن الأول منهما قد نادى بـ«موت الاله» ،

---

(٤٨) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٦٦ .

(49) Annie GUEDEZ : Op. Cit., P. 58.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٥٨ .

بينما نجد أن الثاني منها قد أصبح ينادي اليوم بـ «موت
الانسان» ! ولكن على حين أن نيتشه كان هو «القاتل»
الحقيقي للألوهية، فقد لا يكون في وسعنا أن نقول عن
فوكوه أنه هو « القاتل» الحقيقي للانسان ! وآية ذلك أن
«الفرد العيني » الذي أسهمت علوم الاقتصاد ،
والأحياء، واللغة، في تنصيبه، حينا ما من الزمن ، عند
آفاق معرفتنا ، قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من
الموت، إذ دب فيه الانحلال بمجرد ظهوره، تحت تأثير
تلك الضربات المتلاحقة من «التجريد» ! (٥٠) :

والحقيقة أن فوكوه لم يكن أول من تحدث عن «موت الانسان» . إذ يرى بيير بيرجلن Pierre BURGELIN أن هذا الإصطلاح قد ظهر عند جان جاك روسو في « مقال له عن عدم المساواة » Discours sur l' inégalité عندما كان يناقش القضية الديكارتية الشهيرة «أفكر فأنا موجود» . ورأى روسو أن «معرفة الانسان هي أكثر المعارف البشرية نفعا وأقلها تقدما» لأننا نتعلم النظر للإنسان بالقدر الذي يرتضيه هو أي عن طريق الثقافة . والمعرفة هنا لا تشير إلى وجود existence بل هي تشير بالأحرى الى ظهور apparition . ويمكننا أن نجد اصطلاح « موت الانسان» أيضا عند مين دي بيران De Biran ، كما يمكننا أن نجده كذلك عند كيركجارد (وهو يدحض عقلانية هيجل . وفي كل مرة كان الاصطلاح يعبر عن قلق حيال اضطراد نمو الثقافة . هذا بالاضافة إلى أن

(50) Annie GUEDEZ : op. Cit., P. 59.

والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٥٩ .

علوم اللغة والانتوجرافيا تعلمنا أننا خاضعون لقوانين لا نعلم عنها شيئا ، وكذلك علوم التحليل النفسي التي تكشف عن جهلنا بذواتنا . وفي النهاية يجد الانسان نفسه منقادا — بواسطة قوة غفل anonyme — إلى مصير محتوم : نحو حضارة علمية وتقنية تضع شروطا للوجود ، كما تصنع البشر الذين عليهم أن يتأقلموا مع هذا الوجود (٥١) .

وقد اقترب فوكوه من هذا المعنى الأخير «لموت الانسان» وذلك في أحاديث عن معنى السلطة Pouvoir . فهو يرى أنه في زمن مضى من تاريخ البشر ، كان الملوك ينفردون بالسلطة ويقتلون المناوئين لهم . أما المجتمع المعاصر فإنه لا يقتل وإنما يحرص على الحياة . فتكثر مؤسساته وبالتالي يمارس سلطة غير مرئية يضطر الإنسان إلى الخضوع لها في كل تحركاته حتى يكاد يفقد ذاته ويموت(٥٢) . ولقد كانت اللغة هي أقوى المؤسسات في المجتمع المعاصر . يقول فوكوه :

> «إذا كانت اللغة تلح الآن في الظهور كوحدة تعذر علينا فهم كينونتها كلما لمعت لنا في الأفق ، أليس في هذا علامة على تقوض النظام بأكمله وعلى أن الانسان في طريقه الى الفناء» ؟ (٥٣) .

---

(51) Pierre Burgelin : l'Archéologie du Savoir", in (Esprit, Mai 1967)

(52) Roger-Pol Droit : "Le Pourvoir et le Sexe", in (Le Monde Hébdo., No. 1477, du 17 Février 1977).

(٥٣) فوكوه : «الكلمات والأشياء» ، ص ٣٩٧ .

تقييم وتعقيب

نناقش فى هذا الجزء الأخير من البحث مكانة «الأركيولوجيا» بين الأعمال الفلسفية المعاصرة . وهى مهمة ليست يسيرة خصوصا وأن المنهج الأركيولوجى لا يتمشى مع ما ألفناه فى عاداتنا الابستمولوجية القديمة ؛ كما أنه يتضمن نفيا للفكر المتجاوز ، وإنكارا لدور المؤلف ، وإحباطاً لكل محاولة تستهدف الارتداد إلى أصول أولى . ولهذا كله : فإننا سنبدأ أولا بفحص دقيق ينصب على تلك «الأركيولوجيا» من داخلها ويتناول ما اشتملته من أهداف وما حققته من نتائج .

لقد كانت «الأركيولوجيا» فلسفة علمية تقدم للعلم ما يستحقه من فلسفة أو تعطى الفلسفة التى لا تسخر من مقدرات العلوم . وهى فى هذا تبتعد تماما عن تأثيرات الفلسفة المثالية بكل ما يترتب عليها فى مجال المعرفة .

وتحت تأثير علوم حديثة ، مثل التحليل النفسى وعلم السلالات ، بدأ العقل يخضع لغزو «اللامعقول» . وبدأ الإنسان — هذا الكائن العاقل الحر — فى الاختفاء تدريجيا . فجاك لاكان (المحلل النفسى الشهير) يكتب عن «الهو» le «cela» الذى يتحدث من خلالنا . وليفى ستروس يدرس ظهور الفكر الأسطورى داخل النفس الإنسانية وفى غفلة منها ، وهو يثبت ذلك بأدلة علمية تؤيدها الوقائع الأمبيريقية . ولم يشذ المقال الفلسفى (عند فوكوه) عن هذا الاتجاه ، إذ أنه استهدف البحث عن عناصر البناء الثقافى السائد فى الحقب المنطوقية المختلفة واقتصرت مهمته فقط على وصف المقول ce qui est dit دون إقحام الذات .

كيف يمكن إذن أن يؤخذ على فوكوه أن «تعاقب» الابستيمات عنده مجرد ظاهرة «لا معقولة» ، يستحيل معها استنباط الابستيمات بعضها من البعض الآخر ، لا بطريقة صورية ولا حتى بطريقة جدلية ؟ وكيف يمكن

القول بأن «العقل عند فوكوه يتغير دون أى سبب أو مسوغ عقلى ، وأن بنياته تظهر وتختفى بفعل تحولات اتفاقية (أو عرضية) بحتة» ؟ أو القول بأن «التحليل الأركيولوجى يبدو عاجزا عن تصور القطع وتفسيره» . (١) ويظهر لنا من هذه الاعتراضات أنها تطالب «بالتفسير» و «الاستنباط» ، وهى عمليات لم يتضمنها منهج فوكوه لأنه يقتصر فقط على وصف المقول ويرفض تماما ادخال الذات المفسرة شأنه فى ذلك شأن جميع البنائيين . صحيح أن البناءات الأنثروبولوجية واللغوية يمكن أن يستنبط بعضها من البعض الآخر لأنها تتصف بالبداهة والثبات ، بيد أن هذه الصفات لاتنسب إلى «الابستيمات» لأن هذه الأخيرة تتكون من أحداث ملموسة كما أنها دياكرونية diachronique أى لا تستبعد حركة التاريخ .

أما عن تصور «القطع» وتفسيره ، فإن الأركيولوجى يقتصر عمله على رصد العناصر المتغيرة التى كونت الابستمية . فالإبستمية الحديث مثلا قد صاحبه تحرر الإنسان من الامتثالات التى خلقها فحجبت عنه العالم والأشياء، كما صاحبه تحرر الانسان من الكوجيتو وما يفرضه من أحلام وأوهام ، ثم حدث التقدم الهائل للمعرفة العلمية بعد أن أصبحت العين هى مبدأ الوضوح وبعد أن استحالت قراءة الواقع إلا بأعين مفتوحة . ونحن نتفق مع جيل ديلوز DELEUZE فى قوله :

«ينبغى أن يذكر المتباكون على التاريخ (يقصد الاتصال التاريخى) والذين يحتجون لعدم تحديد مفهوم «التحول»

---

(1) Annie GUEDEZ : Op. cit., P. 68.
والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦١ .

Mutation ، حيرة المؤرخ الحقيقى عندما يكون
بصدد تفسير ظهور النظام الرأسمالى مثلا فى مكان
وزمان ما رغم أن كثيرا من العوامل تجعله ممكنا فى
أزمنة وأمكنة أخرى» (٢) .

ومن هذه العبارة يتضح أن علامات استفهام كثيرة تنتصب أمام الكثير من عمليات التحول دون أن يتمكن المؤرخ من تنحيتها إلا بثمن استسلامه لاجتهادات ذاتية تبتعد عن العلم . كما يتضح بالتالى ضحالة الاعتراضات السابقة التى وجهت لفوكوه .

وهناك من يقول أن البنائية الثقافية عند فوكوه هى «بنائية بدون بناءات» (٣) . ونحن نعرف أن هذه البناءات الثقافية هى «الإبستيمات» les épistémé ، وهى كما ذكرنا آنفا لا تتصف بما تتصف به البناءات الأنثروبولوجية أو اللغوية من بداهة أو ثبات . يقول فوكوه : «إن الإبستميه ليس صورة معرفية تتصف بالثبات . تظهر مرة واحدة ثم تنقشع فجأة . إنها – على الأحرى – كل ديناميكى يتكون من علاقات ... يمكنها أن تسمح بفهم عوامل الضغط contraintes والتحديد des limitations التى تفرض على المقال فى فترة زمنية معينة» (٤) .

وبالقياس إلى البناء الأنثروبولوجى الذى هو مبدأ الظاهرة والمبدأ

(2) Gilles DELEUZE : "Un Nouvel Archiviste" Op. cit., P. 209.

(3) Jean PIAGET : "Le Structuralisme" , op. cit., P. 108.
والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦١ .

(٤) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥٠ .

المفسر لها فى نفس الوقت (كما بينا فى المقدمـــة) ، قد يظن ــ خطأ ــ أن «الابستيمات» لها وظيفة سلبية فقط . وهنا يؤكد فوكوه أن «المجال الابستمولوجى» أو الابستميه هو الذى يبرر وجود أشكال المعرفة المختلفة والعلوم السائدة فى حقبة منطوقية معينة (٥) . كيف يمكن الزعم إذن «بأن المجال الإبستمولوجى» أو الابستميه هو « بنية لا تحيل إلا إلى ذاتها دون أدنى أشارة إلى «الواقع» الذى يقابلها»! (٦) .

وإذا كان الابستميه هو شرط وجود المعرفة والعلوم السائدة، فهل يمكن التقريب بين فوكوه وكنط بحيث نعتبر المجال الابستمولوجى «مجموعا من المقولات الموضوعية القبلية» ؟ وهو ما زعمه البعض (٧). وقد تصدى لهم فوكوه بقوله :

«إن تحليل الابستميه ليس محاولة لاحياء الفلسفـــة النقدية التى تتساءل عن مشروعية علم موجود بالفعل ، أى عن حقه فى الوجود كعلم ، بل إن هذا التحليل إنما يذهب إلى أبعد من ذلك فيسأل عن واقعة وجود العلم ذاتها ... إن ما يجعل هذا التحليل مخالفا لجميع فلسفات المعرفة هو أنه لا يرد وجود العلم إلى هبة أزليـــة une donation originaire تؤسس العلم ومشروعيته

---

(٥) فوكوه ، نفس المرجع ، ص ٢٥١ .

(٦) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٤٦ .

(7) Annie GUEDEZ : Op. cit., P. 84.

والدكتور زكريا أبراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٢٣ .

داخل ذات متسامية . بل إنه يرد هذا
الوجود إلى عمليات الممارسة التاريخية» (٨) .

ونلاحظ من هذا النص أن فوكوه لا يستبعد التاريخ تماما ، وهو فى ذلك يفترق عن سائر البنائيين . (فقد كان ليفى ستروس يرى أن الزمان «سلسلة تعبر العصور ، يتكون البشر من حلقاتها ، وتتصف بالثبات أى لا تعرف التقدم») .

وأخيرا فقد زعم أحد النقاد أنه لما كان «الإبستميه» مفهوما غامضا وغير محدد ، فإن فوكوه يتخلى عنه فى كتابه المنهجى المسمى «أركيولوجيا المعرفة» (٩). ونحن إذا تصفحنا الكتاب المذكور ، فإننا لا نجد فيه عبارة واحدة تشير إلى هذا التخلى ، بل نجد على العكس عبارات تقارن بين تحليل الابستميه وبين الفلسفة النقدية مثل العبارة المذكورة آنفا .

إن مفهوم «الابستميه» يظل إذن من الدعامات الأساسية فى فلسفة فوكوه لأنه هو البناء الثقافى الذى يبرر استمرار فوكوه فى دائرة البنائيين . أما التساؤل المشروع الذى يتبادر إلى الذهن فهو : لماذا يصر فوكوه على استخدام كلمة «ابستميه» بدلا من كلمة «بناء» ؟

ونرى أن الاجابة عن هذا السؤال ذات شقين الأول هو مالاحظه فوكوه نفسه من أن كلمة بنائية وبناء » يتشدق بها الآن كثير ممن لا يعملون ... فهبطت إلى مستوى السوقة ورجل الشارع » (١٠) . إذ يستخدمها رجل

(٨) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٥١ .
(٩) الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٦٢ .
(١٠) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة » ، ص ٢٦١ .

الأعمال والنقابي وعالم الاقتصاد والمربي والنحوي والناقد الأدبي والمخرج السينمائي ورجل الإعلام والقصاص ومصمم الأزياء . والثاني هو أن فوكوه لايتفق مع أقطاب الإتجاه البنائي في تعريف «البناء» كما سبق أن قدمنا لأنه يرفض مادرج عليه هؤلاء من التمسك بالتقابل Opposition بين البناء والصيرورة .

يقول فوكوه :

«إن التقابل بين البناء والصيرورة لايخدم تعريف المجال التاريخي ، كما أنه كذلك لا يخدم تعريف المنهج البنائي » (١١) .

وهذا يعني أن فوكوه في منهجه الأركيولوجي إنما يأخذ مركزاً وسطاً بين ليونة وديناميكية التاريخ من جهة وبين جمود البناء وتحجره من جهة أخرى . ولهذا يخطىء من يظن «أن في نظرة فوكوه إلى المجال الابستمولوجي نزعة مكانية ، جامدة ، متحجرة ، تفصل بين المجالات المختلفة بإقامة حدود حاسمة مطلقة بينها ، وكأن البنيات تعمل بطريقة آلية جامدة» (١٢). كما يخطىء من يظن كذلك أن فيلسوفنا «كان متحيزاً بشكل تعسفي واضح للبنية على حساب المتغيرات(١٣)» . وربما كان مبعث هذا الظن هو الخلط بين مفهومي «البناء» و«الابستميه» . فالبناء هو مجموع منظم un ensemble organisé ومنتظم régulier ، ومنسق systématisé ، ويتكون من ظواهر مترابطة تعتمد على بعضها بعضاً ،

---

(١١) نفس المرجع ، ص ٢٠ .

(١٢) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣٩ .

(١٣) نفس المرجع ، ص ١٤٠ .

وتتعسف علاقاته بالثبات permanence. وهو لذلك يقف في مواجهة الزمان والتاريخ. أما الابستميه فهو حشد assemblage وتركيب architecture، وواقع يحمله الزمان ، ويقتصر عمل أركيولوجيا المعرفة على وصف تكوين وتفتق هذه الابستيمات ، دون أن تتدخل لشل حركتها .

ويرى جيل ديلوز Deleuze أن عدم قبول « الأركيولوجيا » للبناء إنما يعني تمسك بهدم «الذات». فالأركيولوجيا إذا سمحت بوجود بناءات ثقافية تصدر عن الوظيفة الرمزية كما هو الحال بالنسبة للبناءات الأنثروبولوجية واللغوية(١٤) ، قد يظن عندئذ بأن الذات مازالت تحتفظ بنشاط تركيبي constituante ، وتجميعي وموحد unifiante ولما كانت مبادىء المنهج عند فوكو تستهدف استبعاد الذات ونبذ الأفكار المتصلة بالأصل origine والشعور conscience ، لذا فإنه يعرض لعناصر الثقافة المتعددة على مستوى الكثرة التاريخية des multiplicités historiques وليس على مستوى البناءات (١٥).

ونحن لانتفق مع وجهة النظر هذه لسببين .

الأول : أن التسليم بوجود بناءات تصدر عن الوظيفة الرمزية لايستتبع بالضرورة الاعتراف بنشاط للذات. فالبنائية الانثروبولوجية واللغوية تصرح بصدور البناءات عن الوظيفة الرمزية كما تصرح بالتقاء بناءات الفكر مع بناءات الواقع ، وهي مع ذلك «لا تتحمل الذات» .

الثاني : أن الابستيمات عند فوكو قد تكونت لديه لا عن طريق التأمل ولكن نتيجة لوصف تجمعات المنطوقات .

---

(١٤) راجع : مقدمة الكتاب ، صفحة ٢ .

(15) G. DELEUZE :„ Un Novel Archéologue" , in (Critique No. 274. 1970).
Angèle KREMER-MARIETTI : Op., cit., ذكره

ومهما يكن من شيء ، فإن فوكوه يتفق مع سائر البنائيين فى رفض الشعور الزائف وأفول البشر أو موت الانسان .

وقد كان «موت الانسان» من الموضوعات الهامة التى أثارت تعليقات النقاد . ومعلوم أن الإشارة هنا ليست إلى الإنسان بلحمه ودمه ، بل إنها موجهة إلى صورة متحجرة لإنسان يحتضر لأنه لا يقوى على التصدى لنظمه ومؤسساته ونتائج علمه. وكأن الانسان قد خلق من ذات نفسه لنفسه حجرة تعذيب لم يتحرر منها بعد، أو كأن الإنسان يشقى بمرض يقال له الانسان(١٦).

ولم يكن هناك ما يبرر ثورة النقد هذه ، فالبنائية تساير نظرة العلم . أما الارادة التى تتصدى لها فإنها هى نفسها الارادة التى تقاوم نتائج التحليل النفسى وعلم اللغة والانثولوجيا .

يقول ليفى ستروس :

> «إن بعض الفلاسفة ينتقدون البنائية ويأخذون عليها أنها ألغت الفرد الإنسانى وقيمة المقدسة . و إنى لأندهش تماماً كاندهاشى لو علمت أن ثورة قامت بسبب نظرية «تيارات الحمل» (وهى النظرية المفسرة لحركة الغازات والسوائل) ، خصوصاً لو أن هذه الثورة تذرعت بأن تمددا لهواء الدافىء ثم حركته إلى أعلى قد يهدد حياة العائلة ومعنويات المنزل ، وأن تبدد الدفء يفقد حياة العائلة صداها الرمزى والمعنوى » (١٧)

(١٦) هنرى توماس ودانالى توماس : «أعلام الفكر الأوربى من سقراط الى سارتر» ، الجزء الثانى ، ترجمة عثمان نويه . (دار الهلال – يناير ١٩٧٧) .

(17) LEVI-STRAUSS : "L'homme nu" (Plon, 1971), p. 570.

ولم تؤاخذ البنائية دون غيرها بحجة أنها ضد الإنسان ؟ . ألم يعترف فرويد بأن أبحاثه في التحليل النفسي كانت اللطمة الثالثة للانسان بعد أبحاث كوبرنيكوس وداروين (١٨) ؟ .

لقد كان من أهم النتائج التي تمخضت عنها الأبحاث البنائية أن اهتزت الصورة القديمة لإنسان تمجده النزعات الإنسانية بينما هو في حقيقة الأمر ليس سوى عبد مغترب esclave aliéné، لا ينتفع بمقدراته لأن المجتمع التكنوقراطي أصبح يخطط له كل شيء ، وأبشع استغلال هو الذي يدمر أنماط الحياة التلقائية كما ذكرنا في المقدمة (١٩) .

وبينما كانت الفلسفة الوجودية تفسح المجال للذات وتنطلق ابتداء من العينى أو المعاش ، فإن المحاولة الابستمولوجية الجديدة عند فوكوه إنما تبرز «وجود اللغة» على أشلاء «اختفاء الذات» . فالإنسان المعاصر هو إنسان مزيف لأنه مكبل بعلاقات السلطة التي يتضمنها المقال . وهذا الأخير ليس مظهراً لما نعرفه ، بل هو «الموضع الذي تنشأ فيه وتتولد عنه كل معرفة » (٢٠).

وبناء على ماتقدم ، فإن تصريحات البنائيين لا ينبغي أن تثير فينا الخوف أو القلق ، لأنها تعبر عن واقع نعيشه فعلا. ونحن نتفق مع دومينال Domenach في أن تصريحات مثل :

أنا لا أوجد فيما أقول — Je ne suis pas dans ce que je dis

(18) J.M. PALMIER : "LACAN", (Ed. Universitaires, Coll. Psychothèque, 1969), p. 132.

(١٩) صفحة « ١٥ » .

(٢٠) زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ١٣٢ .

أو أنا لا أوجد حيث أفكر Je ne suis pas où je pense ، ينبغي أن تكون (هذه التصريحات) حافزاً لنا يساعدنا في أن نبحث عن حقيقتنا وأن نعيش حياتنا الخاصة المتفردة Pour vivre plus authentiquement, plus personnellement (٢١) . وكأن هذه التصريحات هي على الأحرى «صيحات ابستمولوجية» أراد بها فوكوه أن يوقظ أصحاب العلوم الإنسانية من سباتهم الإيقاني (أو الدوجماتيقي) .

وقد قال جان لوك نانسي Jean-Luc Nancy بحق :

«إن ما كتبه فوكوه يمكن أن يتلخص فيما يلي : إن الإنسان — كموضوع للمعرفة — يحتضر s'évanouit . وذلك لأن العلوم التي تدرسه إنما تشير إلى غيابه (يقصد الإنثرولوجيا وعلم اللغة والتحليل النفسي) . غير أن هذا قد يدفعنا أكثر من ذي قبل نحو ذات تختص بها هذه العلوم وتختفي وراء التحولات الظاهرة التي تطرأ على «الابستميه» . إنها ذات من نوع خاص تكتنفها الأسرار . وهي بكل تأكيد ليست عقلا خالصاً مزوداً بمقولات ، بل شيء آخر يختلف تماماً وربما كان أكثر ثراء . إن الكوجيتو لم يمت إذن ، غير أنه أصبح أقل تعلقاً بالذات . فالآن تتعدد اهتماماته ، وهكذا يشفى من الملل والقلق »(٢٢).

(21) J. M. DOMENACH : "Le Système et la personne", in (Esprit, Mai 1967), P. 778.

(22) Ibid.

وقبل أن نناقش مكانة «الأركيولوجيا» بين الأعمال الفلسفية المعاصرة، نود أن نذكر بأهم النتائج التى توصل إليها فوكوه سواء أكان ذلك فى المنهج أو فى التطبيق . ولنعلم مقدماً أن الفلسفة المعاصرة قلما فصلت بين المنهج والمذهب أو بين المنهج وتطبيقاته. فالمنهج — فيما يقول إدجار مورين Morin — «لا يماثل طريقة لطهى الوجبات recette ، كما أنه لا يماثل طريقاً ممهداً تجوبه السيارات autoroute . إنه يولد مع البحث، ويساعدنا على شق طريقنا فيه»(٢٣).
ومع ذلك ، سنجمل ما يمكن أن نسميه نتائج منهجية فيما يلى :—

أولا : كشف فوكوه عن مفهوم «المنطوق» ليشير به إلى أول جزئيات الحادث المقالى . وبين أن المنطوق هو الجملة التى يمكن أولا يمكن أن ينسب إليها معنى ، أو هو القضية التى يمكن أن تقبل أولا تقبل قيمة الصدق. كما بين أن وصف المستوى المنطوقى يكون بتحليل العلاقة بين المنطوقات. ونلاحظ أن وصف المنطوق هنا يقترب كثيراً من تعريف اللفظ فى علم اللغة البنائى(٢٤).

ثانياً : اكتشف فوكوه أرضاً جديدة تلتقى فيها الصيغة الأدبية والقضية العلمية والعبارات اليومية والهذيان الذهانى ، فكلها تلتقى فى تجمعات للمنطوقات فى حقبة منطوقية معينة . وهذا ما لم يتوصل إليه المناطقة أو التحليليون .

ثالثاً : لما كان وصف المنطوق يستلزم البحث عن علاقته بتجمع المنطوقات فى حقبة معينة ، لذا فقد ظهرت مفاهيم منطقية جديدة للهوية والتقابل تخالف ما هو معروف فى المنطق الصورى وتبشر بظهور منطق بنائى جديد يأخذ فى اعتباره عناصر الثقافة ودور «الإبستميه» (٢٥).

(23) Jean-Paul ENTHOVEN : "Les Trois visages d'Edgar Morin," Op. Cit.

(٢٤) راجع أيضا ص ص ٤—٥ .

(٢٥) راجع ص ص ٨٦ — ٩٦ .

رابعاً : رأى فوكوه أنه إذا كان لابد من البحث عن أصول ومبادىء فلسفية للعلوم ، فإن هذه الأصول والمبادىء لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها نهاية المطاف أو النقطة التي يتوقف عندها البحث . ذلك أن أركيولوجيا المعرفة تتعمق فيما وراء الأفكار الفلسفية بهدف البحث عن أنساق جديدة لتبعثر المنطوقات أو تجمعها . ومن ثم ، فإن أركيولوجيا المعرفة هي البحث فيما وراء العلم والفلسفة .

خامساً : كان فوكوه أول من فكر في صياغة التحول الابستمولوجي بما يشمله من قطع ، وما يترتب عليه من ظهور «ابستيمات» جديدة ، وما يتضمنه من عدم استمرار discontinuité . وبين فوكوه أن ظهور البنائية كان فاتحة حقبة معرفية جديدة أصبح فيها الرمز موضوعاً للعلم .

سادساً : كشف فوكوه عن العلاقة بين نسق المعرفة ونسق السلطة Pouvoir . فقد كانت دراساته تنفذ إلى ما وراء قشرة اللغة ، وتكشف الواقع التاريخي الاجتماعي بما يتضمنه من مظاهر السيطرة dominance الفعلية والإيديولوجية. وبين فوكوه أن المقال ليس له نمط واحد بل أنماط مختلفة ترتبط دائماً بالقوى الاجتماعية . ولذا فالمقال لا ينفصل عن نظام العمل أو الوجود بوجه عام .

سابعاً : لم يستبعد فوكوه إذن وجود علاقة بين «التكوينات المقالية» و«الممارسات غير المقالية» . وهذا ما دعا البعض إلى الكشف عن تقارب بينه وبين ماركس سنعود اليه في الصفحات القادمة .

ثامناً : أعطى فوكوه دفعة جديدة للمناقشات الدائرة الآن بخصوص «دور الذات». وكشف عن قوى ثقافية واجتماعية يمكنها أن تدعم كوجيتو من نوع جديد .

تاسعاً : يرجع الفضل لفوكوه فى أنه انتقل بالبنائية من «السينكرونية» أو «التزامن» و«الثبات» ، (وهي من صفات الانساق والبناءات) ، إلى «الدياكرونيه » أو التاريخ وما يتصف به من تعاقب للأحداث . ونجح فى التوفيق بين الاتجاهين .

عاشراً : لاحظت الباحثة آنى جيديه GUEDEZ أن فلسفة فوكوه تكون مساراً جديداً لم يعرفه تاريخ الفلسفة من قبل : إنها ليست اتجاهاً حتمياً مثل سائر الاتجاهات البنائية ، كما أنها يستحيل أن تلتقى مفاهيمها مع فلسفات الحرية ، وربما كانت أقرب إلى مفاهيم الاحتمال لتأثرها بروح العلم المعاصر(٢٦).

وهكذا نقوم بفصل تعسفى لأساسيات المنهج عند فوكوه . ولا نود أن نتوقف كثيراً لمناقشة ما تمخض عنه المنهج من تطبيقات فى مجالات مختلفة ، وسنكتفى بما أوردناه — بهذا الخصوص — فى فصول الباب الثانى من الكتاب. غير أننا — فى تقييمنا لأعمال فوكوه — نود أن نتعرض لنقطتين هامتين سبقت الاشارة إليهما ضمناً فى مواضع سابقة :

النقطة الأولى تتصل بظهور الطب والعلاج كموضوع للدراسة الفلسفية التى تسأل عن أصوله أو شروط ظهوره . والحق نقول أن فوكوه لم يكن أول من ابتكر هذه الدراسة . فقد ظهرت فى فرنسا دراسات مماثلة نشرتها المطابع الجامعية الفرنسية ضمن مجموعة كتب «جاليان» «Collection «GALIEN» ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر كتاب «السوى والمرضى» «Le normal et le pathologique» تأليف كانجلهم G. CANGUILHEM ، وكتاب «العقل والعلاج» «La raison et les remèdes» تأليف داجونييه F. DAGOGNET وكتاب «ميثولوجيا الطب الحديث»

(26) Annie GUEDEZ : op. cit., P. 71.

بالاضافة إلى Mythologies de la médecine moderne تأليف J. -C. SOURNIA كتاب «مولد العيادة» لفوكو الذى طبع للمرة الثالثة ضمن نفس المجموعة سنة ١٩٧٥.

ولم يكن العالم الناطق بالانجليزية بمعزل عن هذه الدراسات الفلسفية الطبية. فقد حدثنا الأستاذ الدكتور عزمى اسلام عن كتاب ألفه «ليدرمان» بعنوان «الفلسفة والطب» Philosophy and Medicine نشر «بلندن سنة ١٩٧٠ «تافستوك» Tavistock . ويقول الدكتور عزمى اسلام عن هذا الكتاب :

«قام (المؤلف) بتأصيل النظرية الطبية تأصيلا فلسفياً وذلك بذكر أهم الفلسفات التى تجيء الممارسة الطبية تطبيقاً لها ... وبذلك يكون قد أسهم إسهاماً كبيراً فى تطوير أحد المجالات الهامة التى تتناولها وتهتم ببحثها فلسفة العلوم المعاصرة» (٢٧).

أما النقطة الثانية فهى تتصل بالكشف عن علاقات السلطة Pouvoir داخل المقال. وهنا أيضاً لا يقف فوكو وحده على المسرح بل يشترك معه آخرون. فنجد مثلا أن رولان بارت Barthes الأستاذ بالكوليج دى فرانس يصرح فى «درسه الافتتاحى» «بأن للسلطة وجوداً داخل الآليات الدقيقة للعلاقات الاجتماعية. وهى لا تصدر فقط عن الدولة أو الطبقات الإجتماعية أو الجماعات المختلفة، بل إنها تكمن أيضاً فى طرز الأزياء modes والآراء الشائعة، والمسرحيات، والألعاب الرياضية، ووسائل الاعلام، والعلاقات العائلية والخاصة» (٢٨).

---

(٢٧) الدكتور عزمى اسلام : «الفلسفة والطب لليدرمان»، (مقالة بمجلة «عالم الفكر»، المجلد السادس، العدد الثالث، سنة ١٩٧٥) ؛ ص ص ٩١٩ - ٩٣٠ .

(28) Roland BARTHES : Op. cit.,

راجع أيضا هامش ص ٢٩٥ .

والطريف حقاً في هذا الموضوع هو ما يزمع فوكوه القيام به الآن. ففي أواخر عام ١٩٧٦ ظهر له كتيب بعنوان «تاريخ الجنس» اعتبره مدخلاً لمؤلفات قادمة تتخصص في دراسة أركيولوجية للعلاقة بين الجنس والسلطة والمقال . غير أن النقاد يجمعون سلفاً على صعوبة التوصل إلى نتائج إيجابية في هذا المجال : إذ كيف يمكن أن يطبق على الجنس sexe نفس المنهج التحليلي الذي استخدم في دراسة المقال الطبي والاضطراب العقلي ؟ لقد كانت هذه الدراسات الأخيرة تنصب على واقع معروف ومقنن اجتماعياً بينما تحتفظ مشكلات الجنس دائماً بنوعيتها ، وتفردها ، إن في ترجمتها إلى مقال نظرى لفهم أبعادها الاجتماعية وإن في علاقاتها بمقال السلطة . ولذا نلاحظ أن المشكلة الأساسية تتلخص في كيفية الحصول على مقال نظرى عن الجنس . وثمة فارق بين المقال النظرى وبين أى حديث عام ، فهذا الأخير نجده بصورة مختلفة لدى البشر منذ أمد طويل . أما المقال النظرى الذى يصعب الحصول عليه فهو الذى يهدف إلى تقديم تفسير لظواهر الجنس لاينبثق عن شهادة عينية وليس نتيجة لإبداع الخيال وليس قصصاً كما أنه ليس تأملا ، ولذا يصعب الحصول عليه. ويتساءل أندريه بورجير BURGUIERE في مقال له عن هذا المشروع الأخير لفوكوه : أليس من التناقض أن نتعرض بالمقال لمجال يختبىء الجزء الأكبر منه داخل اللامقول ؟ dans le non-dit (٢٩) (أى يتعذر الإفصاح عنه) .

وإذا كان فوكوه نفسه يعترف بأن «حضارتنا هي الوحيدة التي ظهر

---

(29) André BURGUIERE : Article sur "la volonté de savoir" de "Michel FOUCAULT", dans : (Le Nouvel Observateur, No. 638 du 31 Jan. 1977), P. 66.

بها من يتقاضون أجوراً فى مقابل استماعهم لمن يسرون إليهم بأسرارهم الجنسية»(٣٠).(يقصد الأطباء النفسيين)، فكيف يمكن أن نكتب تاريخاً فى هذا الموضوع يشمل الحضارات الأخرى التى سبقتنا ؟.

ومهما كان من شيء، فإننا نميل إلى تأجيل الحكم فى هذا الموضوع حتى تتضح الكلمة الأخيرة فيه بظهور ما وعد به فوكوه من مؤلفات. ونرى أن علاقة السلطة بالمقال — فى كتابات فوكوه — تصلح لعمل دراسة مستقلة لأهميتها.

والسؤال الذى يفرض نفسه بإلحاح على كل قارىء لكتابات فوكوه هو : ماذا يكون المقال الأركيولوجى ؟ تاريخ أم فلسفة ؟.

وعلى هذا السؤال يجيب فوكوه :

«إذا كانت الفلسفة هى تذكر أو بحث عن الأصول origines فإن ماقمت به لا يمكن اعتباره فلسفة. وإذا كان التاريخ ينحصر فى إعادة الحياة إلى أشكال تكاد تكون مطموسة، فإن ما أقوم به ليس تاريخاً» (٣١).

وهكذا يتبرأ فوكوه من فلسفة تتساءل عن الأصول، وتعتمد على التذكر، وتدخل الذات الترانسندنتالية، وتبتعد بالتالى عن الحقائق الموضوعية، كما يرفض أن يكون مؤرخاً تقليدياً على النحو الذى يقوم به تاريخ الأفكار.

ماذا يكون المقال الأركيولوجى إذن ؟.

هنالك من يقول أن التطبيقات الأركيولوجية فى مجال الطب والطب العقلى تقرب فوكوه من علوم الاجتماع. وكانت الحجة فى هذا القول أن الجنون ليس

(30) Michel FOUCAULT : "La Volonté de Savoir" Gallimard, 1976), P. 14.

(٣١) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة»، ص ٢٦٨.

كياناً مستقلا بل علاقة مسجلة فى صميم الواقع الاجتماعى ، وأن المرض ليس مرضاً إلا داخل ثقافة تعترف به من حيث هو كذلك (٣٢) . وللرد على هذا نقول : إن عالم الاجتماع يقرأ شفرة الواقع الاجتماعى كما تظهر أمام الملاحظ بطريقة مباشرة ، فيدرك التشابه بين الثقافات أو الاختلاف بينها . أما فوكوه ، فإنه يبحث فيا وراء المعطيات الفينومينولوجية عن «نسق» أو «بناء» . ونلاحظ أيضاً أن عالم الاجتماع ينظر إلى الجنون نظرة سلبية باعتباره خروجاً على القاعدة أو «المعيار» ، فى حين أن فوكوه ينسب إلى «الجنون» معنى ايجابياً يقول بضرورة الكشف عنه . فالجنون ليس مجرد موضوع معرفة فحسب ، بل هو أيضاً وسيلة معرفة (٣٣) .

ويتضح مما تقدم أن فوكوه ليس عالم اجتماع وليس مؤرخاً ، كما أنه ليس فيلسوفاً تقليدياً ، «فالفلسفات الكبرى لا تكتفى بالإجابة على أسئلة قديمة » . ومن ثم ، فقد قيل عنه بحق أنه «جدد الفلسفة المعاصرة» (٣٤) .

إن أركيولوجيا المعرفة قد فجرت المجال الهادىء والمنظم ، والذى كانت تسبح فيه الفلسفة التقليدية . فميشيل فوكوه يجبر الفلاسفة على التساؤل عن الفلسفة ذاتها : عن أسسها ، ومكانتها ، وضمان مشروعيتها .

وقد كان التفكير الفلسفى منذ بداياته الأولى عند اليونان لا يلبث أن ينبثق عن ذات متسامية ، تستقل بذاتها فى البحث عن الحقيقة (autonomie de l' esprit dans la recherche) . واستمر هذا الاستقلال منذ سقراط صاحب الصيغة

---

(32) Annie GUEDEZ : "Foucault" op. cit., PP. 24-25.
والدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ، ص ص ١٢٩ - ١٣٠ .

(٣٣) راجع : «الاغتراب والفكر المعاصر» ، الفصل الخامس .

(34) Angèle KREMER-MARIETTI : "Michel FOUCAULT", op. cit. (Voir note de l'Editeur sur la couverture.).

المشهورة «إعرف نفسك بنفسك» ، وأفلاطون الذى يصرح بأن «العلم تذكر» ، وديكارت صاحب نظرية «الأفكار الفطرية» . وقد عبر عن هذا الإستقلال أيضاً الفيلسوف جاسبرس (١٨٨٣ —) ، فعنده نجد «أن مسار الفكر الفلسفى يشهد اهتماماً بالتساؤلات أكثر من اهتمامه بالاجابة عنها » (٣٥) ! .

وإذا كان هذا هو حال الفلسفة التقليدية ، فإن الفيلسوف المعاصر لم يعد متأملا للذاته باعتباره «ذاتا ترانسندنتالية» بل باعتباره كائناً تاريخياً .فهل كان ذلك بتأثير «المادية التاريخية » ؟..

قال سارتر فى كتاب ظهر له سنة ١٩٦٠ أن «الماركسية هى فلسفة العصر» . واستطرد قائلا : «إن التجرؤ على تجاوز الفكر الماركسى هو — على أسوأ الفروض — عودة إلى ماقبل الماركسية ، وعلى أحسنها اكتشاف لتفكير متضمن أصلا فى الفلسفة التى ظن المفكر أنه تجاوزها» (٣٦) . وهذا يعنى أن «أركيولوجيا المعرفة» إما أن تكون متضمنة فى الفكر الماركسى وإما أن تكون فلسفة «رجعية réactionnaires» (وهو التعبير الذى يطلقه الماركسيون على أى فلسفة مثالية أو سابقة على الماركسية prémarxistre) . وسننظر فى الأمر بإمعان .

يقول ماركس فى كتاب «الإيديولوجيا الألمانية » :

«إن المقدمات التى نبدأ منها هى أسس واقعية لا يكون إهمالها إلا ضرباً من الخيال . إنها الأفراد العائشون

(35) JASPERS : "Introduction à la philosophie", cité par : Denis Huisman & André Vergez in "La Philosophie en 1500 citations", (Fernand NATHAN, 1963), P. II.

(36) J.P. SARTRE : "Critique de la raison dialectique" op. cit., P. 70.

(réels) ، وما يقومون به من عمل ، وأيضاً
الظروف المادية لوجودهم ، ما وجدوه منها جاهزاً
وما تولد نتيجة عملهم» (٣٧) .

وجاء في «أركيولوجيا المعرفة» لفوكوه أن أبحاثه تنصب أساساً على المنطوقات ، وعلى التكوينات المقالية les formations discursives . فهو يقوم «بمقارنتها ببعضها ، وبإظهار التقابل فيما بينها من خلال السياق الذى تظهر فيه ، وكذلك تمييزها عن مثيلاتها التى لا تتزامن معها ، ثم إيجاد علاقتها الخاصة مع الممارسات غير المقالية les pratiques non-discursives التي تحيط بها وتكون منها بمثابة مبدئها العام » (٣٨) .

فهل يمكن — رغم التباعد الظاهر — من هذين النصين أن نقرب بين ماركس وفوكوه ؟ .

ربما كان البحث في علاقة المنطوقات بالممارسات غير المقالية هي النقطة الوحيدة التي يلتقي عندها الفيلسوفان . وقد أثبتت الباحثة دومينيك ليكور Dominique LECOURT (٣٩) هذا الالتقاء استناداً إلى أن الماركسية وهى التى أرست دعائم «المادية التاريخية» كانت فعلا في حاجة لنظرية تصف البناءات الفوقية Superstructures وتبرر ظهور الممارسات المقالية . وعلى هذا يكون فوكوه مكملا للمسار الماركسى ، ويستبعد — بالتالى — أن يكون رجعياً .

---

(37) Karl Marx et Friedrich Engels "L' Idéologie allemande", (Editions sociales, 1965), P. 18.
ذكرته : Angèle KREMER-MARIETTI : Op. P. 108.

(٣٨) فوكوه : «أركيولوجيا المعرفة» ، ص ٢٠٥ .

(39) Dominique LECOURT : Op. cit. PP. 127—133.

المصطلحات البنيوية

— «اغتراب» أو «خبل» (بفتح الباء وسكون اللام). : Aliénation —
والكلمة تعني بوجه عام علاقة اندماج بين الذات والموضوع.

— «مغترب» (بكسر الراء) أو «خبل» (بكسر الباء وسكون اللام). : Aliéné (s) —

— «الآخر» وقد يقصد به الأغيار، كما يقصد به اللغة ذاتها من حيث هي نظام حال أو «عايش» ولاشعوري بالنسبة للفرد. : Autre —

— «غفل» (بضم الغين) وهي صفة للمجال أو النسق أو البنية التي تتكون في غيبة الذات. : Anonyme —

— «القبلي الملموس» أو «التاريخي» ويقصد به عناصر البناء الثقافي السائد في حقبة معينة. A priori : (concret, historique) —

— «الأرشيف» أو الخزانة التي تنطوي على أنماط المقال. : Archive —

— «الأركيولوجيا» وتعني «علم الآثار». غير أن فوكو يستخدمها استخداماً خاصاً (راجع الفصل الثاني). : Archéologie —

— «ثنائي» وهو حال النسق الذي يتكون من ازواج من الحدود المتقابلة. : Binaire —

— اللغة من حيث هي تتابع للعلامات الدالة. : Chaîne —

— «مجال غفل» (بضم الغين). : Champ anonyme —

— «مجال منطوق». : Champ énonciatif —

— «العيادة» (راجع الفصل الخامس). : Clinique —

— Code : — «قانون النسق» أو مجموع قواعد اللغة.

— Concret : — «عيني» أو «ملموس» .

— Continuite : — اتصال أو استمرار .

— Conventions : — متواضعات (يوسف كرم : المعجم الفلسفي) .

— Coupure : — «قطع» وهذا الاصطلاح يعني على وجه الخصوص عدم الاعتراف بالاستمرارية التي ترتبط «بالذات» (راجع الفصل الثاني) .

— Cumul : — تراكم .

— Communication. : — تواصل (أو اتصال) .

— Cohésoin fonctionnelle : — تماسك وظيفي.

— Découpages : — قطاعات (معرفية) ، يفترض أن تكون متماسكة داخل نسق أو بناء .

— Dédoublement : — «مضاعفة» أو ازدواج.

— Déraison : — «عته» ، أو حالة غياب العقل

— Diachronie : — «التعاقب» أو التطور ، ويستخدم البنائيون هذا الاصطلاح للدلالة على تغير يطرأ على النسق ويسمح بظهور نسق أو بناء جديد .

— Discours : — مقال

— Discontinuité : — عدم الاستمرارية (عدم اتصال)

— Dogmatique : — نزعة «إيقانية» (ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم)

— Données énonciatifs : — معطيات «منطوقية» أو المنطوقات التي تكون موضوعا للبحث .

— «انتشار» المنطوقات. — Dispersion des énoncés :

— المجال الابستمولوجي ، أو «الاستعداد المعرفي السائد» . — Epistémè :

— «منطوق» — ويقصد به كل رسالة صوتية أو مكتوبة أومعبر عنها بالاشارات . — Enoncé :

— عملية توصيل «الرسالة» ، ويندرج تحتها فعل «الصياغة» . — Enonciation :

— حدث مقالي . — Evénement discursif :

— مجال مكاني . — Espace :

— حالة التناهي . — Finitude :

— وقائع مقالية . — Faits discursifs :

— وقائع منطوقية — Faits énonciatifs :

— وظيفة منطوقية . — Fonction énonciative :

— تكوين مقالي . — Formation discursive :

— علم النحو يدرس قواعد التحول التي تخضع لها الجمل . — Grammaire Générative:

— الكون أو «المحايثة» (ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم) وهو من المبادىء الأساسية للمنهج البنائي ويقوم على تحليل الظاهرة من داخلها دون البحث عن مؤثرات خارجية . فعلم اللغة البنائي مثلا يدرس النسق اللغوي دون النظر إلى الأفراد الذين يتحدثون اللغة . — Immanence :

— مؤسسات — نظم . — Institutions :

— بناء (تحتي) ،أو بنية سفلية (ترجمة زكريا ابراهيم) — Infrasturcture :

— Indicible : — مالا يمكن التعبير عنه بالقول ، وهو من صفات «غير المتعقل» .

— Insensé : — خبل (بفتح الخاء وكسر الباء) .

— Isotopie : — اتساق المدلولات داخل المقال .

— Limite : — «حد» (المقال) ، وهو من الاصطلاحات الهامة عند فوكو، لأنه يؤمن بالقطع ولا يعترف بالاستمرارية .

— Métalangage : — «ماوراء اللغة» ، أو اللغة التي تضطلع بوصف لغة أخرى .

— Mutation : — تحول .

— Mécanismes : — آليات (ترجمة الدكتور زكريا ابراهيم) .

— Niveau énonciatif : — المستوى المنطوقي ، وهو موضوع الدراسة عند ميشيل فوكو ، في مقابل المستويات اللغوية والمنطقية .

— Paradigme : — علاقة التقابل ذو الدلالة بين لفظين أو أكثر .

— Période énonciative : — حقبة منطوقية .

— Performance verbale : — أداء لفظي .

— Phonème : — وحدة صوتية .

— Phonétique : — «علم الأصواتيات» ، وهو العلم الذي يدرس الجانب الفسيولوجي لاستخدام الأصوات .

— Phonologie : — «علم الأصوات الوظيفي» ، وهو يدرس العلاقة بين الأصوات التي تستخدمها اللغة .

— Rareté des "énoncés" : — ندرة «المنطوقات» .

— Régularité des énocés : — اطراد «المنطوقات» .

— Ressemblance : — مضاهاة ، أو «مشاكلة» أو تشابه .

— «قطيعة» ، واللفظ يشير إلى حد يفصل بين الأنساق الثقافية ويفترض عدم الاستمرارية . — Rupture :

— علم المدلولات . — Sémantique (la) :

— علم الدالات . — Séméiologie (la) :

— «علامة» ، وهي الكل الذى يتكون من دال ومدلول . — Signe : —

— دال (وهو الجانب المرئى أو المسموع من العلامة). — Signifiant : —

— مدلول ، (وهو الجانب المجرد وغير الملموس للعلامة) . — Signifié : —

— تماثل . — Similitude :

— اتجاهات عامة تنبثق عن النسق الثقافى السائد . — Stratégies :

— «بناء» ، أو «بنية» ، وهو كل يتكون من ظواهر متماسكة لا تكتسب معناها إلا بانتمائها إلى هذا الكل . — Structure :

— بناء (فوقى) . — Superstructure :

— «التزامن» ، وهو من المبادىء الأساسية لدى البنائيين ، ويفترض دراسة الأنساق بمعزل عن البعد الزمنى بعيداً عن التطور . — Synchronie : —

— «نسق» ، والنسق البنائى يفترض دائماً وجود أزواج للتقابل بين عناصره . — Système : —

— علم التصنيف . — Taxinomia :

— الصفة المميزة «الدال» . — Trait :

المراجع

أولا : مؤلفات ميشيل فوكوه :

- FOUCAULT MICHEL : "Maladie mentale et psychologie", (P.U. F. 1954).

— : "Histoire de la folie à l'âge classique", (Plon, 1961).

— : "Naissance de la clinique", (P. U. F., 1963).

— : "Raymond Roussel", (Gallimard,, 1963).

— : "Les mots et les choses", (Gallimard, 1966).

— : "L'Archéologie du Savoir", (Gallimard, 1969)

— LOrdre du discours", (Gallimard, 1971).

— : "La Volonté de Savoir", (Gallimard, 1976)

ثانياً : مراجع عن ميشيل فوكوه والاتجاه البنائي بوجه عام :

١ — الدكتور زكريا ابراهيم : «مشكلة البنية» ،(مكتبة مصر،سنة ١٩٧٦).

٢ — الدكتور زكريا ابراهيم :«بين الاتصال والانفصال» ،(مقال بمجلة العربي الكويتية ، عدد يوليو سنة ١٩٧٦) .

٣ — عبد الوهاب جعفر : «المدخل الفلسفي للأنثروبولوجيا البنائية» ، (رسالة ماجستير ، مايو سنة ١٩٧٥ ،(مكتبة كلية الآداب).

– BARTHES ROLAND: "Leçon inaugurale au Collège de France", in (Le Monde hebdo., No. 1472, du 13 Janvier 1977).

– BOUDON RAYMOND : "A quoi sert la notion de structure ? " (Gallimard, 1968).

– BURGELIN PIERRE : "L'Archéologie du Savoir", article in (Esprit, Mai 1967).

– BURGUIERE ANDRE:"La Volonté de Savoir de Michel Foucault", article dans (Le Nouvel Observateur No. 638, du 31 Jan. 1977).

– CRESSANT PIERRE : "Lévi-Strauss", (Psychothèque Ed. Universitaires, 1970).

– DELEUZE GILLES : "Un Nouvel Archiviste", article in (Critique, Mars 1970).

– DOMENACH J.M. : "Le Système et la personne", article in(Esprit, Mai 1967).

– DROIT ROGER-POL:"Le Père et sa Divine absence", article dans

(Le Monde hebdo. No. 1468 du 16 Décembre 1976).

- DROIT ROGER-POL : "Le Pouvoir et le sexe", article dans (Le Monde hebdo., No.. 1477, du 17 Février 1977).

- DUFRENNE MIKEL : "La Philosophie du néo-positivisme", in (Esprit, Mai 1967).

- FAGES J.—B. : "Comprendre le Structuralisme", (Privat, Toulouse, 1968).

- GUEDEZ ANNIE : "Foucault", (Psyuhothèque, Editions Universitaires, 1972).

- KREMER-MARIETTT ANHLE:"Michel Foucault",(Seghers, 1974).

- LECOURT DOMINIQUE:"Pour une critique de l'épistémologie", (Maspero, 1974) .

- LEVI-STRAUSS CLAUDE : "Tristes Tropiques", (Plon, 1955).

— : "Le Cru et le Cuit", (Plon, 1964).

— : "L'homme nu", (Plon, 1971).

- MILLET LOUIS : „Le Structuralisme", (Psychothèque, Editions Universitaires, 1970).

- PALMIER J.M. :"Lacan", (Ed. Universitaires, Coll. Psychothèque, 1969).

- PARAINVIAL JEANNE:"Analyses structurales et idéologies structuralistes", (Privat, Toulouse, 1969).

- PIAGET JEAN:"Le Structuralisme", (Que sais-je), (P.U.F., No. 1311).

- POS H.J. : "Perspectives du Structúralimse", dans (Travaux du Cerc le linguistiquede Prague 8., Prague, 1939).

- WAHL FRANçOIS:"Le Structuralisme en philosophie", in "Qu'est-ce que le Structuralisme ?, Oeuvre colectif, (Seuil, 1968).

ثالثاً : مراجع أخرى استعان بها الباحث :

١ — الدكتور زكريا ابراهيم : «دراسات في الفلسفة المعاصرة» ، (مكتبة مصر سنة ١٩٦٨) .

٢ — ————————— : «برجسون» ، (دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٨) .

٣ — الدكتور زكي نجيب محمود ، أحمد أمين : «قصة الفلسفة الحديثة» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة سنة ١٩٥٦) .

٤ — الدكتور عثمان أمين : «الفلسفة الرواقية» ، (مكتبة الأنجلو المصرية سنة ١٩٧١) ، الطبعة الثالثة .

٥ — ————————— : «التأملات في الفلسفة الأولى» ، (ترجمة) ، (مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥١) .

٦ — يوسف كرم : «تاريخ الفلسفة اليونانية» ، (لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٥٣) .

٧ ————————— : «تاريخ الفلسفة الحديثة» ، (دار المعارف بمصر سنة ١٩٤٩) .

٨ — ————————— : يوسف شلالة ، مراد وهبة : «المعجم الفلسفي» ، دار الثقافة الجديدة ، سنة ١٩٧١ .

٩ — هنري توماس و دانالي توماس : «أعلام الفكر الأوروبي . من سقراط

إلى سارتر» ، ترجمة جان‌نوبه ، (دار الهلال ــ يناير سنة ١٩٧٧) ، الجزء الثاني .

١٠ ــ الدكتور عزمي اسلام : «الفلسفة والطب البيدرمان» (مقال بمجلة عالم الفكر ، المجلد السادس ، العدد الثالث ، سنة ١٩٧٥) .

١١ ــ علي أدهم : «نيتشة وموقفه الرافض من التاريخ» ، (مقال بمجلة العربي الكويتية ، عدد ديسمبر سنة ١٩٧٥) .

- CASTEx P. :"Manuel des Etudes Littéraires IV", (Hachette, 1949).
- ENTHOVENJEAN PAUL:"Les Trois visages d'Edgar MORIN", (Entretien dans Le Nouvel Observateur, No. 63 du 16 Mai 1977).
- LACOSTE JEAN :"Entretien avec Michel Serres", dans (La Quinzaine Littéraire du 16 Mars 1977).
- LACROIX JEAN : "Panorama de la philosophie française contemporaine (P.U.F, 1966).
- LALANDE ANDRH : "Vocabulaire Technique et Critique de la Philo-sophie", (P.U. F., 1962).
- ROBINET ANDRH: "La Philosophie française", (P.U.F., 1966).
- SARTRE J.P. :"Critique de la raison dialectique", (Gallimard,1960)
- VERGEZ ANDRH & HUISMAN DENIS : "La Philosophie en 60 chapitres", (Fernand Nathan, 1965).
- VERGEZ ANDRH & HUISMAN DENIS:"La Philosophie en 1500 citations" (Fernrnd Nathan, 1965·
- WAGNER R. :"Grammaire du Français Classique et Moderne", (Hachette, 1962).
- GRAND LAROUSSE ENCYCOLOOPHDIQUE : "Supplément", (Larousse, 1970).

إستدراك

ننبه القارئ إلى ضرورة تصحيح بعض الأخطاء التي وقعت سهواً وهي :

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	١٩	بل إلى الكشف	بل إنهم يهدفون إلى الكشف
٧	١٠	تقتنع	نقتنع
٧	١٠	الغالبه	الغائية
٧	١٢،١١	ليس تتصور من	ليس من
٥٣	٢	يكن	يمكن
٧٢	١٦	ص ٤	ص ٣٩
٧٢	١٧	ص ٣٣	ص ٦٦
٧٥	١٧	ص ٢٠٩ بالرسالة	ص ٢٧٤ بالكتاب
٩٨	٧	مجتمع ثقافة	مجتمع لتعدد ثقافة
١٢١	١٨	ص ٩٥	ص ١٠٢
١٦٤	١٦	إلى القول	إلى أن القول
١٦٥	١	أطلمت	أمانت
١٧٦	١٢	لأعتبار	لاعتبار
١٧٧	١٩		(٤١) نفس المرجع، ص١٦٦
١٩٦	٢	الجوار	الحوار
٢٦١	١٩	ص ٤١	ص ٧٥
٢٦٢	١٧	تجسيمها	تجسمها
٢٦٣	١١	ص ١٠٥	ص ١٤٩
٢٦٥	١٠	وتختص	تختص
٢٧٦	١٥	بعد عتبة .	بعد إلى عتبه

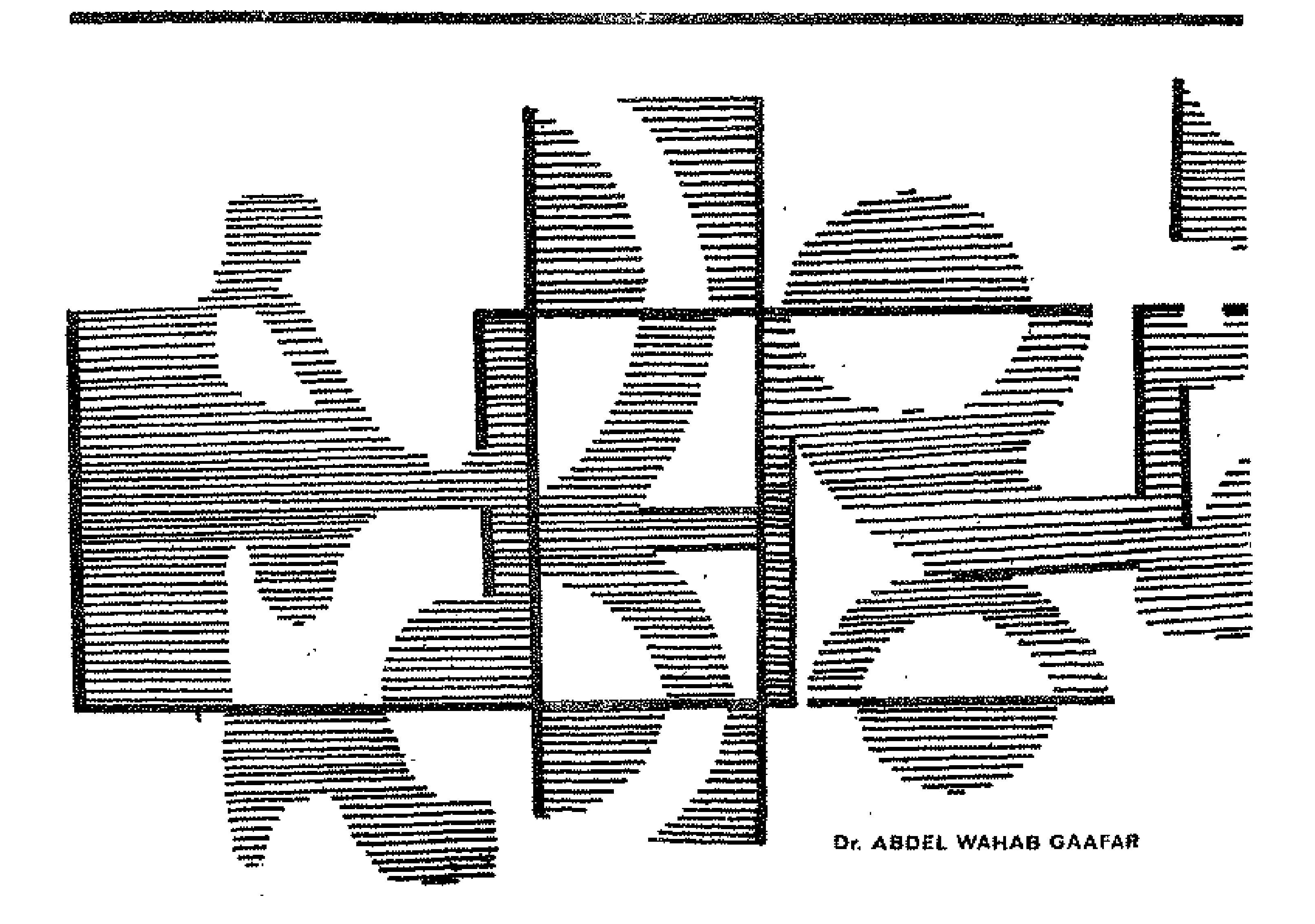
المحتويات

صفحة

البنيوية بين العلم والفلسفة عند ميشيل فوكوه

دار نـور الفجـــر
للطباعة والتجليد
١٧ ش مسجد الحصرى
ت : ٤٩١١١٤٥٠

Le STRUCTURALISME Chez MICHEL FOUCAULT



Dr. ABDEL WAHAB GAAFAR